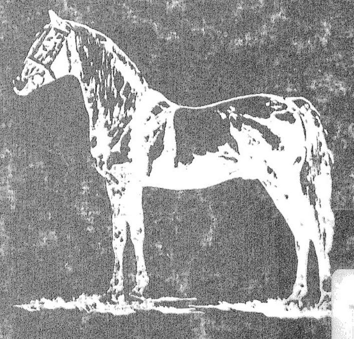
محمد الصالح آل ابراهيم

الخيل عند العرب

الجزء الأول





الكتاب من نشر المؤلف ولا يُباع

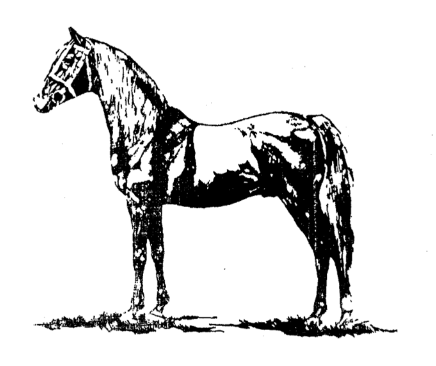
مهداة من :

محمد الصالح ال ابراهيم

محمد الصالح آل ابراهيم

الخيل عند العرب

الجزء الأول



الخيـــل عند العرب

بقلـــم
محمد الصالح آل ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله والصلاة والسلام على خيرته من خلقه وآلــه

يؤكد علماء الحيوان أن الخيل مرت بأطوار متعددة وأنها لم تكن بهذا الحجم الذي هي عليه الآن ويقولون أن جرمها كان لا يتعدى جرم الحمل ثم يقررون أنها كانت ذات اظلاف وأن الفرجة بين الاظلاف قد زالت بحكم التطور ثم اكتسبت حوافرها بمرور الزمن (١). ولا نرغب ان ندخل مع هؤلاء العلماء فيما توصلوا اليه من اكتشافات وحقائق وما اعتورها من خلط وأوهام، ولكنا نريد ان نشير الى أن جهودهم المتواصلة في دراسة الانواع واكتشافاتهم الأثرية التي اوصلتهم الى بعض الحقائق كانت مكشوفة لنا منذ نزول القرآن الكريم ومنذ أن جاءت الرسالة الخالدة، بأبعد مدى وأوضح رؤية وأظهر حقيقة. ان الله سبحانه جلت حكمته وتعالت قدرته قال في كتابه العزيز (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) (٢) وقال جل شأنه (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) (٣).

ان هاتين الآيتين الكريمتين تكشفان لنا بوضوح ما استغلق على علماء الطبيعة فهم حينما يعتقدون ان الطبيعة مسرفة في التكاثر يعودون فينقضون ما يعتقدون باعتقادهم بالانتخاب الطبيعي، ولقد اطلعنا القرآن الكريم في هاتين الآيتين على نظرية علمية متكاملة للخلق والابداع. ان المشيئة الالهية العليا هي التي تخلق ما تشاء وان

---

(١) اما موطنها فيختلف في تعيينه المؤرخون العصريون فبعضهم يحدده بأواسط آسيا وبعضهم يحدده بمواطن أخرى ولا شك أنهم واهمون فالحيوان قبل تمدن الانسان كان هو المنطلق في أنحاء البسيطة والخيل قد اكتسبت مزاياها بفضل هذا الانطلاق فهي تذرع الأرض طولا وعرضا طلبا للكلأ والمرعى ومرانا لاعضائها ولعلها وجدت في الجزيرة العربية في ذلك الزمان ما تريده من مرعى وما تطلبه من مساحات

(٢) سورة القصص ٦٨

(٣) سورة فاطر ١

الاختيار منوط بالقدرة الربانية والحكمة الالهية. وحتى الخيرة لم تكن لهم لأنهم لا يدركون مفهومها بله مغزاها وأسرارها فتعالى الملك الحق عما يشركون.

وتبدأ الآية الثانية بحمد الله فاطر السموات والأرض مبدع الكائنات وهنا يجب أن ننبه القارىء الى الربط المحكم في تصوير الابداع الالهي في الخلق، والتناسب الفريد في موضوع الآية ففاطر السماوات مجموعة والأرض موضع الانسان وموضوعه، والمخلوقات العلوية الذين جعلهم رسلا أولي أجنحة مختلفة، ثم تأتي القدرة الالهية المطلقة (يزيد في الخلق ما يشاء) ليست مقيدة الا بالمشيئة الربانية، ولا محددة بالملائكة أو غيرهم، بل عامة في الخلق متى يشاء مكونه.

ولا يمكننا التعرض في هذا الكتاب لتفسير هاتين الآيتين وما يكتنفهما من أسرار وما يحيط بهما من علوم وما كشفتاه من قيم فكرية وبدائع خلقية وما دلتا عليه من منهج مسلكي للتعرف على الحقائق اذ أن ذلك يحتاج الى سفر خاص ولكنا نريد أن نقف وقفة يسيرة عند قوله تعالى (ويختار) (ويزيد في الخلق) ان الاختيار في الخلق والتحكم في تكوينه والتمكن من تطويره عائد الى الفيض الالهي والانتقاء الرباني.

وهكذا يرد القرآن على النظرية الخاطئة لعلماء الطبيعة حينما يجرفهم الضلال فينسبون ذلك للطبيعة.

وللاختيار الالهي مغزى عظيم فهو كرامة يسديها المولى جل وعز لمن شاء من خلقه وفي الاختيار والزيادة حكمة بالغة متعددة الجوانب أحد جوانبها ذلك الذي اختير.

ويقرر القران الكريم الزيادة في الخلق وان المولى تعالى هو المهيىء لتقبلها والمتخير في اسدائها والمنظم لاكتمالها لا كما يزعم هؤلاء حينما يعتقدون أن الطبيعة وحدها هيأت العوامل في التغيير والتطور والزيادة

وعندما نسألهم لماذا كان هذا التطور في هذا الحيوان بالذات ولم يكن في ذاك ـ مع تماثل الخلق والهيئات في الحيوانين ـ لا نجد لديهم جوابا.

ولقد دلنا القرآن على المسلك الصحيح والمنهج القويم حين اطلعنا على أن السر كامن في الاختيار الالهي وان الزيادة مرتبطة بالمشيئة العليا ومن هذه الابعاد تختلف نظرتنا الاسلامية عن نظرة علماء الطبيعة فهم لا يتبينون من تلك الزيادة الخلقية والتطور المنظم الا ظواهره البسيطة، أما كوامن أسراره ومهيئات تنظيمه ومبدعات تكوينه واحكام صنعه فهم عنه غافلون.

وليست النظرة الحديثة للتطور بما فيها من مجاهل وحقائق وأوهام وليدة العصور المتأخرة كما يعتقد بل هي وليدة بعض المفكرين الاسلاميين وقبل أن تفقه أوربا معنى التفكير العلمي (١).

يقرر علماء التطور ان الخيل مرت بأطوار ستة استغرقت ما يقرب من ستين مليونا من السنين ويقولون أن ارتفاع الخيل الاولى لا يتعدى القدم وأنه كانت لكل يد أربعة أظلاف وشظية ولكل قدم ثلاثة أظلاف وشظيتان، وانها اكتسبت حوافرها وجسمها بعوامل التطور ومرور الزمن.

ويدللون على نظريتهم بما اكتشفه علماء الآثار من بقايا عظام وجماجم لهذا الحيوان الصغير الذي أصبح فيما بعد هذا الجواد المعروف.

ويزعم علماء الآثار انهم وجدوا بقايا هذا الحيوان وقد مرت عليه خمسون مليونا من السنين. ويعتقد علماء التطور أنهم على أساس

---

(١) عقلة المستوفز لمحي الدين بن عربي صفحة ٩٣-٩٤ طبع ليدن سنة ١٣٣٦هـ

الاكتشافات الأثرية يستطيعون رسم وتشكيل الأطوار الستة التي مرت على الخيل بدقائقها وتفصيلاتها الظاهرية. ويعارض بعض العلماء المحدثين الذين لا يؤمنون بالتطور هذه الآراء ويدحضونها بحجج منطقية.

وتختلف نظرتنا العلمية الاسلامية عن هؤلاء وأولئك حيث نعلم يقينا أن هذا الحيوان نالته كرامة ربانية خاصة حين أقسم المولى جل وعز به فقال في كتابه العزيز (والعاديات ضبحا) ومن هنا نستطيع أن نستكشف الكثير من الآثار المعنوية والخلقية التي اختص بها هذا الحيوان ومن ثم يتبين لنا جوانب علمية ومميزات خلقية ودقائق تكوينية ان الكرامة الالهية ليس من اليسير تفهمها تفهما دقيقا الا بالعلم الثابت والبحث المستقصى للحقائق اليقينية والتتبع المستفيض للابداعات التكوينية.

ومن التكريم لهذا الحيوان قوله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وهذا التخصيص العظيم في اللسان العربي يعطي المدى الأبعد للتكريم والأهمية.

ولقد أعطى الاسلام الخيل مكانة عليا تكاد تقرب من التقديس فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال (عاتبني جبريل في الخيل) الروح الأمين ينزل ليعاتب رسول الاسلام في الخيل ألا يدلنا هذا على حقائق تكريمية إلهية استحقها هذا الحيوان؟

وقوله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الشيطان بيتا فيه فرس عتيق) لقد بين لنا هذا الحديث الأسرار الخفية والمزايا المعنوية التي لا يستطيع علماء الظاهر ان يدركوها فليس في مقدورهم أن يكتنهوا أسرار الباطن وكل ما في وسعهم أن يتلمسوا خفايا الخلق الظاهر وفي الحديث حقيقة علمية اذ قيدت هذه المزية المعنوية بالعتق فدل هذا التقييد على أن تلك الخصيصة ليست في النوع كله بل في فصائل منه

وهكذا تتضح لنا النظرية الاسلامية في تحديد الصفات المتميزة الخفيه في فصائل معينة.

ويقول صلى الله عليه وسلم (الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة) وهذا القول النبوي الشريف يحمل في طياته معاني جمة ويكشف عن خصائص فريدة في هذا النوع وينبىء عن حقائق ثابتة أبدية ويربط بين الخيل والخير في المسيرة الدنيوية ــ تلك دقائق علمية ونظرات نبوية واستكشافات اسلامية.

وقد نستنتج مما أولاه الاسلام من عناية بالخيل فائقة واهتمام عظيم ورعاية لا نظير لها وجود كثير من المزايا والأسرار الخلقية والمعنوية سواء كانت زيادة في الخلق أو تمييزا في المؤهلات والصفات.

وحينما يأمر الاسلام باكرام الخيل والحث على ارتباطها فانما يوجهنا نحو القيم والمزايا المكونة فيها.

قال صلى الله عليه وسلم (اكرموا الخيل ولا تقلدوها الأوتار) أمر باجلال الخيل والمحافظة عليها وأمر بألا تضايق في شيء.

ويقول صلى الله عليه وسلم (اكرموا الخيل فانها ارث أبيكم اسماعيل) وهنا حض على اكرامها وتنبيه لحقيقة تاريخية في تدجينها الكامل. ومن تلك المنزلة العالية والتكريم الفريد الذي خص به الاسلام الخيل نستطلع على اشارات وتوجيهات تفتح لنا السبل وتعيننا على تبين الحقائق.

تدجين الخيل

وحينما نقترب من عصر التحضر اي ما قبل خمسة عشر ألف سنة نجد بعض العلماء يؤكد ان الخيل قد استعملت في تلك العصور ولكننا لا نجد ما يثبت ذلك قطعيا.

وعندما ندخل عصر الحضارات نجد بعض ملامح تدل على التدجين المنفرد او التخيل فهناك صور عند الاشوريين منذ ما يقارب اربعة آلاف سنة قبل الميلاد تظهر العربات التي تجرها الخيول او الحيوان الشبيه بالخيل ثم منذ هذا التاريخ حتى حوالي الالفي عام قبل الميلاد لا نجد استعمالا حقيقيا للخيل وكل ما نجده صورا نادرة للخيل على تماثيل واواني او ماشابهها وصورا لعربات تجر بالخيل. ومن الممكن ان نعتبر هذه الصور تسجيلا لعمل خارق اذ لا نجد هذه الاشياء في وجود ثابت متواصل وعلى ذلك نستطيع ان نقرر ان هذا التدريب للخيل كتدريب الوحوش الضارية على القيام ببعض الاعمال.

وفي القرن الثامن عشر قبل الميلاد ظهر استعمال الخيل في مجالات شتى وكان ابرزها ادخالها في الحرب عند الحيثيين في سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد وقبل ذلك لم يكن لها اي وجود فعلي في الحروب ومن هنا نستطيع ان نتبين فترة تدجينها العملي وانه لا يتعدى القرن العشرين قبل الميلاد ويحق لنا ان نعتبر النظرة العربية الاسلامية هي الحقيقة الصادقة في تعيين بدء تدجين الخيل باسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ونستطيع ان نستنتج ان الخيل قبل اسماعيل كانت حيوانات سائبة يصيدها الانسان ليأكل لحمها واذا ما حاول استغلالها أو استعمالها فهو استعمال نادر ودليلنا على ذلك عدم ديمومته واستمراره ولذلك نرى ان الانسان اعتبر الخيل وحشية فيما قبل الالفين قبل الميلاد.

ونرى أن اسماعيل عليه السلام هو اول من دجن الخيل تدجينا كاملا حيث نقلها من وحشيتها الى ان تمكن من تانيسها واستعمالها في جميع الاغراض التي يمكن استغلالها فيها.

ولا شك ان العرب قد ساروا على طريقة اسماعيل في تدجين الخيل وانتقل ذلك منهم الى جيرانهم الحيثيين فاستعملوها في الحرب وكذلك الميسنيين والهكسوس ومن ثم اصبح للخيل مكانتها العظمى — ولا بد ان الخيل قد استعملت في اغراض اخرى قبل ان تستعمل في الحروب ونعتقد ان استعمالها في الصيد والنقل كان اولا ولكن الفترة بين الاستعمالين كانت وجيزة اذ ان الانسان قد تمكن من تدجينها الكامل والسيطرة عليها ويجمع المؤرخون العرب ان اول من ركب الخيل اسماعيل بن ابراهيم وانها كانت قبل ذلك وحشا لا تطاق.

وهناك رواية اوردها ابن الكلبي على الزعم قال (ويزعم ان فياضا من حوشية وبار بن اميم بن لود بن سام بن نوح وانه لما هلكت وبار صارت خيلهم وحشية لا ترام) وهذا القول يؤكد ما ذهب اليه بعض العلماء من استعمال الخيل في العصر الحجري وحينما نقترب من العصر الذهبي للخيل العربية ويبدأ تسجيلها وحفظ انسابها نواجه بكثير من الروايات المضطربة والاساطير الملفقة ونجد ان مؤرخي الخيل وفي مقدمتهم ابن الكلبي قد اعتمدوا تلك الروايات الواهية وتجنبوا من الروايات ما يقرب الى الحقيقة وضعفوها ولو تحروا الدقة واتبعوا المنطق لنبذوا ما اكدوا وتيقنوا مما ضعفوا.

يزعم ابن الكلبي في رواية نسبها الى ابن عباس (ان اول ما انتشر في العرب من تلك الخيل يقصد الخيل التي اخرجت لسليمان من البحر) ان قوما من الازد من اهل عمان قدموا على سليمان بن داود بعد تزوجه بلقيس ملكة سبأ، فسألوه عما يحتاجون اليه من امر دينهم حتى قضوا من ذلك ما أرادوا، وهموا بالانصراف، فقالوا: يانبي الله ان بلدنا شاسع، وقد انفضنا من الزاد. مر لنا بزاد يبلغنا الى بلادنا فدفع اليهم سليمان فرسا من خيله، من خيل داود: قال هذا زادكم فاذا نزلتم فاحملوا عليه رجلا، واعطوه مطردا، واوروا ناركم

فانكم لن تجمعوا حطبا وتوروا ناركم حتى ياتيكم بالصيد، فجعل القوم لا ينزلون منزلا الا حملوا على فرسهم رجلا بيده مطرد، واحتطبوا واوروا نارهم فلا يلبث ان ياتيهم من الظباء والحمر فيكون معهم منه ما يكفيهم ويشبعهم ويفضل الى المنزل الاخر فقال الازديون: وما لفرسنا هذا اسم الا: زاد الراكب فكان ذلك اول فرس انتشر في العرب من ذلك الخيل. ولا يخفى على الناقد البصير والباحث المحقق ما في هذه الرواية من تلفيق واضطراب انظر الى ما جاء في هذه الرواية (فسألوه عما يحتاجون اليه من امر دينهم ودنياهم) اليس هذا القول اسلاميا؟ ثم من من الازد اتبع دين سليمان بن داود؟ وما هذا الربط بين زواج سليمان ببلقيس وبين وفودهم عليه؟. النسب قديم مع بلقيس اذن كان الاولى ان يفدوا على بلقيس وهي في اليمن قبل ان تتزوج سليمان ولم نسمع بذلك ولم تحدثنا الرواة بشيء منه. ولنقف قليلا عند قولهم في القصة قد انفضنا من الزاد مر لنا بزاد يبلغنا الى بلادنا اما كانوا عند سليمان اليسوا وافدين عليه وهو ملك عظيم؟ ثم ايعجزهم ان يجدوا عند هذا الملك شيئا من التمر والبر وهو غالب قوتهم؟ وهل يعقل ان يطلب وفد من ملك زادا ثم يأمر لهم بجواد ليصيدوا عليه ثم يأكلوا مما يصيد؟ وهل يضمن لهم الصيد في كل آن ولنفرض ان المطر تواصل في ايام فهل يعرضهم للجوع المميت ولنقدر ان الجواد مرض او هلك فسيكونون عرضة للهلاك ولا نريد ان نبحث كل مافي هذه الرواية من اختلال ووهن وتخليط وما يعتورها من اختلاق وتزوير ووضع ولكنا نريد ان نسلط الضوء على حقيقة تاريخية فقط لقد ربط ابن الكلبي هذه الاسطورة بواقع اصائل الخيول العربية وكان الاولى به ان يتبع المنطق وان يسير على دلائل تاريخية ثبوتية ليكتشف زيف الاسطورة المختلقة ولو اعتمد الرواية التي اوردها ولم يأبه لها، لكان اقرب إلى الحقيقة وادنى الى الصواب قال: ويزعم ان فياضا من حوشية وبار بن اميم بن لود بن سام بن نوح، فلما هلكت وبار، صارت خيلهم وحشا لا ترام.

فزعم محرز بن جعفر عن ابيه عن جده قال: ليس اعوج بني هلال

من بنات زاد الراكب هو اكبر من ذلك هو من بنات حوشية وبار واعوج هو اشهر فحل عربي والراوي هنا ينكر نسبته الى زاد الراكب، وفيما يورده ابن الكلبي من انساب الفحول الاولى كثير من الاضطراب والتناقض ولا يجوز قبول قصة زاد الراكب باي حال من الاحوال ان الحقائق التاريخية تؤكد استحالتها فعصر سليمان كما هو معروف في القرن العاشر قبل الميلاد ونكاد نؤكد ان تغلب التى استطرقت زاد الراكب لم يولد ابوها بعد في عصر سليمان كيف صارت قبيلة وكذلك بكر وعامر. ومن هنا يتبين لنا ان الناقد البصير لا يمكنه افتراض تلك القصة اذ تنفيها القرائن التاريخية الثابتة.

ولكن مؤرخي خيل العرب ركنوا الى ماذهب اليه ابن الكلبي دونما تبصر او تحقيق ومما يؤكد لنا ما أوردناه، ان كثيرا من الشعراء الجاهليين قد ذكروا الفحول المشهورة الاولى وكرروا ذكرها كاعوج وفياض وذي العقال وغيرهم ولم نطلع على قول لواحد من الشعراء الجاهليين او الاسلاميين ذكر فيه زاد الراكب فهل يتصور اغفال ذلك من العرب وهو اول فرس لهم عرف فيه العتق؟ اما البيتان اللذان اوردهما الغندجاني فلا يخفى على الخبير وضعهما وفيهما تناقض واعتساف واختلال يدل على وضعهما واليكهما :ــ

ولما رأوا ما قد رأته شهوده
تنادوا الا هذا المبر المؤمل
ابوه ابن زاد الركب وهو ابن اخته
معم لعمري في الجياد ومخول

الست ترى انه لا يمكن ان يقول الشطر الاول الا من علم علم الكلام؟ (ولما رأوا ما قد رأته شهوده) هذه قضية كلامية. ولم يبين لنا من اورد هذين البيتين ومن هو الجواد المبر الذي قيل فيه هذا القول وفي البيت الثاني اعضال وتلفيق قوله (وهو ابن اخته) لمن يعود الضمير؟ الزاد الراكب؟ فليس له اخت عند العرب اللهم الا ان كانت عند سليمان وسيحتاج الواضع الى اسطورة اخرى للا تيان بها وان كان الضمير يعود لابيه فاي جواد ذلك المجهول؟ وان كان

الضمير للابن فهو ايضا مجهول. وجهل الواضع ان العرب لا تلتفت في نسب الخيل الى العمومة والمخول وانها تهتم في الصلب. قال طفيل (بنات حصان قد تعولم منجب) وقال عبيدة (اذا انتسبا يضمهما كراع).

ولا شك عندنا في زيف هذين البيتين ووضعهما كما زاف (زاد الراكب) ومن هنا نعلم ان ربط فحول خيل العرب المشهورة بزاد الراكب هو خطل وابتعاد عن الحقيقة. والفحول المشهورة عندهم والتي كرر شعراؤهم ذكرها هي الثابتة بالقرائن المذكورة والشواهد الملموسة كأعوج مذهب وكراع وفياض وغيرهم وان هذه الفحول جميعها لا صلة نسبية تربطها بزاد الراكب المختلق.

ومن الغريب ان يفوت مؤرخينا القدماء تدارك الاختلاف التاريخي الكبير بين عصر سليمان وبين عصر القبائل التي انتجت من زاد الراكب المزعوم.

ومن الاشد غرابة وعجبا ان يغيب هذا البون التاريخي الشاسع بين العصرين على من ارخ للخيل في عصرنا الحاضر وان تمر عليهم هذه الاسطورة المتناقضة وكأنها حقيقة تاريخية.

مكانة الخيل عند العــرب

عـنـي الـعـرب بـالخيل عناية فائقة، واهتموا بها اهتماما بالغا، ولقد أولـوها مـنزلـة عـالية، لا تدانيها منزلة، فقد ساووها بالاولاد والاهل، وآثـروها عليهم وعلى أنفسهم، وللخيل عند العرب مكانة نفسية نادرة، جـديرة بالدراسة والاهتمام، فبالرغم من ان العرب لها منافع كثيرة في الجـمـال وتـقـوم عـلـيـهـا مـعـظـم معيشتهم، وقد وصفوها بتفنن ومقدرة عـظيمة، كما وصفوا الخيل، لكنا نلاحظ أنهم لم يعطوها مكانة نفسية كـمـا أعـطـوا الخـيـل تـلك المكانة من نفوسهم، فالعربي حينما يخاطب الـفـرس، كأنما يخاطب اعز ابنائه، وهو يتألم عندما تمرض فرسه، ويحزن عندما تهلك ويفرح حينما تنتج و انه يقيها في الحروب بجسمه، ويبذل لها في الجـدب قـوت عـيـاله، ويؤثرها في البرد الشديد بلحافه، ويفديها في المعارك بنفسه، قال ثعلبة بن عمرو الشيباني، حليف عبدالقيس:

ان عـــريـــبـــا وإن ســـاءنـــي
احـــب حـــبـــيـــب وادنـــي قـــريـــب
ســـأجـــعـــل نـــفـسي لـــه جـــنـــة
بـــشـــاكـــي الـــســلاح نـــهـــيـــك أريـــب

لـقـد أعـرب ثعلبة في هذين البيتين عما تكنه نفسه من تعلق شديد واهـتـمـام عـظـيم، وحب مفرط لفرسه، فجعله في المنزلة التي لا يصل الـيـهـا أحـد من نـفـسه، مهما بلغ من الحب، ومهما اتصل بالقرب، ففرسه (عريب). احب حبيب وادنى قريب.

ونـلاحـظ ان ثـعـلبة اعطى هذه المكانة لعريب وانْ ساءه في بعض الاحـيـان، وهـذا تـعـلـق عـظـيم وحب شديد، لا تفصمه الاساءة، ولا ينقصه التكدير، ثم يرقى ثعلبة الى درجة التضحية بنفسه في سبيل حماية فرسه، فهو سيجعل من نفسه جنة لوقاية فرسه، وبكل اقدام وشجاعة،

وهذا منتهى الحب ومبلغ التضيحة وغاية الفداء، ولا نريد ان نستمر في شرح هذه العاطفة الجياشة، وهذا الحب المفعم من هذا الانسان الى أخيه الحيوان، وكيف تطور هذا الحب العظيم الى حد التضحية بنفسه وقاية له، وانما يعنينا من هذا الأمر مبلغ منزلة الخيل عند العرب ويكفي ما ألمحنا اليه.

وهذا عبيدة بن ربيعة التميمي يطلب منه أحد ملوك العرب فرسه سكاب، فيقول:

أبيت اللعن ان سكاب علق
نفيس لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمة علينا
يجاع لها العيال ولا تجاع
سليلة سابقين تناجلاها
يضمهما اذا انتسبا كراع
وفيها حيدة من غير نفر
يفضلها اذا حر القراع
فلا تطمع ابيت اللعن فيها
ومنعكها بشيء يستطاع
وكفى تستقل بحمل سيفي
وبي ممن تهضمني امتناع

انه يفضلها على اولاده ويجيعهم ليشبعها، وهذا منتهى الاعزاز، ولنقف عند قوله: «مفداة» فهو يعطينا صورة عن تمسكه بفرسه ولو بلغ به الامر ان يضحي في سبيله بكل شيء، ثم يمضي بعد ذكر نفاستها وكرامتها عليه وايثارها على اهله فيذكر نسبها ويقول: انها سليلة افراس منتخبة يضم نسبها من طرفيه فحل مشهور، ثم يذكر صفة من أهم الصفات التي يهتم بها العرب وهي مرانها في ساحات الحرب، وأنها تعطي لفارسها المجال للضرب والطعن، وتطاوعه على الانعطاف والالتفاف دون نفور او جموح (وفيها حيدة من غير نفر) ثم يقف بكل اباء وعزة رافضا الاغراء مهما بلغ، والتهديد مهما عظم،

مضحيا بنفسه في سبيل الحفاظ عليها، فليس لأحد مطمع في ان ينالها ولو كان ملكا، وانه لن يسلمها ويده تقدر على حمل سيفه ذلك انه لايقبل الضيم، ولديه الشجاعة التي تمنعه من ان يضام.
«وبي ممن تهضمني امتناع»
ويقول خالد بن جعفر الكلابي العامري:

اديروني ادارتكم فاني
وحذفة كالشجا تحت الوريد
مقربة اسويها بجزء
والحفها ردائي في الجليد
واوصي الراعيين ليؤثراها
لها لبن الخلية والصعود
تراها في الغزاة وهن شعث
كقلب العاج في الرسغ الجديد
يبيت رباطها في الليل كفى
على عود الحشيش وغير عود
لعل الله يمكنني عليها
جهارا من زهير أو أسيد

وها نحن أمام صورة أخرى تبين لنا مدى اهتمام العربي بفرسه، واعتزازه بها، وحرصه عليها، فلها عنده المكانة العليا، والمنزلة الرفيعة، التي لا تزحزح عنها، وهي مكرمة يسويها بأعز ابنائه «جزء»، ويؤثرها على نفسه، فيرفع الرداء عنه في الليلة الباردة ليضعه عليها، ويأمر الراعيين ليختصاها باللبن الغزير من الخلية (وهي الناقة يجر ولدها فيجعل تحت اخرى وتخلى للحلب)، والصعود (وهي الناقة تسقط ولدها لغير تمام فتعطف على ولد غيرها فتدر)، ثم يصفها في حالة الحرب والخيل شعث، وكأنها سوار يلمع من الجدة لشدة العناية بها، ثم يقول (يبيت رباطها في الليل كفى) وهذا منتهى الرعاية ومبلغ العناية، فهو يسهر لترتاح فرسه، ومع ذلك فانه يسهر لا ليطعمها ويسقيها فقط او ليتأكد من اطعامها وريها، ولكن لذلك وللمحافظة عليها والاعتزاز

بها، انظر الى قوله: «على عود الحشيش وغير عود».

فهي لا تفارق كفه وان كان مطمئنا لاطعامها وريها، وخالد هذا من بيت من ثلاثة بيوت في العرب، اشتهرت بعزها الباذخ ومكانتها العالية الرفيعة، وهو أحد زعماء هذا البيت المشهور، وهو هنا يعتز بخدمته لفرسه.

ويقول مالك بن نويره اليربوعي:

جزاني دوائي ذو الخمار وصنعتي
بما بات اطواء بني الاصاغر
أعللهم عنه ليغبق دونهم
واعلم غير الظن اني مغاور
رأى انني لا بالقليل اهوره
ولا أنا عنه في المواساة قاصر

لقد اوضح مالك في هذه الابيات تفضيله فرسه وايثاره على ابنائه الصغار الذين يتضورون جوعا، وكيف انه يخادعهم حتى يقدم له غذاءهم ويقول:

اذا ضيع الانذال في المحل خيلهم
فلم يركبوا حتى تهيج المصائف
كفاني دوائي ذو الخمار وصنعتي
على حين لا يقوى علي الخيل عالف
أعلل أهلي عن قليل متاعهم
وأسقيه محض الشول والحي هاتف

ويقول أخوه متمم بن نويره:

ولقد غدوت على القنيص وصاحبي
نهد مراكله مسحٌّ جرشع
داويته كل الدواء وزدته
بذلا كما يعطي الحبيب الموسع
فله ضريب الشول الاسؤره
والجل فهو ملبب لا يخلع

انه يبذل كل الجهد بالعناية بفرسه، ويحرص على القيام بشؤونه والمحافظة على نظافة طعامه «فله ضريب الشول الاسؤره» فهو لا يسقيه السؤر خشية ان يكون فيه اقذاء. ويبلغ اعتزاز العربي بفرسه حدا يجعله يضحي بأهله في سبيل تكرمة فرسه، والمحافظة عليه، فهذا عنترة العبسي يهدد امرأته ويعنفها أشد التعنيف واسوئه، ويصارحها مصارحة جارحة فيقول:

لا تذكري مهري وما أوليته
فيكون جلدك مثل جلد الأجرب
ان الغبوق له وأنت مسوءة
فتأوهي ما شئت ثم تحوبي
كذب العتيق وماء شنٍ باردٍ
ان كنت سائلتي غبوقاً فاذهبي
اني لأخشى أن تقول حليلتي
هذا غبار ساطع فتلبب
ان الرجال لهم اليك وسيلة
ان يأخذوك تكحلي وتخضبي
وأنا امرؤ إن يأخذوني عنوة
اقرن الى سير الركاب واجنب

انه يفصح عما يخامر نفسه دون مواربة أو تلميح، فهو يخشى الأسر حينما تشتد المعارك وتصبح الدائرة على قومه، ذلك انه قد يستهجن فيستعبد فيقرن الى سير الركاب لمهانته عندهم، وهو في أول الأبيات يعلم امرأته ان الاكرام والغبوق لفرسه دونها، وان لم ترض فلها الاهانة والتحقير.

وقال الأعرج الطائي:

أرى أم سهل ما تزال تفجّع
تلوم وما ادرى علام توجّع
تلوم على أن اعطى الورد لقحة
وما تستوي والورد ساعة تفزع

اذا هــي قــامــت حــاســرا مُـشـمـعـلَّـةً
نـخـيـب الـفـؤاد رأسـهـا مـا تـقـنـع
وقــمــت الــيــه بــاللــجــام مــيــســرا
هـنـالـك يجـزيـنـي الـذي كـنـت اصـنـع

انه ينحى منحى عنترة، ولكنه أقل ثورة فيقارن بينها وبين الورد فيفضله.

ويتعرض الفرسان الى لوم شديد من زوجاتهم من أجل بيع افراسهم مما يعانين من شظف العيش وقسوة الصحراء، وقد تغريهم احيانا أثمان الخيل الطائلة ولكن يواجهن بالردود القاسية.

يقول عيينة بن أوس المالكي:

تــقــول انــا الحــرّى لــقــيــت مــشــقــة
مــن الحــش والاخــلاق والــوجــه ســاهــم
فــقــالــت لهــا الأخــرى لــتــســمــع قــولهــا
هــو الــيــوم ان بــاع الــنــعــامــة نــاعــم
ومــا الــنــاعــم المــغــبــوط الا الــذي لــه
غــنــىً وهــو مــكــفــيُّ المــؤونــة نــاعــم
وقــالــت ســيــعــطــى بــالــفــلــوة أربــعــا
وبــالمــهــرة الأخــرى ثــمــان جــوازم
ولــســت بــشــاريــهــن مــالــم تُــطــلــقــي
ولــو لمــتــنــي او لامــنــي لــك لائــم

وهنا يحسم الموضوع امام هذه الاغراءات ويخبر زوجه في حالة اصرارها على بيع افراسه، بأن سيكون نصيبها الطلاق.

وهذا مقعد بن شماس السعدي يخاطب امرأته فيقول:

اتــامــرنــي بــكــنــزة ام قــشــع
لا شــريــهــا فــقــلــت لهــا دعــيــنــي
فــلــو في غير كــنــزة آمــرتــنــي
ولــكــنــي بــكــنــزة كــالــضــنــين
فــلا وأبــيــك لا أحــبــو خــلــيــلا

بكنزة ما حييت فلا تهوني
رأت جاراتها خدرن ريطا
واكثر فوقهن من الغُهون

ونحن هنا أمام رجل يعز امرأته كل الاعزاز، ويكرمها اشد الاكرام (فلو في غير كنزة آمرتني) فهو على استعداد بأن يجيب جميع طلباتها، ولكنه لا يريدها ان تتعرض (لكنزة) فتنحط منزلتها عنده (فلا تهوني).

ومما يثير العجب أن نرى بعض الفرسان ينال ممن تربطه بهم أواصر القربى والرحم، حينما عرضوا افراسهم للاهمال، فعنترة العبسي يعرّض بامه ويهين اخوته لأنهم اساءوا رعاية فرسهم فيقول:

ابني زبيبة ما لمهركم
متخدد وبطونكم عجر
الكم بآلاء الوشيج اذا
مر الشياه بوقعةٍ خبر
اذ لا تزال لكم مغرغرة
تغلي وأعلى لونها صفر
لما غدوا وغدت قعيدتهم
ملأى وبطن جوادهم صِفر

ولعلنا نجد لعنترة عذرا في هذه الزلة مع أنه عرف بكثير من الصفات الكريمة وأظن أن عنترة قال هذا الشعر بعد أن سلبت أباعر أخوته وأخذ ماله، وهرب من وجه عويمر بن أبي عدي بن ربيعة بن عامر بن عقيل. وقال عويمر في ذلك:

تركت بني زبيبة غير فخر
يجوبون المياه بلا بعير
أجير الناس قد علمت معد
ومالي غير سيفي من مجير

وربما علل عنترة هروبه من ذلك الفارس لضعف فرس اخوته وجعلها

سببا للثورة عليهم ، ولا يخفى ما في أبيات عنترة من مرارة .

أما الأسعر بن مالك بن أبي حمراء الجعفي فهو يثور على أخوته ويعرض بأمهم ويلومهم لوما شديدا فيقول :

باعوا جوادهم لتسمن أمهم
ولكي يعود على فراشهم فتى

لكن قعيدة بيتنا مجفوة
باد جنائن صدرها ولها غنى

تقفا بعيشة أهلها وثابة
اوجرشع عبل المحارم والشوى

ولقد علمت على تجنبي الردى
ان الحصون الخيل لا مدر القُرا

يخرجن من خلل الغبار عوابسا
كأصابع المقرور أقعى فاصطلى

اني وجدت الخيل عزا ظاهرا
تنجي من الغمى ويكشفن الدجى

ويبتن بالثغر المخوف طلائعا
ويثبن للصعلوك جمة ذي الغنى

ها نحن أمام ثورة من فارس يهم بأمر عظيم فهو يريد أن يأخذ بثأر أبيه ويرى اخوته يهملون فرسهم ويشبعون أمهم فيتملكه الغضب ويصب لومه وتعنيفه عليهم ساخرا منهم مستهزئاً بهم معرضا بأمهم ثم يبين ما يولي فرسه من ايثار وعناية وأنها في بيته مقدمة على كل عزيز ويطلعنا بعد هذه الثورة على نظرة العربي المناضل للخيل فهو يعتبرها الحصون المانعة لاجدر الحجارة ويسجل لقطة فنية رائعة لانبعاث الخيل في غاراتها معطيا لوحة مبدعة في بيته الفريد : يخرجن من خلل الغبار عوابسا ... الخ .

وقد جاءت لوحته المشرقة بين ثورته على اخوته ومنزلة الخيل لديه وهذا يدل على اصالة الشاعر الفنية ويبين بعد ذلك ما تجلبه الخيل من عز

قاهر ومجد ظاهر وانهن في اللزبات يكشفن الظلمات ويزلن المخاوف ويحمين الثغرات وينجين من المهالك ويقفن طلائع أمام كل ما يخشى منه ويعدن على الفقير بالغنى والغنائم .

ويتمسك العربي بفرسه وان قست الظروف وضاقت الأحوال ولو أغرى بالثمن وتعرض للوم . فهذا حاجب بن حبيب الأسدي يخاطب امرأته بعد ان امطرته لوما وتأنيباً فيقول :

باتت تلوم على ثادق
سواء علي واعلانها
وقالت اغثنا به انني
ارى الخيل قد ثاب اثمانها
فقلت ألم تعلمي أنه
كريم المكبة ميدانها
كميت أمرّ على زفرة
طويل القوائم عريانها
تراه على الخيل ذا جرأة
اذا ما تقطع اقرانها
وهن يردن ورود القطا
عُمان وقد سد مرّانها
طويل العنان قليل العثار
خاظي الطريقة ريانها
وقلت ألم تعلمي أنه
جميل الطُلالة حَسّانها
يجم على الساق بعد المتان
جموما ويبلغ امكانها

نرى الشاعر هنا يفاجىء امرأته بالرد القاطع ، فهو لا يعبأ بسرها واعلانها في اللوم ، انه لا يلين أمام جميع الاغراءات، وينقلنا الشاعر بلقطة واحدة يحكيها عن امرأته الى الحالة التي وصلت اليها معيشته

فيقول على لسانها: «اغثنا به» ونحن نعلم أن الاغاثة لا تكون الا في أشد الأوقات حرجا وضيقا، وبمثل هذا البيان الموجز استطاع الشاعر الجاهلي أن يبلغ قمة متناهية في القول والتصوير. وبعد أن استمع الى قول امرأته اعلمها عن موقف جواده في الحرب، وكرم أصالته وشدة نجدته. ونلاحظ أن الشاعر استعمل التقرير الاعلامي المؤكد في الأبيات مرتين، وذلك لعظيم اهتمامه بتلك الصفتين، وهو يستغرب من امرأته مع علمها بصفات جواده الكريم أن تدعوه لبيعه وتحثه على ذلك، ثم يستطرد في ذكر محاسن جواده الأصيل ويعدد مزاياه في أبيات أربعة قد نعود اليها عند ذكر أوصاف الخيل، ثم يعود الى ما ذكرناه آنفا فيعيد استفهامه في البيت «ألم تعلمي أنه جميل الطلالة حسانها؟».

وهنا يقف عند صفة تهم الفنان خاصة وهي الجمال، إن شاعرنا الأصيل أولى هذه الصفة مكانة عظيمة، ولا غرابة فحب الجمال طبع في الفنان المبدع. ولقد عبر عن جمال جواده بأسلوب رائق رائع «فجواده كالغادة الحسناء»، تبهرك عند طلوعها، وتملك عليك مشاعرك ان نظرت اليها، ان جواده ضُرب عليه الجمال والحسن، فهو جميل الطلعة بهي المنظر فائق الصفات.

ومن مبلغ عناية العرب بالخيل ان اختصوها بالرعاية الطبية بمفهومها الحاضر، وجعلوا لها نظاما متكاملا للغذاء والرياضة والحمية وسموه الدواء، ولعل تسمية الدواء جاءت من هنا. قال ثعلبة الشيباني:

أهلك مهر أبيكِ الدواء ... ماله من طعام نصيب

خلا انهم كلما اوردوا ... يضيّع قعبا عليه ذنوب

فيصبح حاجلةُ عينُه ... لحنو استه وصلاه غيوب

فاعددت عجلى لحسن الدوا ... ء لم يتلمس حشاها طبيب

لقد أبرز ثعلبة مبلغ اهتمام العربي بفرسه، ومدى خبرته ومعرفته بالقواعد الطبية، فهو يحمي فرسه «عجلى» لكن في حدود ما يقيم أودها للتضمير والرياضة، ويدلل على ذلك بقوله: «فاعددت عجلى لحسن الدواء... الخ» ففرسه وان كانت بادية الهزال فهو هزال متقصد لحاجته اليه لتمرينها وتضميرها، فهي بكامل قواها وبأتم حيويتها الموصولة بالرعاية والاهتمام، ويؤكد على صحة قوله بأن عجلى لم يتلمسها طبيب، وقوله: «يتلمسها» يظهر لنا أنه ينفي، ليس الداء الظاهر عن فرسه فقط، بل الداء الدفين، فالطبيب حينما يتلمس انما يبحث عن داء خفي، وبيان الشاعر في هذه الكلمة اغنانا عن كثير من القول، ولا شك أن هذه الرعاية الطبية المحكمة مما سبق العرب اليه.

ومن عظيم اهتمام العرب بخيلهم وحرصهم على المحافظة على نجابتها وأصالتها، ان عنوا بانساب خيلهم عناية لا نظير لها، فهم ينتخبون كل فحل نجيب وكل حجرة عتيقة، وعندما يعتزون بذكر خيلهم ينسبونها الى أصولها الرفيعة النادرة ــ قال طفيل الغنوي المسمى بطفيل الخيل:

بنات الوجيه والغراب ولاحق
وأعوج تنمي نسبة المنتسب

«الوجيه والغراب ولاحق وأعوج من أشهر ما عرف من فحول خيل العرب»

وقال أيضا:

ورادا وحوّا مشرفا حجباتها
بنات حصان قد تعولم مُنجب

وقال عقبة الثعلبي:

والرياحيُّ وابن وقعة والضيف
بقايا نزائع ونجاب
أفْحَلُ الخيل كلهن جواد
من جياد عتيقة الأنساب

وقال أيضا :

أخَـــذَت مـــن مـــهـــلـــب وصـــريـــح
فـــخلى عـــتـــقـــهـــا ومـــن حَـــلاب

وكل هذه فحول معروفة.

وقال النابغة الجعدي:

وعـــنـــاجـــيـــج جـــيـــاد صـــنـَّـــع
نـــســـل فـــيـــاض ومـــن آل سَـــبْـــل

وقال النابغة الذبياني:

فـــيـــهـــم بـــنـــات الـــعـــســـجـــدي ولاحـــق
ورقـــاً مـــراكـــلـــهـــا مـــن الـــمـــضـــمـــار

وقال علقمة بن عبدة التميمي:

وقـــد أقـــود أمـــام الحـــي ســـلـــهَـــبَـــةً
يـــهـــدي بـــهـــا نـــســـبٌ في الحـــي مـــعـــلـــوم

وقال يزيد بن عمر الحنفي:

وقـــد أروح أمـــام الحـــي يحـــمـــلـــنـــي
ضـــافي الـــســـبـــيـــب أســـيـــل الخـــد مـــنـــســـوب

وقال ابو دواد :

وقـــد اغـــتـــدي في بـــيـــاض الـــصـــبـــاح
وأعـــجـــاز لـــيـــل مـــولي الـــذنـــب
بـــطـــرف يـــنـــازعـــنـــي مـــرســـنـــا
ســـلـــوف الـــمـــغـــارة محـــض الـــنـــســـب

وقال أيضا :

أرعـــى أجمـــتـــه وحـــدي ويـــؤنـــســـنـــي
نـــهـــد الـــمـــراكـــل صـــلـــت الخـــد مـــنـــســـوب
مـــاء جـــواد عـــتـــيـــق غير مـــئـــتـــشـــب
تـــضـــمـــنـــتـــه لـــه جـــرداء ســـرحـــوب

ان جواده منسوب وان صفاء نسبه تضمنته فحول عتيقة لا يشوبها

هجنة، وتضمنته أمهات محفوظة النسب جميلة الصفات.

قال أبو عبيدة في كتابه عن الخيل:

«وان أفضل الخيل العريق المعروف الآباء والأمهات، السليم من الهجنة، فاذا كان الفرس مجهولا لا يجري بلا عرق يعرف ولا نسب في الخيل قيل له خارجي اذا كان جوادا».

قال طفيل العنوي:

وعارضتها رهوا على متتابع
شديد القصيرى خارجي مجنب

ولا شك أن أبا عبيدة رحمه الله، واهم في تفسيره للفظة «الخارجي» وللفظة معنيان: أحدهما ما فاق نظراءه، والآخر ما قاله أبو عبيدة، ولا مجال لتأويل أبي عبيدة في هذا الموضع، اذ أن الشاعر في قصيدته يذكر أصالة فرسه ونسبه العريق. فلا يجوز المعنى الذي ذهب اليه أبو عبيدة، ولقد وقع في هذا الخطأ كثير من علمائنا الشراح، منهم التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي بن الخطيب، عند شرحه للبيت، والقاسم بن محمد الانباري في شرحه للمفضليات في تفسيره «للخارجي» في بيت الحصين بن الحُمام:

لَدُنْ غَدوة حتى أتى الليل ما ترى
من الخيل الا خارجيا مسوّما

اذ قال الخارجي من الخيل «الجواد في غير نسب تقدم كأنه نبغ بالجودة، وكذلك الخارجي من كل شيء»، وليت الأنباري انتبه الى خطئه، فلم يحصر تفسيره في المعنى السابق، وجعل مكانه توضيحه الأخير، وهذا ما يقتضيه المعنى الذي قصد اليه الشاعر، وحجتنا على هؤلاء العلماء الأفاضل أن الحصين ذكر أنه لم يصمد من الخيل الا كل خارجي مجنب معلم، ومن مفهوم البيت أن الخيل المعنية ليست بقليلة العدد، ولا يمكن أن ننظر الى المعنى الذي ذكره العلماء في مجال اعتزاز الشاعر بالخيل الصامدة المعلمة المعروفة، وهي لا تكون عند العربي الا عريقة النسب، كريمة الآباء والأمهات. والا لم تعلّم،

وارى ان الانباري والتبريزي وكثيرا من الشراح قلدوا أبا عبيدة في هذا الشرح لكلمة «الخارجي» ، فوقعوا في نفس الخطأ ، ولا يتبادر الى الذهن أننا نريد أن ننقص من قدر أبي عبيدة ، ولا من كتابه الجليل عن الخيل ولا من هؤلاء الشراح ، وانما همنا أن نتتبع الحقيقة ونصل الى الصواب .

ارتبط تاريخ العرب الجاهليين منذ نشأتهم الأولى بالخيل وكل ذكر لمبدأ حياة الجاهليين ، نرى ذكر الخيل فيه ، وذلك لعدة أسباب ، منها استقرارهم في صحارى نائية ، يحتاج فيها المرء في كثير من الأحيان الى السرعة الخارقة لادراك ما ند من نعمه التي فيها قوامه ولتلاحق ما اخذ منه سرقة قبل فوته ، ومنها الانتفاع بها لصيد الوحش والاستفادة منه ، والتمتع بطرده وصيده ، ومن أهم الأسباب التي ربطت بين العربي والخيل المنعة والقوة ، والعربي لا حصون تحميه وتحمي أمواله ، ولا يستقر في مكان ، فكانت الخيل حصنه المنيع ، ودرعه الحصين ، وقوته الضاربة ، فهي غياثه في الأزمات ونجدته في المهمات .

ومما زاد العربي حبا للخيل وتعلقا بها حياته التنقلية ، فهو يعيش في صحراء مترامية الأطراف ، مجدبة المرعى ، يحتاج فيها الى قطع مسافات بعيدة ليستقر في مكان فيه المرعى ، واحيانا تضطره الظروف لبعث نعمه الى أماكن بعيدة عن مستقره تهيئة لمرعى جديد ، او رغبة في مورد ماء لنعمه في صيف قائظ .

وقد تهتبل زعماء بعض القبائل وكثير من صعاليك العرب وسراقها فرصة ابتعاد النعم عن أصحابها ، فيغيرون عليها ويسرعون في الرجوع كي لا يتمكن اصحاب النعم من ادراكها وارجاعها ، وبالخيل يستطيع العربي أن يلبي الصريخ ويدرك القوم قبل نجائهم ، وهنا يشتد القتال وتلتحم الفرسان فتكون الغلبة لمن يكون أكثر صبرا وأشد مراسا لأهوال الحرب ولولا الخيل لما استطاع العربي ان يتدارك نعمه ويسترجعها ، ولقد كان مبدأ الطمع في أموال الناس والسطو بالقوة ، مبدأ معترفا به ، وزاده ثبوتا وترسيخا . ان العرب وأعني العدنانية ومن تطبع بطباعهم من اخوانهم القحطانية ، كانوا لا تضبطهم دولة ولا يجمعهم

مبدأ، ويأنفون من أن يُحكموا سواء كان الحاكم عربياً أو أجنبياً، ولا يقبلون الخضوع لاحد، ولقد بلغت الفوضى حدا جعل المجتمع الجاهلي في قتال مستمر، وتنازع دائم بين أقرب العشائر رحما وادناها صلة، مما حدا بأكابر عقلائهم ان يتنادوا لتدارؤ هذا التناحر الذي يكاد ان يقضي على القبائل العربية، ولمنع الفوضى السائدة، عقدوا العزم على أن يعيّنوا عليهم ملوكا، فذهبوا الى آكل المرار، وطلبوا منه ان يجعل اولاده ملوكا عليهم، وعين أربعة ملوك للقبائل، ولكن العرب لم يلبثوا أن أزالوا اولئك الملوك الذين رأسوهم بقتال بعضهم وبالتناحر فيما بينهم وبالفتك ببعضهم ولم يعد أحد يتربع على مملكة في الجزيرة العربية الا من لاذ من ملوكهم باحدى الدولتين العظميين، وكان ذنبا لها تجعله درعا لاعتداءات قومه وسدا منيعا لطيشهم وعنتهم، ومع ما تقدمه الدولتان لملوك الشام وملوك الحيرة وما تسندهم به من قوة، فان هؤلاء الملوك لا يستطيعون النفوذ الى الجزيرة العربية والسيطرة على قبائلها. وكانت هذه القبائل تقترب من حدود الدولتين العظميين وتعيث بها فسادا، وتقتل وتنهب وتعود دون ان يردعها رادع، او تسيطر عليها قوة، وكانت الخيل عدتها في غاراتها تلك.

وتتملكنا الغرابة والدهشة والعجب، حينما نرى أحد زعماء بعض القبائل وهو هشام الكناني يهين النعمان عند زيارته لمكة حاجا، اهانة بالغة قذرة، لا لشيء الا لأنه سمع بعض الناس يدعونه بملك العرب، واحتمل النعمان تلك الحقارة بذل وترك دين العرب وتنصر(١).

وحتى من استطاع من رؤساء القبائل ان يصل الى درجة الملك في سيطرته وقوته ككليب وائل، وزهير بن جذيمة العبسي فانهما لم يلبثا ان قتلا لا تفه الأسباب، وان كانت هناك اسباب عديدة منها تجبرهما وظلمهما ولكنها لم تكن الأسباب المباشرة. وظلت نزائع العرق العربي تسيطر على المجتمع الجاهلي، وهو لا يخضع لنظام ولا ينضبط لضغط مع ما في نفسه من نزوع للحرية وشموخ واستعلاء، وظل مجتمعه مستباحا فوضويا لا مكان فيه لغير القوي.

قال قريط بن أنيف:

(١) المعارف لابن قتيبة ١

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي
بنو اللقيطه من ذهل بن شيبانا

اذن لقام بنصري معشر خشن
عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا

لا يسألون اخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا اليه زرافات ووحدانا

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد
ليسوا من الشر في شيء وان هانا

يجزون عن ظلم اهل الظلم مغفرة
وعن اساءة أهل السوء احسانا

هنا نرى الشاعر يتكلم بمرارة والم ويتساءل عن عشيرته الأدنين. لماذا لم يرغبوا بالشر وابله تستباح وماله ينهب، ويعيب وقوفهم متريثين غير مسرعين الى الشر ويسخر من ضعفهم في هذا المجتمع العنيف الذي لا يرى لغير القوة منطقا.

وقال حَزن بن كهف بن أبي حارثة المازني، وهو أحد سادات بني مازن، وقد أغار بنو مُحلّم بن ذهل بن شيبان على ابل جار له، فذهبوا بها فأتبعهم وقتل منهم وارتجع الابل. وأظن ان شاعرنا السابق عني هذه الواقعة.

أمن مال جاري رحت تلتمس الغنى
وتدفع عنك الفقر يابن مُحلّم

لقد ما اتيت الامر من غير وجهه
واخطأت جهلا وجهة المتغنم

فما نحن بالقوم المباح حماهم
وما الجار فينا ان علمت بمسلّم

وانا متى نُنْدب الى الموت نأته
نخوض اليه لُج بحر من الدم

ونظرة الى هذه الأبيات تطلعنا على أحوال المجتمع الجاهلي الغاشم، فهؤلاء بنو مُحلّم وهم من سادة شيبان، يغتنمون غياب حزن، عن حيه فيغيرون على جاره الآمن ويسلبون جماله ويسرعون بالذهاب بها، ولكن الزعيم المازني ما ان علم حتى هب مسرعا متفانيا في مطاردة الموت لاسترجاع ابل جاره فيقاتل بني محلم ويقتل منهم ويسترجع ما أخذ من جاره، ويعود قرير العين مطمئن النفس.

ان أمامنا مثلا من أروع الأمثلة العظيمة. لقد هب حزن بكل همة واسراع دون أن يكمل أهبته ويجمع قومه مضحيا بنفسه وبمن هم أقرب الناس اليه، يركض الى الموت ركضا فيه غطرفة ولا يقول كما يقول الشاعر:

«نمشي الى الموت مشيا فيه غطرفة»

كل هذه التضحيات العظيمة في سبيل ارجاع ابل جاره، ومع قوم استعدوا بكامل الاستعداد للحرب، وهم من أشد قبائل العرب قوة وشجاعة وبأسا، ان سيره الحثيث دون أن يأخذ الاهبة ويستجمع القوم لهو مخاطرة جسيمة وتضحية عظيمة، ولكنه من قوم لا يستباح حماهم ولا يضار جارهم، فهم حين يندبون للموت يسيرون في بحور من الدم يتلقونه بوجوه مشرقة، وهكذا فعل حزن في سبيل المحافظة على جمال جاره، وانها لفضيلة انسانية نادرة لا توجد في غير هذا المجتمع. ويعود حزن بعد ذلك رافع الرأس مشمخرا ساخرا من آل محلم مهينا لهم. وحُقَّ لاخينا المازني ان يتعالى ويفخر، وحق للشاعر ان يجعله مثلا أو من هو مِثلُه، فهذه النجدة والشهامة والمحافظة على الجوار الى هذا الحد، لمما يندر وجوده بين أي جماعة من البشر، وبمثل هذه الصفة الانسانية النادرة، استطاع العربي فيما بعد ان يصبح سيد العالم بعد ان حمل الرسالة.

ونحن نتساءل، هل كان حزن يستطيع ان يؤدي هذا الواجب العظيم بهذه السرعة المذهلة لو لم تكن الخيل لديه؟

وتختلط في المجتمع الجاهلي امثال هذه الصفات الجليلة بصفات سيئة شريرة، فانك مهما تجد عند العرب من الصفات الانسانية

الكريمة، فانك واجد ما يماثلها من الصفات السيئة التي توجد في كثير من المجتمعات الانسانية، ولكنها عند العربي الجاهلي تظهر بصورة اجلى وامضى.

ها هو الاحمر بن مازن بن اوس من هوازن يقطع رجل المخندف الكناني لا لسبب وانما لفخره وبطره، يقول:

اني وسيفي حليفا كل داهية
من الدواهي التي بالعمد اجنيها

انه يتعمد الاجرام ولا يبالي.

اني نقمت عليه الفخر حين دعا
جهرا وابرز عن رجل يعريها
ضربتها أنفا اذ مدها بطرا
وقلت دونكها خذها بما فيها
لما رأى رجله بانت بركبتها
أو ما الى رجله الاخرى يفدّيها

انه قطعها أنفا اذ بطر صاحبها واى بطر اعظم من قطعها، انه كان يكفيه ان يضربه بعصا ليردعه عن بطره، ولكن الاحمر ابوالدواهي كما يقول عن نفسه.

والعربي يرى الاشتراكية القسرية مبدأ ومنهاجا، يقول الاحيمر السعدي:

واني لاستحي من الله ان أرى
اجرر حبلا ليس فيه بعير
وأن اسأل الجبس اللئيم بعيره
وبعران ربي في البلاد كثير

إنه تفسير فلسفي رائع يبرر السرقة والنهب، وهذا القول قيل في الاسلام ولكنه امتداد لأخلاق الجاهلية.

والعربي لا ينسجم مع نظام الا بضبط قاهر، فهذا عيينة بن حصن يدخل على النبي صلى الله عليه وسلم دون استئذان، وعائشة رضي الله عنها جالسة عنده، فيقول النبي لعيينة: اتدخل عليّ في

بيتي بغير استئذان؟ فيقول عيينة: والله يا محمد ما استأذنت على احد من مضر.

ثم يقول: من هذه الحميراء؟ اما تتنازل لي عنها واتنازل لك عن خمس من زوجاتي؟ فيأمر النبي صلوات الله وسلامه عليه عائشة ان تستتر وتنزوي ثم يقبل على ضيفه بكل رحابة، وعند خروج عيينة من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت عائشة: من هذا يارسول الله الذي دخل عليك في بيتك من غير استئذان؟ قال: أنه الاحمق المطاع.

وهذا وفد بني تميم يأتي للنبي صلى الله عليه وسلم، فيدعوه للمفاخرة فلا يغضب، ويأمر بمناداة حسان بن ثابت وثابت بن شماس، فيقول شاعر بني تميم ويقول خطيبهم ثم ينشد حسان ويتكلم خطيب رسول الله فيقتنع القوم.

ونلاحظ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف نفسية قومه، فلم ينكر مناداتهم للمفاخرة ولم يستغرب ذلك، ثم انه لم يأمر مهاجريا ولا قرشيا بالرد عليهم لانهم اقرب لبني تميم صلة ونسبا، وانما دعا انصار الدعوة البعيدين وفهم حسان وثابت مقصد الرسول صلى الله عليه وسلم وانها مبادىء وقيم وشريعة.

وبالرغم من اننا نجد من بين الوفود التي جاءت الرسول صلى الله عليه وسلم من تتمثل فيهم العقلية المتكاملة، والحلم الواسع الذي لا نظير له، والسيادة الحقة كقيس بن عاصم رضي الله عنه، وقد اعجب به النبي صلى الله عليه وسلم واكرمه اجل اكرام، وبسط له رداءه وقال له: اجلس انت سيد اهل الوبر.

وكذلك اعجب النبي صلى الله عليه وسلم باشج عبدالقيس وقال له: ان فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله، الأناة والحلم. كما ابدى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعجابه بزيد الخيل الطائي، وسماه زيد الخير، وقال له: كل من وصف في الجاهلية لي رأيته دون ذلك غيرك.

ورغم ان الوفود هم علية القوم في العصر الجاهلي ويمثلون الطبقة

المسيطرة، فاننا اذا استثنينا هؤلاء النفر وافرادا مثلهم من هذه الوفود نجد ان معظمهم يمثل ضحالة في التفكير ومستوى عقليا متدنيا، فبعض يطالب بمدة مؤجلة لعبادة بعض الأصنام، واخرون يطالبون باباحة الخمر وهلم جرا. بل والأنكى من
ذلك أن نرى بعض وفود زعماء القبائل الكبيرة يتخذ وفوده سبيلا للمناورة والخداع والغدر، فهذا وفد بني عامر برئاسة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة ينوي الغدر برسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويتفق الزعيمان على الغدر به، ولكن ما ان رأياه صلى الله عليه وسلم، حتى سقط في ايديهما، وهابا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهالهم ما رأوا من اصحابه من شدة وفداء، وعلما انهما لن يفلتا من قبضتهم.

وحينما تيقن عامر بفشل محاولته، وان مصيره، ان عزم على الغدر، سيكون الخيبة والهلاك، راح يداهن ويراوغ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتجعل الامر لي بعدك ان اسلمت؟ قال الرسول: لا، ولكن لك أعنة الخيل ياعامر، قال عامر: اتعطيني شيئا هو لي؟ وكان عامر أحد ثلاثة هم أفرس العرب، ثم قال سأملأها عليك خيلا ورجالا، قال النبي، صلى الله عليه وسلم، اللهم اكفني عامرا وأربد فخرج مغاضبا، وأصابته غدة في الطريق، ومات في بيت سلولية، وقال: اغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، وأصابت أربد صاعقة فأهلكته.

ومن وفود العرب من استعمل الخديعة والغش وسيلة لمآربه، فهذا وفد بني حنيفة يذهب لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويختبيء مسيلمة الكذاب في الرحال، ويمتنع عن مواجهة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلما حضر الوفد عند رسول الله، سألهم عن المتخلف، فقالوا انه مسيلمة، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اما انه ليس بشركم»، واهتبلها الخبيث فرصة لمآربه وغدره، وكان متهيبا ان يواجه الرسول فيكشف ما في نفسه من غدر وخيانة، وقال لهم في رجوعه الم يقل لكم اني لست بشركم، انه قد علم اني قد أشركت لامر معه وتنبأ بعدها.

ولا تزال تلك النزائع العرقية ترافق الجنس العربي، فهو ينزع الى

حرية الفوضى الى وقتنا الحاضر، فالعربي المعاصر رغم مرور ستة آلاف سنة على تمدنه وتحضره لا ينضبط تحت اي نظام مالم يكن هناك الزام، وكمثال بسيط نقول ان اي صف لجمهور مراجع لا ينتظم واذا قدر لهذا الصف الانتظام فلا بد ان يخرج منه واحد ثم يتبعه الآخر. وهكذا النظام، والذي نلاحظه ان الذي يخرج على النظام لا يأسف على ما فعل، بل يرى فعله لائقا ويبرره بما شاء، وكذلك نراه واضحا في الوسيلة (الواسطة) فمن يتوصل الى شأنه عن هذا الطريق يفخر بذلك، وكذلك من يوصله وفي هذا اساءة الى نظامه والى مجتمعه.

ولم نتطرق لذكر هذه الامور وايراد بعض القصص الا لتبين النزائع التي جعلت المجتمع الجاهلي في نزاع مستمر وحرب مستديمة، والتي أعطت الخيل منزلتها التي لا تدانيها منزلة لدى العربي، وما دمنا قد ذكرنا صفة من أبرز صفات العربي وهي سبب مباشر في اهتمام العربي بالخيل فاننا لا بد ان نذكر بعضا من صفات العربي البارزة، بقدر ما نلمح الخصائص المميزة لهذا الجنس، وان كانت ليست لها صلة مباشرة بالخيل.

جـود العـرب

العربي كريم بطبعه، فهو يبذل ماله لضيفه، وان لم يكن لديه مال استدان ليقرى ضيفه، وهو لا يعرفه ولا يرجو منه ثوابا، وقد لا يجد احدهم الا منيحته او ناقته وليس لديه سواها وعليها قوامه، فيأتيه ضيف فيذبح منيحته او ناقته بكل سرور تاركا أهله دونما شيء يقيم أودهم، وحتى من اتهم منهم بالبخل نراهم يقدمون للضيف ما عندهم مع تلهفهم عليه وحرصهم على عدم نفاذه.

قال حميد الارقط:

ومرملين على الاقتاب بزهم
حقائب وعباء فيه تقنين
مقدمين انوفا في عصائبهم
حجنا الا جدعت تلك العرانين
اعطوا التنقب في نفر اذا اندفعوا
وكل خير عليهم بعد مخزون
لا مرحبا بوجوه القوم اذ رحلوا
كأنهم اذا اناخوا بي الشياطين
يسطرون لنا الاخبار اذ نزلوا
وكل ما سطروا للقم تمكين
ولو تحررت حيث العصم عاقلة
او حيث تلحس عن اولادها العين
ظننت لا تنتهي عنا ضيافتهم
حتى تكون ومبدانا البساتين
ارض تحم بها العقبان نابتة
من حيث ينبت في الصيف العراجين

باتوا وجلتنا الشهريز بينهم
كأن اظفارهم فيها سكاكين
فأصبحوا والنوى عالي مُعرسهُم
وليس كل النوى يُلقي المساكين

ولقد استقبل حميد ضيوفه كما يستقبلهم كل عربي، رغم بخله وحرصه على قوته وقوت عياله، وقدم لهم ما عنده من تمر وهو يظن انهم سيأكلون بعضه، ولكنهم التهموه، وكوموا له نوى كثيرا، مع انهم من شدة نهمهم لا يلفظون كل النوى، بل يزدردون بعضه مع نواه، ومع مراقبته الشديدة لهم وملاحظته الدقيقة وحرصه البالغ على طعام اهله الوحيد، تركهم ينفضون جلته وهو يعاني حسرته ولم ينبس ببنت شفه، بل رحب بهم ظاهرا، ولم يبد شيئا من امتعاضه الا بعد رحيلهم اذ قال:

«لا مرحبا بوجوه القوم اذ رحلوا»

وهكذا نتعرف على التزام العربي بقيمه مهما شذ طبعه وضاقت احواله.

وهذا الشاعر المبدع الحطيئة الذي اتهم باللؤم واشتهر بكره الضيفان، والذي قيل عنه انه لا يرد السلام عليهم، ويهدد بعضهم بالعصا، قد سجل لنا لوحة عالمية رائعة ابدع فيها ايما ابداع، وابرز من روائع فنه وعظيم مقدرته ودقة تصويره ما يعجز عنه فحول شعراء الانسانية، قال:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
أخي جفوة فيه عن الانس وحشة
يرى البؤس فيها من ضراوته نعما
تخيل في شعب عجوزا ازاءها
ثلاثة اشخاص تخالهم بهما
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة
وما عرفوا للبر مذ خلقوا طعما

رأى شبحا وسط الظلام فهاله
فلما رأى ضيفا تصور واهتما
وقال ابنه لما رآه بحيرة
أيا أبت اذبحني وقدم له طعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا
يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
تروى قليلا ثم احجم برهة
وان هو لم يذبح فتاه فقدهما
فقال هيا رباه ضيف ولا قرى
بحقك لا تحرمه تالليلة اللحما
فبينا هما عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
الا انه منها الى دمها اظمى
فأمهلها حتى تروت عطاشها
وارسل فيها من كنانته سهما
فخرت نحوص ذات جحش فتية
قد اكتنزت لحما وقد طُبّقت شحما
فيابشره إذ جرها نحو أهله
ويابشرهم لما رأوا كلمها يدمى
وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم
وقد غنموا غنما ولم يغرموا غرما
وبات أبوهم من بشاشته أبا
لضيفهم والأم من بشرها أما

ان هذه الابيات قطعة فنية من روائع الادب العالمي، لا نظير لها، وقد حفظ لنا شاعرنا المتمكن صورة واقعية تمثل لنا كرم العربي الاصيل وتحلل نفسيته كما تطلعنا على تربيته وثقافته ولسنا بصدد ما في

هذه الابيات من ابداع فني واشراق بياني وتصوير دقيق معجز فذلك يحتاج الى رسالة خاصة ولكنا نلتقط من هذه الابيات ما يكشف لنا شخصية العربي.

واول ما نلحظ في هذه الابيات صورة ذلك العربي الجائع الهائم في هذه الصحراء الشاسعة النائية وهو يرى ما فيها من بؤس وشظف نعمى لضراوته ومراسه لهذا البؤس والفه له، وقد تخيل على بعد ثلاثة اشخاص ففرح كل الفرح بوجود الطعام الذي لم يطعمه منذ ثلاث. وسار مسرعا نحو اولئك الاشخاص ثم يراه الشيخ فتثور هواجسه وتضيق الدنيا في عينيه وهو أشد جوعا من ضيفه واتعس معيشة منه ولا يجد في بيته ولا فيما يملك ما يسد به رمق ضيفه وتسود الحياة أمامه وتهتز اعصابه ويحار في أمره ويدرك أبنه ما يعاني أبوه من شدة وحرج ويرى ما يصاحبه من ألم وحيرة، وما يتملكه من دهش واضطراب، فتثور في الابن عاطفة البنوة الرحيمة بما ربى عليه من شهامة ونجدة وكرم فيقدم حياته فداء لتلك المكرمة ويضحي بنفسه في سبيل شرف ابيه وقومه كي لا يوصموا باللؤم وهم منه براء.

ومن هنا نستطيع ان نتعرف على نفسية العربي الاصيلة وندرك تأصل المعاني الانسانية وتمكن السجايا الحميدة منه.

وتبرز التضحية الفذة في قصة كعب بن مامة الايادي، وقد بلغ به وبرفقته الجهد والعطش حتى أودى بهم الى الهلاك، فجاء من ينقذهم بشربة ماء، فقدمها لكعب فرفع رأسه وأشار الى رفيقه فذهب اليه وعاد الى كعب، فأشار الى رفيقه الآخر، وهو في آخر رمق، فسقى الآخر حتى عاد اليه فوجده قد فارق الحياة.

ويندر وجود هذه المثالية السامية الا في مجتمع تغذى بمكارم الاخلاق وتربى على أنبل الصفات.

واذا كانت للاخلاق العربية قمة تتناهى اليها في سمو الصفات وكريم الشمائل وعظيم المزايا، فهي تتمثل في شخصية الرسول، صلى الله عليه وسلم، فهو حينما زوحم بكثرة السؤال في بعض المواقف أبان صلوات الله وسلامه عليه عن أصالته العربية العظيمة فقال: لن

تجدوني بخيلا ولا جبانا.

والعربي ابي لا يقبل الضيم ولا يرضى بالخنوع ولا يتجرع الاهانة، وبين ايدينا قصيدة لذي الاصبع العدواني، واسمه حرثان بن حارثة، يكشف عما في نفس العربي من اباء وشمم وسنوردها كاملة (باطول ما رويت كما رواها المفضّل الضبي في المفضليات مطبعة الاباء اليسوعيين ببيروت ١٩٢٠(وذلك لانها تدلنا على كثير من خصائص النفس العربية.

قال ذو الاصبع العدواني:

لي ابن عم على ما كان من خلق
مختلفان فاقليه ويقليني

ازرى بنا اننا شالت نعامتنا
فخالني دونه او خلته دوني

ياعمرو ان لا تدع شتمي ومنقصتي
اضربك حيث تقول الهامة اسقوني

لاه ابن عمك لا افضلت في حسب
عني ولا انت دياني فتخزوني

ولا تقوت عيالي يوم مسغبة
ولا بنفسك في العزاء تكفيني

اني لعمرك ما بابي بذي غلق
عن الصديق ولا خيرى بممنون

ولا لساني عن الادنى بمنطلق
بالفاحشات ولا فتكى بمأمون

عف يؤوس اذا ماخفت من بلد
هونا فلست بوقاف على الهون

عني اليك فما امي براعية
ترعى المخاض وما رأيي بمافون

كل امرىء راجع يوما لشيمته
وان تخلق اخلاقا الى حين

اني ابي ذو محافظة
وابن ابي ابي من ابين
وانتم معشر زيد على مائة
فاجمعوا امركم كلا فيكدوني
فان عرفتم طريق الرشد فانطلقوا
وان جهلتم سبيل الرشد فأتوني
ماذا على وان كنتم ذوي كرم
ان لا احبكم اذ لم تحبوني
لو تشربون دمي لم يرو شاربكم
ولا دماؤكم جمعا ترويني
الله يعلمني والله يعلمكم
والله يجزيكم عني ويجزيني
قد كنت اوتيكم نصحي وانصحكم
ودي على مثبت في الصدر مكنون
لا يخرج الكره مني غير مأبية
ولا الين لمن لا يبتغي ليني

وانشدني غير ابي عكرمة هذه القصيدة، اتم مما رواها ابوعكرمة ولم يسند روايته الى المفضل وهي:

يامن لقلب شديد الهم محزون
امسى تذكر ريا ام هارون
امسى تذكرها من بعد ما شحطت
والدهر ذو غلظة حينا وذو لين
فان يكن حبها امسى لنا شجنا
واصبح الوصل منها لا يؤاتيني
فقد غنينا وشمل الدهر يجمعنا
اطيع ريا وريا لا تعاصيني
ترمي الوشاة فلا تخطي مقاتلهم
بصادق من صفاء الود مكنون

ولي ابن عم على ما كان من خلق
مختلفان فاقليه ويقليني
ازرى بنا اننا شالت نعامتنا
فخالني دونه بل خلته دوني
لاه ابن عمك لا افضلت في حسب
عني ولا انت دياني فتخزوني
ولا تقوت عيالي يوم مسغبة
ولا بنفسك في العزاء تكفيني
فان ترد عرض الدنيا بمنقصتي
فان ذلك مما ليس يشجيني
ولا يرى فيّ غير الصبر منقصة
وما سواه فان الله يكفيني
لولا اواصر قربى لست تحفظها
ورهبة الله فيمن لا يعاديني
اذن بريتك بريا لانجبار له
اني رأيتك لا تنفك تبريني
ان الذي يقبض الدنيا ويبسطها
ان كان اغناك عني سوف يغنيني
الله يصلحني والله يعلمكم
والله يجزيكم عني ويجزيني
ماذا على وان كنتم ذوي رحمي
ان لا احبكم اذ لم تحبوني
لو تشربون دمي لم يرو شاربكم
ولا دماؤكم جمعا ترويني
ولي ابن عم لو ان الناس في كبد
لظل محتجزا بالنبل يرميني
ياعمرو الا تدع شتمي ومنقصتي
اضربك حيث تقول الهامة اسقوني

عني اليك فما امي براعية

ترعى المخاض وما رأيي بمغبون

اني ابي ابي ذو محافظة

وابن ابي ابي من ابيين

لا يخرج القسر مني غير مأبية

ولا الين لمن لا يبتغي ليني

عف ندود اذا ما خفت من بلد

هونا فلست بوقاف على الهون

كل امريء صائر يوما لشيمته

وان تخلق اخلاقا الى حين

اني لعمرك ما بابي بذي غلق

عن الصديق ولا خيرى بممنون

وما لساني على الادنى بمنطلق

بالمنكرات ولا فتكي بمأمون

عندي خلائف اقوام ذوي حسب

وآخرون كثير كلهم دوني

وانتم معشر زيد على مائة

فاجمعوا امركم شتى فكيدوني

فان علمتم سبيل الرشد فانطلقوا

وان جهلتم سبيل الرشد فأتوني

يارب ثوب حواشيه كأوسطه

لا عيب في الثوب من حسن ومن لين

يوما شددت على فرغاء فاهقة

يوما من الدهر تارات تماريني

قد كنت أعطيكم مالي وامنحكم

ودي على مثبت في الصدر مكنون

بل رب رحمي شديد الشغب ذي لجب

دعوتهم راهن منهم ومرهون

ردت باطلهم في رأس قائلهم
حتى يظلوا خصوما ذا افانين
ياعمرو لو لنت لي ألفيتني بشرا
سمحا كريما أجازي من يجازيني
والله لو كرهت كفى مصاحبتي
لقلت اذ كرهت قربي لها بيني

شرح المفضليات: ٣٢١ - ٣٢٧

انظر الى قوله: اني ابي ابي «فهو يظهر اباءه الاصيل ومحافظته الشديدة وانه قد اكتسبها من اجداده ويقول في البيت الآخر:

عف ندود اذا ما خفت من بلد
هونا فلست بوقاف على الهون

وفي هذا البيت يؤكد اباءه وشممه وبعده عن دار الهوان.

ثم يقول بعده:

كل امرىء صائر يوما لشيمته
وان تخلق اخلاقا الى حين

وبهذا يظهر لنا اصالة ابائه ثم يقول في آخر بيتين من القصيدة:

يا عمرو لو لنت لي الفيتني بشرا
سمحا كريما أجازي من يجازيني
والله لو كرهت كفي مصاحبتي
لقلت اذ كرهت قربي لها بيني

لقد ابان لنا في هذين البيتين نفسية العربي بكل وضوح، فهو يخاطب صاحبه بانه لو لان له لوجده سمحا كريما لين الجانب ثم يعقب على ذلك بانه لو كرهت كفه مصاحبته لقطعها. وهنا ندرك ما في نفس العربي من عزة وكرامة واباء، فهو لا يقبل أن يكون محلا للهوان.

والعربي حساس للاهانة الى أبعد الحدود، فها هو عمرو بن كلثوم يفتك بالملك عمرو بن هند ــ وهو متبدى ــ لأنه أراد أن يهينه باستخدام أمه حيث أمرتها أم الملك بنقل صحفة من الطعام، فصرخت واذلاه، وكان عمرو بن هند قبل ذلك قد قتل جماعة من تغلب ولكن لم تندلع شرارة الغضب التي اشعلت النار من عمرو ولا قومه الا عند وقوع هذه الاهانة.

وكذلك فعل جساس حينما رمى كليب ناقة خالته البسوس السعدية وصاحت لو كنت في قومي ما أهنت، فقتل جساس كليبا، واضطرمت الحرب بين بكر وتغلب، وما ضر البسوس لو أنها أغضت على تلك الاهانة، واعتبرت سرابها ميتة لكانت غير باعثة تلك الشرارة التي أشعلت تلك الحرب وقد كان كليب قبل ذلك قد أجلى بكرا عن ماءين من مياههم تعديا وظلما، ولكن بكرا لم تغضب ولم يثر جساس في وجه كليب، وعندما أهين ذماره غضب وفتك بكليب، وهكذا طبع العربي، وقد قال القحيف بن خمير العقيلي المضري:

اذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

ومن صفات العربي البارزة الوفاء وهو ملتزم به مهما كلفه ذلك من تضحيات ولعل قصة الملك العربي الذي كان يقتل من يأتيه في يوم شؤمه تبين لنا الكثير من الوفاء الذي يلتزم العربي به، ولقد أتى اعرابي في يوم من أيام شؤم ذلك الملك فأمر بقتله، فطلب من الملك أن يؤجله الى حين أن يقضي التزاماته، ثم يرجع، فرفض الملك أن يدعه حتى يأتيه بكفيل مكانه يقتل أن لم يف الاعرابي بوعده، فالتفت الأعرابي الى أحد جلساء الملك وطلب منه أن يكفله، فالتزم بذلك، وحينما جاء موعد الأعرابي هم الملك بقتل كفيله، وطلب الكفيل أن ينتظر حتى ينتهي ذلك اليوم المحدد، وفي أخريات اليوم جاء الأعرابي يلهث، وعندها بهت الملك وتعجب من وفاء الاعرابي، وكرم جليسه، وآلى على نفسه أن لا يكون شر الثلاثة، فأبطل تلك العادة.

ونحن لا نستبعد وضع هذه القصة، ولكنا ــ نراها وان كانت موضوعة ــ تمثل صفة الوفاء العظيم في نفس العربي.

وهناك من الوقائع، التي لا يتسرب اليها الشك، ما ينبيء عن هذا الوفاء العظيم، فقبيلة بكر عرضت حياتها وكيانها كله في سبيل المحافظة على التزامها للنعمان في حفظ حرمه وماله، وحينما طلب كسرى منها ما تركه النعمان عندها رفضت طلبه باباء وهي تعلم أن لا قبل لها بكسرى وغضب كسرى، فارسل جيشا عظيما إلى ذي قار ليخضد هذه القبيلة، وخابت ظنونه، فما أن وصل جيشه الى مشارف ذي قار حتى حزمت بكر أمرها، واخرجت سلاحها كله، وامتنع من أودعه النعمان سلاحه عن اخراج عدة النعمان الحربية، باعتبارها أمانة، ومن الوفاء المحافظة عليها، فقال له رئيس القبيلة ويلك أن هزمنا كيف نمنعها وان انتصرنا فهي سترد عليك، فاخرج سلاح النعمان ووزع في القبيلة، وهزم جيش كسرى، وانتصرت بكر، ورجعت فلول الفرس بالهزيمة والخيبة، وكان شعار بكر في هذه الحرب (محمد) وكان صلوات الله وسلامه عليه قد عرض الاسلام على وفد منهم قدموا للحج فاستمعوا له وقالوا: ان لنا قوما يجب أن نشركهم في الرأي فأمهلنا حتى نراجع قومنا. وعندما واجهوا جيش فارس تذكروا قول الرسول لهم، فقالوا ما اسم القرشي الذي وعدنا أرض كسرى وقيصر إن نحن آمنا به ونصرناه، قالوا اسمه محمد عليه الصلاة والسلام، فاتخذوه شعارا في الحرب، وحينما جاءت أخبار النصر إلى مكة قال صلوات الله وسلامه عليه اليوم انتصفت العرب من الفرس وبي نصروا.

وتجدب أرض العرب، فتتجه القبائل العربية نحو السواد من أرض العراق، لكن كسرى يمنعهم من أرض السواد خوفا من عبثهم وتعدياتهم، ويصرون على دخول السواد، فيطلب كسرى ضمانا لذلك، فيتقدم أحد زعماء طيء ليحفظ السواد من تجاوز هذه القبائل على نظام الفرس، أو الفساد في السواد، ويقبل كسرى هذا التعهد، ولكن ما لبث هذا الزعيم الطائي إلا أن عجز عن أن يضبط هذه القبائل،

فعاثت فسادا في السواد بعد ان تبددت فيه واستقرت بمراعيه، وظل كسرى يعاني من طيشهم واعتداءاتهم، وأخرجهم كسرى أو قل خرجوا بعد أن أمرعت أرضهم، وبعد سنوات عاد الجدب إلى أرض العرب، وعادت القبائل الى أرض السواد، ولكن كسرى سد منافذ السواد في أوجه العرب، وظلت القبائل تحوم حول السواد ولا تستطيع دخوله، واضطرتهم الظروف إلى الذهاب الى كسرى ثانية، وحينما قدم زعماء القبائل وطلبوا من كسرى الدخول الى السواد وجه كسرى اللوم والتأنيب للزعيم الطائي وقال ألم آذن للعرب بالدخول بضمانك فلم تف بوعدك وها أنت تعلم ما عملت العرب في السواد من سلب ونهب، وخاطب الرؤساء قائلا: كيف تطلبون مني الاذن بدخول السواد بعد أن عبثتم به. وغدرتم بذمتي، ولم تفوا بوعدكم إني لا آذن لكم حتى تتكفلوا بمنع قبائلكم من أي اعتداء، ولن أوافق على الأذن حتى تعطوني ضمانا على ذلك، فقام حاجب بن زرارة وقال: انا أتكفل بحفظ القبائل عن التعدي على العراق، قال كسرى، وما يضمن لي ذلك وقد غدر بي الطائي، قال حاجب بن زرارة: هذه قوسي رهان بضمان ذلك وضحك مستشاروكسرى ومرازبته في قرارة أنفسهم، وقد تملكهم العجب، وسيطرت عليهم الدهشة من هذا الضمان التافه، ولكن كسرى كان أدهى منهم وأبعد رأيا وأكثر معرفة بنفسية العربي، فقد علم أن هذا الزعيم العربي الفذ لم يعط قوسه رهانا للضمان لقيمتها المادية كما توهم اصحابه وانما جعلها رهانا رمزا لوفائه العظيم، فهو سيبذل كل التضحيات في سبيل رمزه، وسيحافظ على تعهده مهما تحمل من تبعات، ومهما لحقه من ضرر، واستطاع حاجب بقوة قبيلته وجدارة زعامته وصدق وفائه أن يحفظ العراق من أي تعد من القبائل العربية، بعد أن عجز جيش كسرى وزعماء العرب من قبل عن ذلك.

وضُرب المثل بوفاء حاجب وتمت مدة الضمان التي التزم بها دون أي اعتداء وتوفي حاجب فذهب ابنه عطارد يطالب كسرى بقوس أبيه التي ارتهنها ضمانا للعرب، وعلم كسرى ان عطارد لم يأت ليسترجع

القوس فقط، وانما جاء ليسترد الرمز خشية أن يحاسب عليه، وقد انتهت مدته. وجمع كسرى قواده ومستشاريه ووجوه قومه واحتفل بارجاع القوس، واثنى على حاجب ووفائه وابنه عطارد، وأعلم قومه أنه كان أعرف منهم بنفسية العربي حينما استغربوا قبوله القوس ضمانا، وها قد خاب ظنهم وصدق ظنه.

ومن حب العرب للوفاء وتمسكهم به والتزامهم بحقوقه أن صار شيمة من شيمهم التي تنبت في بيئتهم حتى ان من لم يكن منهم وعاش بينهم وتربى على سلوكهم التزم بهذه المثالية في الوفاء ولو ضحى بأحب الناس اليه، فهذا السموأل بن عاديا اليهودي وقد أودعه امرؤ القيس ادراعه وسلاحه، وكان له حصن منيع، وقد حوصر في الحصن على أن يسلم ادراع امرىء القيس أو أن يذبح ابنه امام عينيه، وكان خارج الحصن، فأبى أن يسلم الادراع وضحى بابنه في سبيل المحافظة على الوفاء وضرب به المثل لذلك، وقال:

وفيت بادرع الكندي اني
اذا ما خان أقوام وفيت

وربما قصد بهؤلاء الأقوام قومه.

والعربي صبور، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، الا على الهون، وهو يتحمل شظف العيش وقسوة الصحراء، بما فيها من قيظ محرق وشتاء قارس، وكل طعامه تمر ولبن ان وجد، والا فكسيرات من أقط أو ما شابه ذلك، وهو يستقبل حياته تلك بقلب ثابت وطمأنينة كاملة.

قال ذو الخرق الطهوي، واسمه خليفة بن عامر الحنظلي، يخاطب امرأته:

ما بال أم حبيش لا تكلمنا
لما افتقرنا وقد نبرى فنتفق
تقطع الطرف دوني وهي عابسة
كما تشاوس فيك الثائر الحنق

لمـــا رأت ابلي جـــاءت حمـــولـــتـــهـــا
غـرثـى عـجـافـا عـلـيـهـا الـريـش والـورق
قـالـت: الا تـبـتـغـي مـالا نـعـيـش بـه
عـمـا نـلاقـي فشر الـعـيـشـة الـرمـق
فـيـئـي اليـك فـانـا معشر صـبـر
في الجـدب لا خـفـة فـيـنـا ولا نـزق
إنـا اذا حـطـمـة حـتـت لـنـا ورقـا
نمـارس الـعـيـش حـتـى يـنـبـت الـورق

والبيت الرابع يصور لنا ما يعانيه العربي من تعاسة وجهد وضنك، ففي قوله على لسانها: «عما نلاقي وشر العيشة الرمق» تبين المعاناة الشديدة المضنية والضيق المحرج. ويجابه الطهوى امرأته بصلابة الصابر القوي ويقول لها ارجعي الى شيمتنا الاصيلة: «فإنا معشر صبر»، ولا يخامرنا طيش ولا نزق حينما تضيق أحوالنا وتجدب أراضينا وتنقص أموالنا، واذا حطمة طغت على ما لدينا من مال نصابر حتى يكون لنا مال. انه تصوير رائع منقطع النظير.

ويصور لنا ابن كدراء، أحد بني الأعور بن سدوس الشيباني، حال امرأته قبل ان ينهب لها مالا ويبشرها بذلك:
لـعـمـري لـئـن أم الـولـيـد تمـولـت
لـقـد كـالـبـت مـر المـعـيـشـة حـالهـا
الاهـل أتـى أم الـولـيـد بـأنـنـي
حـويـت لهـا نـهـبـا يـريـح اعـتـلالهـا
ان قوله «لقد كالبت مر المعيشة حالها» لمما يظهرنا على تلك المعيشة المرة والتي لا يمكن مكالبتها الا بصبر نافذ.
وبين أيدينا قصة لشاعرة كريمة، وان كانت القصة تدل على الجود، فان فيها ما يدل على الصبر والجلد، قالت حبيبة بنت عبدالعزى من ثعلبة بن سعد بن ذبيان:

أإلى الفتى بزتلكأ ناقتي
غشى مناسمها النجيع الاسود
اني ورب الراقصات إلى منى
بجنوب مكة كلهن مقلد
أولى على هلك الطعام ألية
أبداً ولكني أبين وأنشد
وصى أبي جدي وعلمني أبي
نفض الوعاء وكل زاد ينفد
فاحفظ حميتك لا أبا لك فاحترش
لا يفضحنك فأرة أو جد جد

وتتلخص قصة هذه الأم الكريمة في أن ابنها أصاب صيداً فجعل لحمه وشائج وتصافيف وقال لها احفظيه علينا ولا تفرقيه فان الحر قد اشتد قالت:

والله لا أخزن لحماً ولا أساكنك أبداً، ثم رحلت عنه فتلكأت ناقتها للألف لوطئها، فقالت تلك الأبيات السابقة، ولعل القارىء يدرك تنازع حنان الأمومة والتمسك بالمبادىء التي ربيت عليها هذه المرأة، انها تفارق ابنها لتركه الكرم، ثم تسير وتتوقف ناقتها ولا شك أن قلبها قد توقف مع ناقتها، ولكن صبرها على المبادىء والشيم التي غرست فيها جعلها تخاطب الناقة وتلومها على هذا التوقف ثم صممت على أن تترك فلذة كبدها في سبيل الحفاظ على مبادئها.

ومن أبرز صفات العربي رقة احساسه وحرارة وجدانه وجيشان عواطفه، فطبيعته طبيعة الفنان، ولقد قال أحمد بن أبي دواد: «ليس أحد من العرب الا وهو يقدر على قول الشعر، طبع ركب فيهم قل قوله أو كثر» ولقد أعرب ابن أبي دؤاد عما في طبع كل عربي من فن، وهذا ما نجده في البيئة الجاهلية، فالفارس يقول الشعر ويسجل وقائعه به، ويقوله الزعيم ويدافع به عن قومه، ويقوله الراعي ليعرب به عن شؤونه وشجونه، وتقوله المرأة لتبرز مآربها وآلامها وهلم جرا.. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشعر ديوان العرب» ونحن

لا نعرف تاريخ الجاهليين الا من خلال الشعر، ولولا الشعر لضاع جل تاريخ الجاهليين ان لم نقل كله.

ويتجلى احساس العربي العميق بأبهى صوره في ومقه، فهو يهيم في حبه أعلى هيام ويخلص في وده منتهى الاخلاص، ولو أوصله الحب الى الهلاك.

ولقد كانت قبيلة بني عذرة مثلا رائعاً للاخلاص في الحب النزيه والتأثر الوجداني العميق، وقد أصبح اسم هذه القبيلة رمزاً للحب العفيف الى عصرنا الحاضر. ولكي نعلم معاناة العربي في حبه، ونستطلع ما في نفسه من وجد وهيام فلابد أن نذكر معظم قصيدة عروة بن حزام العذري ذلك لأنها تعرب عما في نفس العربي من وجد عارم وحب صادق.

قال عروة بن حزام:

خليلي من عليا هلال بن عامر
بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني

ولا تزهدا في الاجر عندي واجملا
فانكما بي اليوم مبتليان

ألم تعلما أن ليس بالمرخ كله
أخ وصديق صالح فذراني

أفي كل يوم أنت رام بلادها
بعينين انسانيهما غرقان

ألا فاحملاني بارك الله فيكما
الى حاضر الروحاء ثم دعاني

على جرة الأصلاب ناجية السرى
تقطع عرض البيد بالوخدان

ألما على عفراء انكما غدا
بشحط النوى والبين معترفان

فيا وارثي عفرا دعاني ونظرة
تقر بها عيناي ثم كلاني

أغـــركـــمـــا مـــنـــي قـــمـــيـــص لـــبـــســـتـــه
جـــديـــداً وبـــردا يـــمـــنـــة زهـــيـــان
مـــتـــى تـــرفـــعـــا عـــنـــي الـــقـــمـــيـــص تـــبـــيـــنـــا
بـــي الضر مـــن عـــفـــراء يـــا فـــتـــيـــان
وتـــعـــتـــرفـــا لحـــمـــا قـــلـــيـــلا وأعـــظـــمـــا
رقـــاقـــاً وقـــلـــبـــاً دائـــم الخـــفـــقـــان
على كـــبـــدي مـــن حـــب عـــفـــراء قـــرحـــة
وعـــيـــنـــاي مـــن وجـــد بـــهـــا تـــكـــفـــان
فـــعـــفـــراء أرجـــى الـــنـــاس عـــنـــدي مـــودة
وعـــفـــراء عـــنـــي المـــعـــرض المـــتـــوانـــي
فـــيـــا لـــيـــت كـــل اثـــنين بـــيـــنـــهـــمـــا هـــوى
مـــن الـــنـــاس والأنـــعـــام يـــلـــتـــقـــيـــان
فـــيـــقضي حـــبـــيـــب مـــن حـــبـــيـــب لـــبـــانـــة
ويـــرعـــاهمـــا ربـــي فـــلا يـــريـــان
هـــوى نـــاقـــتـــي خـــلـــفـــي وقـــدامـــي الهـــوا
ء وانـــي وإيـــاهـــا لمـــخـــتـــلـــفـــان
هـــواي أمـــامـــي لـــيـــس خـــلـــفـــي مـــعـــرج
وشـــوق قـــلـــوصي في الـــغـــدويـــانـــي
مـــتـــى تجـــمـــعـــي شوقـــي وشـــوقـــك تـــظـــلـــعـــي
ومـــالـــك بـــالـــعـــبء الـــثـــقـــيـــل يـــدان

ثم قال:

تحـــمـــلـــت مـــن عـــفـــراء مـــا لـــيـــس لي بـــه
ولا للجـــبـــال الـــراســـيـــات يـــدان
كـــأن قـــطـــاة عـــلـــقـــت بـــجـــنـــاحـــهـــا
على كـــبـــدي مـــن شـــدة الخـــفـــقـــان
جـــعـــلـــت لـــعـــراف الـــيـــمـــامـــة حـــكـــمـــه
وعـــراف نـــجـــد إن همـــا شـــفـــيـــانـــي

فقالا نعم نشفي من الداء كله
وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانها
ولا سلوة الا وقد سقياني
وما شفيا الداء الذي بي كله
ولا ذخرا نصحاً ولا الواني
فقالا شفاك الله والله ما لنا
بما ضمنت منك الضلوع يدان
فرحت من العراف تسقط عمتي
عن الرأس ما التاثها ببنان

ويقول:

واني لأهوى الحشراذ قيل انني
وعفراء يوم الحشر ملتقيان
ألا يا غرابي دمنة الدار بيّنا
أبا لهجر من عفراء تنتحيان
فان كان حقاً ما تقولا فاذهبا
بلحمي الى وكريكما فكلاني
كلاني أكلا لم ير الناس مثله
ولا تهضما جنبي وازدرداني
ولا يعلمن الناس ما كان قصتي
ولا يأكلن الطير ما تذران
أناسية عفراء ذكري بعد ما
تركت لها ذكرى بكل مكان

ويقول:

فوالله ما حدثت سرك صاحباً
أخاً لي ولا فاهت به الشفتان
سوى انني قد قلت يوماً لصاحبي
ضحى وقلوصانا بنا تخدان

ضحيا ومستنا جنوب ضعيفة
نسيم لرياها بنا خفقان
تحملت زفرات الضحى فاطقتها
ومالي بزفرات العشى يدان

ويقول:

فويلي على عفراء ويلا كأنه
على الكبد والأحشاء حدّسنان
ألا حبذا من حب عفراء ملتقى
نعم والا لا حيث يلتقيان
لو أن أشد الناس وجداً ومثله
من الجن بعد الانس يلتقيان
فيشتكيان الوجد ثمت اشتكى
لأضعف وجدي فوق ما يجدان
فقد تركتني ما أعي لمحدث
حديثاً وان ناجيته ونجاني
وقد تركت عفراء قلبي كأنه
جناح غراب دائم الخفقان

اننا لا نريد أن نستطرد في ذكر جميع النوازع فيما ذكرنا من هذه القصيدة، ولكننا نقول إن الشاعر أبدى من الحب المفرط والتعلق الشديد بالمحبوب ما جعلنا أمام انسان تشتعل في فؤاده نار الحب ويضطرم في نفسه أوار الوجد، وهو يتقلب على جمر الهجر والاعراض.

ولقد كان عروة أول صريع أسلم نفسه شهيداً في سبيل الحب واطلعنا على معاناته وقال كثير بن عمرو الهلالي:

تصدت لنا ليلى الغداة تعمداً
لنزداد حزناً بعد طول ضمان
فهاضت فؤاداً كان يرجى اندماله
على عنت قد كان منذ زمان

ولــو قــنــعــت لــيلى لــنــا بــالــذي بــنــا
مــن الــشــوق والــوجــد الــقــديــم كــفــانــي

ولــكــنــهــا لــم تــأل ضــرى ولــيــس لي
بــأكــثــر ممــا حمــلــتــه يــدان

ان شاعرنا يقف عاجزاً عن تحمل هذا الحب العظيم الذي لم تبق لديه طاقة لتحمله.

ويخبرنا جميل بنهاية ما يرجوه من بثينة فيقول:

وانــي لأرضى مــن بــثــيــنــة بــالــذي
لــو أبــصــره الــواشي لــقــرت بــلابــلــه

بــلا وبألا اســتــفــيــق وبــالمــنــى
وبــالأمــل المــرجــو قــد خــاب آمــلــه

وبــالــنــظــرة الــعــجلي وبــالحــول يــنــقضي
أواخــره لا نــلــتــقــي وأوائــلــه

ان جميلا صور لنا حبه الخالص بمثالية متناهية، فهو لا يريد من محبوبته شيئاً، وانما يريد رضاها فقط..

الخيل في الحرب

قال تعالى: والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا.

لقد نقلتنا هذه الآيات الكريمات الى وسط المعركة، اننا تجاه صورة واقعية لمعركة محتدمة، فالقسم في أول السورة يعطي الجلالة للخيل ومكانتها، وكلمة (العاديات) تبعث في النفس تصور السرعة المباغتة، والضبح يقيدها بالخيل (فالموريات قدحا) وهو ايضاح لسرعة عدوها، وقوة حوافرها، وسرعة نفاذها، كما أنه تبيين لصلابة أرض المعركة التي لايمكن للخيل أن تؤدي كامل طاقاتها ولا لأبطالها الا على مثلها، والآية التالية (فالمغيرات صبحا) تعطي صورة المباغتة والمفاجأة، وتوحي بصعوبة الموقف في ذلك الصباح، والآية (فأثرن به نقعا) تشكل لنا صورة التصاق الخيل الى بعضها عند احتدام المعركة وانعطافها حينما يجالد أبطالها، وتتطاعن فرسانها، وتظهر الخيل مرانها وتحملها والرماح تنوشها من كل جانب، وتتضايق المواقف، وتلتحم الفرسان، ويثور النقع، وعند ذلك ينقلنا القرآن الكريم الى المعركة (فوسطن به جمعاً) هناك يكون تضارب الفرسان بالسيوف، والخيل تحمحم من مس الضراب.

ولمثل هذه المواقف الحرجة الخطيرة أولى العربي الخيل كل اهتمامه، وفضلها على كل عزيز لديه، وبذل جهده في ترويضها والعناية بها، وفي مثل هذه المعارك تبرز الخيل عظيم صبرها، ومكامن قوتها، وصدق ثباتها.

لقد أعطانا القرآن صورة حية لمعركة جاهلية محتدمة بأوجز لفظ وأعظمه، وأبدع تصوير وأروعه، وبأجل بيان وأصدقه.

ولقد أورد شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري قول فريقين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم في تفسير «العاديات»: ففريق قال:

انها الخيل، وفريق قال: انها الابل. وبالرغم من أن ابن جرير مال الى قول من قال: انها الابل، الا أننا نرى أن في الآيات ثلاث صفات هن من صفات الخيل، (الضبح، والقدح، واثارة النقع).

وبين أيدينا قصيدة رائعة قالها طفيل الخيل في غارة اقتصاصية من طيء وقد كانت طيء قبل ذلك أغارت على غنى، فقتلت وأسرت، وها نحن نورد القصيدة بكاملها لما تحتويه من مرام حربية وذكر للخيل:

بالعفر دار من جميلة هيجت
سوالف حب في فؤادك منصب
وكنت اذا ناءت بها غربة النوى
شديد القوى لم تدر ما قول مشغب
كريمة حر الوجه لم تدع هالكاً
من القوم هلكاً في غد غير معقب
أسيلة مجرى الدمع خمصانة الحشى
برود الثنايا ذات خلق مشرعب
ترى العين ما تهوى وفيها زيادة
من اليمن اذ تبدو وملهى لملعب
وبيت تهب الريح في حجراته
بأرض فضاء بابه لم يحجب
سماوته أسمال برد محبر
وصهوته من أتحمي معصّب
وأطنابه أرسان جرد كأنها
صدور القنا من بادىء ومعقب
نصبت على قوم تدر رماحهم
عروق الأعادي من غرير وأشيب
وفينا ترى الطولى وكل سميدع
مدرب حرب وابن كل مدرب
طويل نجاد السيف لم يرض خطة

من الخسف ورّاد الى الموت صقعب
تبيت كعقبان الشريف رجاله
اذا ما نووا احداث أمر معطب
وفينا رباط الخيل كل مطهم
رجيل كسرحان الغضى المتأوب
يذيق الذي يعلو على ظهر متنه
ظلال خذاريف من الشد ملهب
وجرداء ممراح نبيل حزامها
طروح كعود النبعة المتنخب
نتيف اذا اقورت من القود وانطوت
بهاد رفيع يقهر الخيل صلهب
وعوج كأحناء السراء مطت بها
مطارد تهديها أسنة قعضب
اذا قيل: نهنهها وقد جد جدها
ترامت كخذروف الوليد المثقب
قبائل من فرعى غني تواهقت
بها الخيل لا عزل ولا متأشب
ألا هل أتى أهل الحجاز مغارنا
على حي ورد وابن ريا المضرب؟
جلبنا من الأعراف أعراف غمرة
وأعراف لبن الخيل يا بُعد مجلب
بنات الغراب والوجيه ولاحق
وأعوج تنمي نسبة المتنسب
ورادا وحُوّا مشرفاً حجباتها
بنات حصان قد تعولم منجب
وكمتا مدماة كأن متونها
جرى فوقها واستشعرت لون مذهب
نزائع مقذوفاً على سرواتها

بمـا لـم تخالـسهـا الـغـزاة وتـسـهـب
تـبـاري مـراحـيـهـا الـزجـاج كـأنـهـا
ضـراء أحـسـت نـبـأة مـن مـكـلـب
كـأن يـبـيـس المـاء فـوق مـتـونـهـا
أشـاريـر مـلـح في مـبـاءة مجـرب
مـن الـغـزو واقـورت كـأن مـتـونـهـا
زحـالـيـف ولـدان عـفـت بـعـد مـلـعـب
وأذنـابـهـا وحـف كـأن ذيـولها
مجـر أشـاء مـن سـمـيـحـة مـرطـب
وآضـت الى أجـوازهـا وتـقـلـقـلـت
قـلائـد في أعـنـاقـهـا لـم تـقـضـب
كـأن سـدى قـطـن الـنـوادف خـلـفـهـا
اذا اسـتـودعـتـه كـل قـاع ومـذنـب
اذا هـبـطـت سـهـلا كـأن غـبـاره
بـجـانـبـه الأقصى دواخـن تـنـضـب
كـأن رعـال الخـيـل لمـا تـبـادرت
نـوادي جـراد الـوهـدة المـتـصـوب
وهـصـن الحصى حـتـى كـأن رضـاضـه
ذرى بـرد مـن وابـل مـتـحـلـب
يـبـادرن بـالـفـرسـان كـل ثـنـيـة
جـنـوحـاً كـفـراط الـقـطـا المـتـسـرب
وعـارضـتـهـا رهـوا على مـتـتـابـع
شـديـد الـقـصـيـري خـارجـي محـنـب
كـأن على أعـرافـه ولجـامـه
سـنـا ضـرم مـن عـرفـج مـتـلـهـب
كـأن على أعـطـافـه ثـوب مـائـح
وان يـلـق كـلـب بين لحـيـيـه يـذهـب
اذا انـصـرفـت مـن عـنـة بـعـد عـنـة

وجـرس على آثـارهـا كـالمـولـب
تـصـانـع أيـديـهـا الـسـريـح كـأنـهـا
كـلاب جـمـيـع غـرة الـصـيـف مـهـرب
اذا انـقـلـبـت أدت وجـوهـاً كـريـمـة
محـبـبـة أديـن كـل محـبـب
خـدت حـول أطـنـاب الـبـيـوت وسـوفـت
مـرادا وان تـقـرع عـصـا الحـرب تـركـب
فـلـمـا بـدا هـضـب الـقـنـان وصـارة
ووازن مـن شـرقـي سـلـمـى بمـنـكـب
انـخـنـا فـسـمـنـاهـا الـنـطـاف فـشـارب
قـلـيـلا، وآب صـد عـن كـل مـشـرب
تـرادى على فـأس اللـجـام كـأنمـا
يـرادى بـه مـرقـاة جـذع مـشـذب
وشـد الـعـضـاريـط الـرحـال وأسـلـمـت
الى كـل مـغـوار الـضـحـى مـتـلـبـب
فـلـم يـرهـا الـراؤون الا فـجـاءة
بـواد تـنـاصـيـه الـعـضـاه مـصـوب
ضـوابـع تـنـوي بـيـضـة الحـي بـعـد مـا
أذاعـت بـريـعـان الـسـوام المـعـزب
رأى مجـتـنـو الـكُـراث مـن أهـل عـالـج
رعـالا مـطـت مـن أهـل شـرج وأيـهـب
فـألـوت بـغـايـاهـم بـهـم وتـبـاشـرت
الى عـرض جـيـش غير أن لـم يـكـتـب
فـقـالـوا: ألا مـا هـؤلاء؟ وقـد بـدت
سـوابـقـهـا في سـاطـع مـتـنـصـب
فـقـال: بـصـير يـسـتـبين رعـالهـا
هـم والالـه مـن تخـافين فـاذهـبـي
على كـل مـنـشـق نـسـاهـا طِـمِـرة

ومنجرد كأنه تيس حلب

يذدن ذياد الخامسات وقد بدا

ثرى الماء من أعطافها المتحلب

وقيل اقدمي واقدم واخر وارحبي

وها وهلا واضرح وقارعها هبي

فما برحوا حتى رأوا في ديارهم

لواء كظل الطائر المتقلب

رمت عن قسى الماسخي رجالنا

بأحسن ما يبتاع من نبل يثرب

كأن عراقيب القطا أطرها

حديث نواحيها بوقع وصلّب

كسين ظهار الريش من كل ناهض

الى وكره وكل جون مقشّب

فلما فنى ما في الكنائن ضاربوا

الى القرع من جلد الهجان المجوب

فذاقوا كما ذقنا غداة محجر

من الغيظ في أكبادنا والتحوّب

أبأنا بقتلانا من القوم مثلهم

وما لا يعد من أسير مكلّب

نروّي صدور المشرفية منهم

وكل شراعي من الهند شرعب

بضرب يزيل الهام عن سكناته

وينقع من هام الرجال بمشرب

فبالقتل قتل والسوام بمثله

وبالشل شل الغائط المتصوب

وجعن خيطاً من رعاء أفانهم

وأسقطن عن أقفائهم كل محلب

فرحن يبارين النهاب عشية

مـقـلـدة أرسـانـهـا غير خـيـب
معـرقـة الألحـي تـلـوح متـونـهـا
تـثير الـقـطـا في مـنـقـل بـعـد مـقـرب
لأيـامـهـا قـيـدت وأيـامـهـا غـزت
بـغـنـم ولـم تـؤخـذ بـأرض فـتـغـصـب
كـأن خـيـال الـسـخـل في كـل مـنـزل
يـضـعـن بـه الأسـلاء طـلاء طـحـلـب
طـوامـح بـالـطـرف الـظـراب اذا بـدت
محـجـلـة الأيـدي دمـا بـالمـخـضـب
ولـلـخـيـل أيـام فـمـن يـصـطـبـر لهـا
ويـعـرف لهـا أيـامـهـا الخير تـعـقـب
وقـد كـان حـيـانـا عـدويـن في الـذي
خـلا، فـعلى مـا كـان في الـدهـر فـارتـبـي
الى الـيـوم لـم نـحـدث الـيـكـم وسـيـلـة
ولـم تجـدوهـا عـنـدهـم في الـتـنـسـب
جـزيـنـاهـم أمـس الـفـطـيـمـة إنـنـا
مـتـى مـا تـكـن مـنـا الـوسـيـقـة نـطـلـب
فـأقـلـعـت الأيـام عـنـا ذوابـة
بمـوقـعـنـا في محـرب بـعـد محـرب
فـلـم يجـد الأقـوام فـيـنـا مـسـبـة
اذا اسـتـدبـرت أيـامـنـا بـالـتـعـقـب

بدأ الشاعر القصيدة كعادة الشعراء الجاهليين بالغزل، وهو ضريبة الفن، ومهما كان موضوع القصيدة فلابد أن يبدأ العربي بالغزل، ولقد أدرك الشاعر الجاهلي أحاسيس النفس البشرية، وانسجامها مع الحب والجمال.

ولا نريد التعرض لمحبوبته في بحثنا، ولكنا نقف عند صفة لها يجدر الوقوف عندها، لأنها تتصل اتصالا وثيقاً بموضوع القصيدة: فقوله: كريمة حر الوجه.. الى آخر البيت.

يصفها بأنها لم تندب هالكاً لم يخلفه أحد، وهذه الصفة جد غريبة أدخلها الشاعر في غزله، وهي تدلنا على تأثر الشاعر القوي بموضوعه الأول واهتمامه بأخذ الثأر من قبيلة طيء حتى جعل من صفات محبوبته أنها لم تندب هالكاً لم يعقب، والا فما مكان الهالكين والندب والخلف في هذ الغزل، واستطاع طفيل ادخال تلك الصفة المقحمة بلباقة فائقة.

ويمضي الشاعر في القصيدة فيصف أحواله وتنقله السريع في الصحراء ومكثه اليسير الذي لا يمكنه معه بناء بيت من الشعر، أو قبة من الأدم، ولكن بيت شاعرنا تهب الرياح في جوانبه، وبابه ليس محجباً كما يقول الشاعر، ونحن نسائله، أين الباب؟ حتى يحجب، وبالرغم من الباب المفقود المستحيل وجوده في بيت الشاعر، فان بيته أروع بيت شيده فنان شاعر، انه تشكيلة من الفن البسيط الرائع. وننظر الى بيت طفيل، فأعلاه أسمال برد ولكنه موشى، وهو جميل ووسطه برد، ولكنه من نوع آخر، انه من برود اليمن، ذات النقوش الزاهية، والخطوط الملونة، أما أطنابه فهي أرسان خيل أصيلة، وكأن هذه الأرسان بعد أن شدت، صدور الرماح بأيدي الغزاة، ولقد أقيم هذا البيت على أبطال ذوي فتك في الاعادي.

ان بيت شاعرنا لوحة تشكيلية ليس فيها من خيال، وان كان واقعها يشبه الخيال، وتنقل صاحبنا السريع يدلنا على كثرة مشاغله وعظيم اهتمامه، انه يريد الحرب ليأخذ بثأر قبيلته، ويتجه بعد ذلك مباشرة الى ذكر مفاخر القبيلة، فيقول: اننا أصحاب المناقب العظيمة، والأمور الجسيمة، وفينا كل أروع مقدام، مجرب للحرب، متمرس بها، وقد أخذ التجربة عن آبائه وأجداده، وهم طوال النجادٍ، يأبون الهوان، ورادون للموت، متطلعون للاغارة كأنهم عقبانِ «الشريف» وهو واد بنجد.

ويبدأ طفيل في ذكر خيل القبيلة، وهو أحد ثلاثة من الشعراء اختصوا بوصف الخيل، وقد يكون أبرزهم في ذلك، وغنى عرفت بخيلها الأصائل، وفحولها المشهورة، ولهذا يقول: «وفينا رباط الخيل»

ثم يأتي بصفة لتلك الخيل جامعة المحاسن، حاوية لجميل الصفات، «فالمطهم» هو الذي كمل حسنه، وتمت صفاته، ثم يشرع في ذكر تلك المحاسن فيقول: انه شديد الحافر، سريع الانطلاق، كالذئب المهاجم، يعطى راكبه ما يريد من السرعة الفائقة، وكأن استمراره في السرعة كخرارة في يدي صبي.

ويصف بعض خيلهم: انها قصيرة الشعر، ذات نشاط، واسعة الحزام، باسطة يديها في العدو كعود القوس الأملس، تعلو على الخيل بعنق طويل ممتلىء، ولها ضلوع كأغصان شجر السراء، واذا أراد راكبها أن يكفها تتابعت في الجري، لاندفاعها وشدتها كخذروف الوليد. ثم يذكر رجال حربة، وقد امتطوا خيلهم: «انهم من فرع غنى، ليس فيهم ضعيف ولا دخيل» ثم يعلن عن هذه الغارة فيتساءل: هل علم أهل الحجاز بمغارهم؟ ويحدد بدء انطلاق الجيش، ويتعجب من هذا البعد، ومن تحمل الخيل هذه المسافة البعيدة، وما تلاقيه بعدها من مجاهدة وصراع، ويذكرنا بأن هذه الخيل التي جلبت من الأماكن البعيدة لأرض المعركة، ليست من الخيل التي تضعف قوتها، أو يلين صبرها، لأنها من أعراق خيل أصيلة، عرفت آباؤها، واشتهرت انسابها، انها بنات أعوج والوجيه ولاحق والغراب، ثم يصف ألوانها بأنها وراد وحو وكمت قد علتها صفرة، وهي تتعب وتنهك في الحرب بما أريحت به في السلم.

ويعطينا الشاعر صورة ذات ظلال، فالرماح بأيدي الكماة، وهم فوق الخيل، والخيل تنظر الى هذه الرماح المستطيلة، وكأنما تريد أن تسايرها، وهي فزعة مسرعة، كأنها كلاب صيد أدركت اشارة من قانص، وترى فوق متونها ملحا متراكماً من كثرة عرقها، وكأنه أطراف جلة ملح، وقد أتعبها الغزو، حتى أصبحت متونها ملساء من ادامة الركوب، كأنها ملاعب ولدان. ولكن أذنابها كثيرة الشعر، تشبه مجر سعف النخل الملتف، وقلائدها أصبحت واسعة بعد أن ذهب سمنها، فهي تجول في أعناقها دون أن تقطع.

وهذه الخيل حين تهبط الى السهل تترك وراءها ملاءة من الغبار،

وكأنه ما يتطاير من قطن مندوف، واذا سلكت واديا ثار غباره كدخان شجر التنضب ــ ودخانه أبيض ــ

ثـم يشـرع في وصـف الخيـل المغيرة المتفرقة، وكأنها الجراد المنتشر، وهي تطأ الأرض بقوة حوافرها، وما يتطاير من رضاض الحصى، كأنه أعالي برد فتته المطر.

والخيـل تـعـدو بفرسانها لسد كل ثنية، وهي تميل كأسراب القطا، ويـذكر بـعـد ذلك فرسه ويـعارض به أفراس القبيلة، فهو ذو خلق منسجم، شديد الأضلاع «خارجي»: فاق نظراءه، وبزّ أقرانه، وصح نسبه ــ خلافاً لابي عبيدة ومن تبعه من الشراح الذين آخذوا المعنى الآخر للخارجي وقد مر تـفـنيد ذلك فهو يقول في الآبيات السابقة: «بنات الغراب.. البيت. ويقول: «بنات حصان... الشطر».

فـلا يجوز أن يعتـز بين هـذه الخيـل المعروفة النسب بفرس غير منسوب.. ويـريـنا فرسه في هذا الاعتراض، فعطفاه قد أسبلا عرقا، وكأن عليهما ثـوب مائح ــ وهو من نزل البئر حين يقل ماؤه ليملأ الدلو ــ واسع الأشداق، لو طرح كلب بين لحييه لوسعه، وهو شديد النشاط، فائر الهيجان، ولشدة تدافعه كأن على عرفه ولجامه نار عرفج ملتهبة.

ويعـود الى الخيـل حيث تنعطف من مكان الى آخر، وهي تداري أيديها وتلاحظ ما شد من النعال، وكأنها كلاب تختلف من شدة الحر.

ويشير الى عودة الفرسان الظافرين، وأنهم أبطال أدوا الواجب محيين كأفراسهم. وهذه الأفراس تكرم حول البيوت، وهي معدة للحرب، ثم ينبئنا بقرب المعركة، ويحدد لنا المكان، وهو هضب القنان وصاره، بحذاء سلمي، وهو أحد جبلي طيء، وهي القبيلة التي يرومون مباغتتها، وهنا يخبرنا بالاستعداد الكامل للقتال «أنخنا» أي مكثنا للتهيؤ للمعركة، وعرضنا الماء على الخيل تحسبا لطول القتال، فمنها الذي شرب، ومنها الذي صد عن الشرب، وندرك أن الوقت شتاء، ولو كان صيفاً لما امتنع بعض الخيل عن الشرب، وبعد اروائها

شدت اللجم عليها، وهي تدافع بنشاطها، وكأنها جذوع النخل لطول هواديها، وشد الأعوان الرحال، وأسلمت الخيل الى الفرسان المتقلدي السلاح، وبعد ذلك تظهر الخيل فجأة بواد منحدر يحيط به الشجر الشائك، وعندها عرف الطرف المقابل بهذا الهجوم المباغت، وأن الخيل تسبح في عدوها متجهة الى القوم، ولا تريد نعماً أو مالا، فقد تركته بعد أن بددته قاصدة القوم أولا، انها تنوي بيضة الحي.

ويستهزىء طفيل بتصور بعض النساء، فهن يتباشرن لما رأين أقاطيع الخيل، وكن يعتقدن أنها لغير القتال جاءت، وهن يتساءلن عن سوابق هذه الخيل في الغارة، ولكن الخبير لما تبين رعال هذه الخيل قال لاحداهن ــ وقد أقسم أنهم من تخشين ــ فاذهبي الى ملجأ.

ويرجع لذكر الخيل، فيقول: اننا قد امتطينا كل مشرفة وكل جواد لا يتعلق به شيء، وكأنه ظبي قد أكل نبات الحلب، والخيل عند التحام المعركة كأنها جمال وردن في خمس، فهي تتدافع وقد أسبل العرق من أعطافها وفرسانها تلتحم بأعدائها وقد علا زجر الكماة للخيل ودعوتها للاقدام.

وهنا تأتي مخاطبة الفرسان لخيلهم فلابد من الثقافة، وسرعة الحركة، وقوة الانعطاف، والمراوغة، والتأخر، والخداع، والمداورة، والانقضاض، وكلها تحتاج الى فهم من الفرس لتقدير هذه المواقف، ولعلنا ندرك تدريب تلك الخيل الفائق، وانها تتقدم وتتأخر بحسب الأوامر، أنها متطورة التدريب، كالجندي الماهر، انها تترك المجال لفارسها لطعن أقرانه، وتضييق الخناق على عدوه بأقدامها، وشدة مراسها، وطواعيتها في المواقف المحرجة، انها تؤمر بالاقدام فتقدم، وبالتأخر فتتراجع، وبالخروج الى السعة فتخرج، وبالثبات فتثبت، وبالأمر والنهي فتسمع، انها على كفاءة عالية، ومقدرة مرنة.

وبعد ذلك رأى العدو لواء خفافاً في دياره كظل الطائر، ورجالة الجيش قبل ذلك قد أمطرت العدو بسهامها الفاتكة، ويستمر في وصف تلك السهام، وعندها فنيت السهام من كثرة الرمي فضاربوا بالسيوف، وحملوا التروس وقد أصابهم من الغيظ والتأسف مثلما

أصاب قوم طفيل يوم محجر، ومن المؤسف ألا نجد وصفاً لشاعر من شعراء طيء ليوم محجر، فنقابل بين وصف طفيل وشاعر طيء.. ان شاعرنا وقبيلته قد اقتصا من طيء، فهم قد قتلوا مثل قتلاهم، وأسروا الكثير الذي لا يعد، وسيوف غنى قد رويت من دماء طيء، وقد أخذوا نعماً بقدر نعمهم المأخوذة وساقوا رعاءهم، وجعلوها فيئا بينهم، ويرجع طفيل بعد هذا الانتصار الساحق والكسب الثمين فيصف الخيل وهي تباري النهب راجعة وقد ألقيت عنها اللجم غير خائبة. وفي طريقها تثير القطا في الأماكن التي تمر بها، وهذه الخيل خفيفة لحم العوارض، مما يدل على عتقها، ولهذه الأيام ولهذا الغزو أكرمت وقيدت، وقد عادت بالنجح والكسب، وهي قد انتقيت واختيرت ولم تؤخذ هملا وقد تطرح في طريقها فتبقى آثار سقوط الأسلاء كالطحلب، وهن بعد هذه الغارة المنهكة طوامح الى الضراب، وهو جبيل صغير قريب من منازل غني.

ويظهرنا طفيل على رأيه في الخيل فيقول:

«ان للخيل منافع عظيمة، فمن يتحمل عبء الخيل ويصبر عليها تعقب له الخير» ثم يختتم القصيدة بذكر نزاع قبيلته مع طيء، وأنهم لا يعطون الهوادة، ولا يبالون بمعاداة طيء، وهم بهذه الغزوة قد أيأسوا طيئاً من غزوهم، وأنهم لا تضيع لهم حقوق وقد انكشفت الغمامة عنهم بما أصابوا في طيء وقد اقتصوا منهم، وأن أيامهم ناصعة البياض، ليس فيها ما يشين ولا ما يعيب.

لقد أحاط طفيل بجميع أغراض هذه الاغارة، وأعطى الخيل منزلتها العظمية في الحرب، وجعل كل اهتمامه في اظهار أهميتها، وذكر أنسابها وصفاتها ومواقفها، وحينما يدخل في ذكر الحرب أو رجالها لا يلبث أن يعود الى الخيل وما يعتورها. لقد بدأ القصيدة بلقطة فنية، وختمها بلمحة عن مفاخر قبيلته، وأدخل في ثناياها مواقف من الحرب، ولكن معظم القصيدة ينصب على الخيل، انها سجل حافل بكل ما يتصل بالخيل في الحرب.

ولدينا قصيدة للعباس بن مرداس السلمي، يذكر فيها واقعة بين

قومه بني سليم وقبيلة زبيد، ويتطرق العباس في القصيدة لكثير من مواقف الحرب العصيبة، ويتعرض لذكر الخيل في هذه المواقف.
ويبدأ العباس القصيدة بالغزل، ثم يهجم على الموضوع الحربي، فيقول: «فذر ذا» ونحن ندع غزله كما قال:

فذر ذا ولكن هل اتاها مقادنا ... لأعدائنا نزجي الثقال الكوادسا
سمونا لهم تسعا وعشرين ليلة ... نجيز من الاعراض وحشا بَسابسا
فشدوا باعطاف الملاءرؤوسها ... على قلص نعلو بهن الأمالسا
بجمع نريد ابني صحار كليهما ... وآل زبيد مخطئا او ملامسا
فبتنا قعودا في الحديد واصبحوا ... على الركبات يجزؤون الأنافسا
فلم أر مثل الحي حيا مصبَّحا ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا[1]
أكُر وأحمى للحقيقة منهم ... وأضرب منا بالسيوف القوانسا
اذا ما شددنا شَدة نصبوا لنا ... صدور المذاكي والرماح المَداعسا
اذا الخيل جالت عن قتيل نكرها ... عليهم فما يرجعن الا عوابسا
نطاعن عن أحسابنا برماحنا ... ونضربهم ضرب المذيد الخوامسا
وكنت امام القوم أول ضارب ... وطاعنت اذ كان الطعان تخالسا
وكان شهودي معبد ومخارق ... وبشر وما استشهدتُ الا الأكايسا
ومارس زيد حين أقصد مهره ... وأجدرْ به في مثلها ان يمارسا
وقرة يرميهم اذا ما تبددوا ... ويطعنهم شزرا فأبرحت غارسا
وكان معي زيد وعمرو ومالك ... وعزرة لولاهم لقينا الدهارسا
فلو مات منهم من جرحنا لأصبحت ... ضباع بأكنان الأراك عرائسا
ولكنهم في الفارسي فما ترى ... من القوم الا في المضاعف لابسا
فان يقتلوا منا كميّاً فاننا ... أبأنا به قتلى تذل المعاطسا
قتلنا به في ملتقى الخيل خمسة ... وقاتله زدنا مع الليل سادسا
وكنا اذا ما الحرب شبت نَشُبها ... ونضرب فيها الأبلخ المتقاعسا
فأبنا وأبقى طعننا من رماحنا ... مطارد احطاما وسمرا مداعسا

---

[1] برواية اخرى يجردون الايابسا

وجـردا كأن الأسـد فوق متـونها   من القـوم مرؤوسـا وآخر رائسا

فهـو يتسـاءل عن أخبـار وقعته، هل أتت حبيبته، وهل علمت بقيـادهم للخيـل التي يزحم بعضها بعضا. انهم ساروا تسعا وعشرين ليلة، وهم يقطعون الأشراف والأودية، وقد شدوا الملاحف، وقطعوا كل هذه المسـافـات الشاسعة في الصحراء المترامية الأطراف التي يترامى بها السراب، فترى العين الاشياء على غير حقيقتها، وقد ساروا بجمع عظيم يريـدون ابني صحار وزبيد، ولما تقارب الجمعان، استعد كل فريق، فلبست سُليم دروعها، وكذلك اعداؤهم أخذت الأهبة للحرب ـ ونرى ان الاخفش توهم في تفسير البيت حيث جعلهم يقسمون النفائس ورواية الاصمعي اولى بالأخذ ـ وهو يتعجب من ذلك الصباح، الذي صبحتهم فيه سليم بفرسانها التي لا مثيل لها، وسليم كما يقول العباس كانت أكثر جرأة، وأعظم اقداما فهم يكرون ولا يفرون، وحينما تشتد سليم بالهجوم ينصب لها الـطرف الآخر صدور خيلهم، شارعين رماحهم، ثابتين في مواقفهم، انـه يظهـرنـا على موقف من أحرج مواقف الفرسان، تهجم الابـطال لتـزحـزح مقدمة الجيش، فيجابهها الأبطال الآخرون ناصبي الـرماح، وتتدانى الخيل من بعضها، ويلتحم الفريقان في قتال مرير، وعندما يقع قتيل منهم نعيد كرها عليهم، فما ترجع الخيل الا وهي عابسة. اننا نطعن بالرماح محافظة على احسابنا ومآثرنا، ونضربهم بالسيوف كما تضرب الابل في خمسها. وكان العباس اول طاعن، وهو رئيس سليم في هذه الغزوة. واعتقد انه كان شابا، فهو يُشهد معبدا ومخارقا وبشرا، وهم من افاضل قومه، وان كانت كلمة الشهود تعني الحضور، ويذكر الابطال الذين كانوا في مواقف محرجة، فزيد حين صرع مهره جالد امر جلاد، وناضل اشد مناضلة، ولقد نقلنا الشاعر نقلة فنية رائعة الى ذلك المأزق بقوله: ومارس زيد حين اقصد مهره ان كلمة مارس التي وضعها الشاعر في مكانها الفني، واعطاها معنى اكثر مما تتحمل حين اردفها باصابة المهر، تبـينّ لنـا ان ممارسـة زيـد ليست بالامـر الهين، انها بطولة خارقة، وشجاعة نادرة، وثبات عظيم، ولقد اشعرنا العباس ان زيدا اشرعت

الرماح في صدر مهره بقوله «اقصد مهره» ونقلنا الى ذلك المشهد المريع حينما يصرع مهر زيد، فيصبح راجلا بعد ان كان فارسا، والرماح تتجه اليه والفرسان تحيط به، وهو يعالج هذه الغمرات، لينفس عن كربته، وعطف على زيد في ممارسته المحرجة، فقال: «وأجْدر به في مثلها ان يمارسها» انه وسام استحقاق وضعه الشاعر، على صدر زيد ولم ينس العباس قرة الذي كان يطاردهم في طعنه امام الشاعر وعمرو ومالك وعزرة. فهم الابطال ولولاهم للقي الجيش الدواهي، ولشد ما كثرت الجرحى فيهم، ولو مات من جرح منهم لشبعت السباع من لحومهم، ولكنهم كانوا متحصنين في الدروع، وان هم قتلوا منا رجلا واحدا شجاعا فاننا قتلنا منهم ستة كلهم ابطال رؤساء.

والشاعر يقول انه قتل من سليم رجل واحد، وابو عبيدة يقول انه قتل من سليم اثنان، ولعل المخرج من ذلك ان القتيل الثاني كان مثخن الجراح عند قول الشاعر القصيدة وتوفي بعد ذلك.

ويعود العباس في آخر القصيدة فيعتز بشجاعة قبيلته ومفاخرها، فهم قطب الرحى في الحروب، وهم الذين يشبونها بالحطب الجزل، وقد رجعوا من هذه الغزوة وقد اصبحت رماحهم محطمة من كثرة الطعن، وقد عادوا ممتطين أفراسهم، وكأن جميع من على هذه الأفراس أسودٌ وليس بعضهم.

لقد جمع العباس في هذه القصيدة مقاصد الحرب وعدتها، وأخبرنا عن المسافة البعيدة التي قطع خلالها القيافي والقفار، وسلك فيها الاودية والشعاب، مستوفيا تسعا وعشرين ليلة في سير هذه الغزوة، كما ان الشاعر أدخلنا في وسط المعركة، معربا عن ملابساتها، معترضا لمواقف الخيل وفرسانها، مبينا عن احداثها، معددا لاصاباتها، مسجلا لبطولاتها. وفي آخر القصيدة يعطينا الشاعر صورة حية عن قومه وقد امتطوا خيلهم بشموخ واستعلاء فقد

اثخنوا في العدو، وعادوا منتصرين، تعلوهم المهابة، وتصحبهم العزة.

ان العباس يفخر بقومه، لانهم غزوا زبيدا في عقر دارهم، وفيهم فارس اليمن عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وقد قتلوا ابطالهم، وأثخنوا فيهم، ورجعوا، ولم تقتل منهم زبيد الا قتيلا.

لقد جمع لنا العباس في هذه القصيدة الكثير من الصور الحربية الحرجة، ووصف المعارك المحتدمة، واظهرنا على ممارسة الخيل في الحروب وفرسانها، وأبان عن مهمات الفارس الصعبة في مثل تلك الاصطدامات، كما صور لنا مواقف الخيل في تلك الحرب بكل دقة وبراعة. وقصيدة العباس تقل روعة في أدائها عن قصيدة طفيل في مناحيها الفنية، ولكنها لا تقل اجادة في بعض مواقفها عن قصيدة طفيل.

اما عمرو بن معد يكرب الزبيدي المغزو من قبل العباس وقومه، فيبرق ويرعد، ويرد على العباس بقصيدة ليس بين ايدينا منها الا أربعة عشر بيتا، ويوعد العباس ويهدده، ويعلل ضعف قوة زبيد في هذه الغزوة لضعف خيلهم، لأنها قيدت من صعدة، ولقد نقلت لنا كتب الادب رواية عن ابي عبيدة في وصف هذه الغزوة قال: (غزت بنو سليم ورئيسهم عباس ابن مرداس مرادا، فجمع لهم عمرو بن معد يكرب، فالتقوا بتثليث في أرض اليمن بعد تسع وعشرين ليلة، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتل من كبار مراد ستة وقتل من بني سليم رجلان، وصبر الفريقان حتى كره كل واحد منهما صاحبه) انتهى كلام ابي عبيدة.

ان الرواية تبين صلابة المعركة، وقوة احتدامها، فكراهية كل فريق لقاء صاحبه معناها ان كل جانب استنفد قواه دون ان يدرك نصرا حاسما، ويجيب عمرو عباسا فيقول:

أعباسا لو كانت شيارا جيادنا	بتثليث ما ناصيت بعدي الاحامسا
لدسناكم بالخيل من كل جانب	كما داس طباخ القدور الكرادسا

بمعــترك شط الحبيــا تــرى به | من القــوم محدوسا وآخر حادسا
تســاقت به الابـطال حتى كأنها | حنى براهــا الســير شعثا بوائسا
فان ظهـور الخيـل ثَم حصوننا | ترى لبـني عصـم بهن تنـافسـا
ولكنهــا قيــدت بصعــدة مرة | فأصبحن ما يمشين الا تكاوسا
فيـومـا ترانـا في الخُـزوز نجرها | ويـومـا ترانـا في الحديد عوابسا
ويــومـا ترانا في الثريـد نبثـه | ويـوما ترانا نُكسِر الكعك يابسا
عمرت مجال الخيل بالبيض والقنا | كما عمرت شمط اليهود الكنائسا
وتسمـع للهنـدي في البيض رنة | كرنــة أبـكــار زَفَـفن عرائســا

ويقـول في آخرها وذكر سيوفا:

بهن قتــلنــا من نزار حماتهــا | فما ان ترى الا ذليــلا وتـاعسـا
أعبـاس ان تطمع فما ثم مطمع | فرم قانـعــا مما طلبـت وآيســا

لقـد هجم عمـرو على العبـاس بأسلوب مخيف، انـه يستعمل التهويل الاعلامي، ويجعل اعتذاره لضعف خيله وعدم تهيئتها للحرب، انها لو لم تكن كذلـك لداست زبيـد سُلبها بالخيل. كما تهشم كراديس العـظام للطبخ، ولرأيت قومك صرعى، والابطال تتساقى الموت، وان حصون زبيد الخيل، واعتمادها عليها، واهتمامهم بها، ولكن هذه الخيل جاءت من صعدة متعبة منهكة، فأصبحن لا يؤدين ما يراد، وهي احيانا تجلل بافضـل الاجلة، ويـوما تراها مجللة بالسلاح والحديد، ونحن في احـوال مختلفة لكثرة غاراتنا ومداومتنا على الحرب وعمرو يعمر الحرب بالسيـوف والرماح، ذلك انه فارس اليمن، وبطلها المغوار، وصاحب حربهـا المجـرب، وهكـذا شأن عمرو فهو يعرض عضلاته، ويبرز فنه الـدعائي، وفي البيت العاشر يبرز ايضا فنه الشعري، فهو يصف وقع السيوف على الخوذ ويجعل رنينها (كرنة ابكار زففن عرائسا) انها لقطة رائعة تمثل ذلك النغم المطرب، والموسيقا المفرحة في احتدام المعارك واصطدام الابطال.

ولا شك عندنا ان قصيدة عمرو قد فقد الكثير من ابياتها، ذلك اننا ندرك تباعد معاني ابياتها. ولم نورد بيتي الغزل فيها لعدم ارتباطهما بموضوعنا، ان ابيات عمرو تطلعنا على الأهمية العظمى للخيل في الحرب فكل اعتذاره علقه على الخيل، فعجزها هو الذي جعل سليها تقتل منهم وترجع وهي رافعة الرأس غير مكلومة، ومع ذلك يحتاط الشاعر، ويعدد عنايتهم واهتمامهم بالخيل، وانها لم تضعف من اهمال أو تضييع، ولكن من حروب صعبة، واماكن جبلية متعبة.

ويشتد ضرام الحرب بين القبائل العربية ويقع الصدام بين حيي وائل: بكر وتغلب، وتمتد الحرب قرابة اربعين عاما، وكانت تغلب في نصف هذه المدة هي المتغلبة، وكان زعيمها مهلهل مشتدا لاهلاك بكر أخذا بثأر أخيه كليب، وكان سادرا في عناده في حرب بكر، لا يردعه رادع، ولا يثنيه لوم، وحينما انهكت الحرب بكرا طلبت السلم فرفض مهلهل، وكان في بكر جماعة انعزل بهم رئيسهم عن القتال وقال: (لا ناقة لي فيها ولا جمل) ولما رأى زعماء بكر ألّا طاقة لهم بمواصلة القتال مع تغلب ذهبوا الى ذلك المعتزل، وهو الحارث بن عباد، وطلبوا منه أن يصلح بين تغلب وبكر، فأرسل ابنه بجيراً[1] الى مهلهل، وحمله رسالة يحث فيها مهلهلا على الصلح وقدم بجيراً فداء لهذا الصلح ان قبل به مهلهل كفاء لدم كليب.

وحينما قدم بجير على مهلهل استشاط غضبا وقتله، وقال: (بؤ بشسع نعل كليب) وعندما اخبر الحارث بن عباد بقتل مهلهل ابنه بجيراً قال: (نعم الابن الذي يصلح الله به ما بين بكر وتغلب) فقيل له: إن مهلهلا لم يرضه بواء عن كليب، وانما قتله بغيا وتعديا واستهانة، وقال: «بؤ بشسع نعل كليب» وعندها ثار الحارث ثورة الاب الموتور، الذي ذهب ابنه ضحية البغي والغرور، وقال قصيدته المشهورة التي اظهر فيها ثورته، واوضح لنا منزلة الخيل العظمى في هذه المعارك، اذ كرر طلب تقريب فرسه في معظم أشطار قصيدته، وقبل

(١) وقيل انه ابن اخيه

ان نورد قصيدته التي نراها ردا على قصيدة مهلهل بعد قتله بجيراً [1] ابن الحارث، نورد قصيدة مهلهل والتي ذكر فيها انتصاراته على بكر، ثم عرج على قتل بجير الذي هتك به بيوت بني عباد، وشفى غيظ صدره بقتله، ولكن عاد وقال (على ان ليس عدلاً من كليب) هو او همام بن مرة، ولكي تكتمل الصورة يحسن ان نورد قصيدة المهلهل كاملة قال:

أليلتنا بذي حسم أنيري
اذا أنت انقضيت فلا تحوري
فان يك بالذنائب طال ليلي
فقد أبكى من الليل القصير
وانقذني بياض الصبح منها
لقد أنقذت من شر كبير
كأن كواكب الجوزاء عود
معطفة على ربع كسير
كأن الفرقدين يدا مفيض
ألحّ على افاضته قمير
أرقت وصاحبي بجنوب شعب
لبرق في تهامة مستطير
ولو نبش المقابر عن كليب
فيعلم بالذنائب أي زير
ويوم الشعثمين لقرّعينا
وكيف لقاء من تحت القبور
على اني تركت بواردات
بجيرا في دم مثل العبير
هتكت به بيوت بني عباد
وبعض القتل أشفى للصدور
وهمام بن مرة قد تركنا
عليه القشعمان من النسور

[1] ــ « وقيل أنه ابن أخيه »

ينوء بصدره والرمح فيه
ويخلجه خدب كالبعير
قتيل ما قتيل المرء عمرو
وجساس بن مرة ذو ضرير
على أن ليس عدلا من كليب
اذا خاف المغار من المغير
على أن ليس عدلا من كليب
اذا طرد اليتيم من الجزور
على أن ليس عدلا من كليب
اذا ما ضيم جار المستجير
على أن ليس عدلا من كليب
اذا ضاقت رحيبات الصدور
على أن ليس عدلا من كليب
اذا خاف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب
اذا طالت مقاساة الأمور
على أن ليس عدلا من كليب
اذا هبت رياح الزمهرير
على أن ليس عدلا من كليب
اذا وثب المثار على المثير
على أن ليس عدلا من كليب
اذا برزت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلا من كليب
اذا هتف المثوّب بالعشير
تسائلني أميمة عن أبيها
وما تدري أميمة عن ضمير
فلا وأبي أميمة ما أبوها
من النعم المؤثل والجزور

ولـكـنـا طـعـنـا الـقـوم طـعـنـا
على الاثـبـاج مـنـهـم والـنـحـور
نـكـب الـقـوم لـلأذقـان صـرعـى
ونـأخـذ بـالـترائـب والـصـدور
فـدى لـبـنـي الـشـقـيـقـة حين جـاءوا
كـأسـد الـغـاب تـخلّـب للـزئير
كـأن رمـاحـهـم أشـطـان بـئـر
بـعـيـد بين جـالـيـهـا جـرور
غـداة كـأنـنـا وبـنـي ابـيـنـا
بـجـنـب عـنـيـزة رَحَـيـا مـديـر
كـأن الجـدي جـدي بـنـات نـعـش
يـكـب على الـيـديـن بمـسـتـديـر
وتحـبـو الـشـعـريـان الى سـهـيـل
يـلـوح كـقـمـة الجـبـل الـكـبير
فـلـولا الـريـح اسـمـع مـن بـحـجـر
صـلـيـل الـبـيـض تـقـرع بـالـذكـور
وكـانـوا قـومـنـا فـبـغـوا عـلـيـنـا
فـقـد لاقـاهـم لـقـح الـسـعير
تـظـل الخـيـل عـاكـفـة عـلـيـهـم
كـأن الخـيـل تـرخـص في غـديـر

ولعمري ان كان كليب شديد الجور على بكر فان مهلهلا كان اشد ظلما ، وأكثر طغيانا ، وأسرع بغيا من كليب في قتله بجيراً ، ان الحارث بن عباد لم يدخل في هذا النزاع المستمر بين قبيلة بكر وقبيلة تغلب ، وظل منحازا بمن معه ، ولم يتدخل في شيء من ذلك ، وحينما طلب منه قومه الاصلاح بين القبيلتين اجاب طلبهم ، وسعى في الصلح ، وأرسل ابنه ، فما الداعي لقتل ابنه ظلما دون ذنب وبلا حرب ، ودون ان يرضى به كفاء عن دم كليب؟ ولكنه البغي والبطر الذي ركب

مهلهلا وكان سببا في اهلاك قومه واجلائهم، وفراره طريدا شريدا بعد ان أسره الحارث ـ وهو لا يعرفه ـ واشترط له فك أسره إن دله على ملهلهل في قصة معروفة.

كان الحارث بن عباد ومن معه وهم نحو من مائة بيت لم تفرسهم الحرب، ولم يدخلوا مدة عشرين عاما من عمر تلك الحرب في أي نزاع من نزاعاتها، وعندما ظلموا هذا الظلم الشنيع، وأهينت كرامتهم فوق ذلك، قال الحارث قصيدته، وأنزل جميع ثقله مع قومه، وقاد بكرا، فانتصر انتصارا عظيما، وسقطت كفة تغلب، وظلت طوال عشرين عاما مقهورة منهزمة. ولنستمع لثورة الحارث وتهيئته للحرب ودفع الظلم والبغي عنه وعن قومه، قال:

كل شيء مصيره للزوال
غير ربي وصالح الاعمال

وترى الناس ينظرون جميعا
ليس فيهم لذاك بعض احتيال

قل لأم الاغر تبكي بجيرا
حيل بين الرجال والأموال

ولعمري لابكين بجيرا
ما أتى الماء من رؤوس الجبال

لهف نفسي على بجير اذا ما
جالت الخيل يوم حرب عضال

وتساقى الكماة سما نقيعا
وبدا البيض من قباب الحجال

وسعت كل حرة الوجه تدعو
يالبكر، غراء كالتمثال

يا بجير الخيرات لا صلح حتى
نملأ البيد من رؤوس الرجال

وتقر العيون بعد بكاها
حين تسقى الدما صدور العوالي

أصبحت وائل تعج من الحر
ب عجيج الجمال بالاثقال
لم اكن من جناتها علم اللـ
ـه وإني لحرها اليوم صال
قد تجنبت وائلا كي يفيقوا
فأبت تغلب على اعتزالي
واشابوا ذوابتي ببجير
قتلوه ظلما بغير قتال
قتلوه بشسع نعل كليب
إن قتل الكريم بالشسع غال
يابني تغلب خذوا الحذرانا
قد شربنا بكأس موت زلال
يابني تغلب قتلتم قتيلا
ما سمعنا بمثله في الخوالي
قربا مربط النعامة مني
لقحت حرب وائل عن حيال
قربا مربط النعامة مني
ليس قولي يراد لكن فعالي
قربا مربط النعامة مني
جد نوح النساء بالاعوال
قربا مربط النعامة مني
شاب رأسي وأنكرتني الغوالي
قربا مربط النعامة مني
للسرى والغدو والآصال
قربا مربط النعامة مني
طال ليلي على الليالي الطوال
قربا مربط النعامة مني
لاعتناق الابطال بالابطال

قربا مربط النعامة مني
واعدلا عن مقالة الجهال
قربا مربط النعامة مني
ليس قلبي عن القتال بسال
قربا مربط النعامة مني
كلما هب ريح ذيل الشمال
قربا مربط النعامة مني
لبجير مفكك الأغلال
قربا مربط النعامة مني
لكريم متوج بالجمال
قربا مربط النعامة مني
لا نبيع الرجال بيع النعال
قربا مربط النعامة مني
لبجير فداه عمي وخالي
قرباها لحي تغلب شوسا
لاعتناق الكماة يوم القتال
قرباها وقربوا لامتي درعا
دلاصا ترد حد النبال
رب جيش لقيته يمطر المو
ت على هيكل خفيف الجلال
سائلوا كندة الكرام وبكرا
وأسألوا مذحجا وحي هلال
اذا اتونا بعسكر ذي زهاء
مكفهر الاذى شديد المصال
فقريناهم حين رامو قرانا
كل ماضي الذباب عضب الصعال

نرى الحارث هنا يرد على المهلهل رد العارف الخبير والثائر المستطير،

انه يرد عليه دعايته المهولة بدعاية ذات تأثير، مستندة الى الحق والانصاف ومبنية على القوة والصرامة، مدخلا التأثير النفسي على مهلهل الذي اشاعه مهلهل بعد انتصاراته، وما تركه في نفوس ابناء بكر من رعب، مثبتا انه لا يريد الأقوال، بل يريد الأفعال، مثيرا الهمم، باعثا العزائم.

ولنسر مع الحارث في قصيدته، بدأ القصيدة بداية العاقل البصير، وأعلمنا أن جميع الأشياء مصيرها الى الزوال والاضمحلال، الا موجد الأشياء، اله الخلق جل وتعالى، وتبقى الأعمال الصالحة النافعة، ذلك أن الرب العظيم والعادل الحكيم، يبقيها ما بقي الزمان، ويثيب أصحابها عليها، والناس ليس بأيديهم شيء من الأمر، فهم لا يستطيعون ايقاف هذا الزوال، فهم ينظرون مبلسين لا يستطيعون حيلة ولا تغييرا، ثم يشرع في شرح قضيته، وعرض مصيبته في بجير، كما عرض مهلهل مصيبته في كليب، ولكن يختلف الأمران، فجرح الحارث جرح المظلوم بلا سبب، والمهتوك بلا جرم، وكيف لا يبكيه ويأمر أمه بالبكاء عليه، وهو فلذة كبده، وبطل الحرب العضال، وصاحب النجدات حين جولان الخيل، وهو بعد في ريعان الشباب، وعنفوان الفتوة، لقد كان بجير ملاذ النساء الحرائر حين تكشف الحرب عن ساقها، ويصرخن مستغيثات يالبكر، انهن يخرجن من خدورهن حين يتساقى الأبطال الموت غير شاعرات بخروجهن سافرات كالتماثيل الجميلة، في مثل هذه المواقف يعرف بجير ويكشف كربهن، ويروي رمحه وسيفه من دماء الأعداء الذين يريدون سبيهن.

ويخاطب الحارث بجيرا وهو في مثواه الأخير مثنياً عليه بما هو أهله (يابجير الخيرات) انها كلمة جمعت المحاسن الطيبة لذلك الابن البار العظيم من أب مفجوع، انه لا صلح يا بجير حتى نملأ البيد من هام الرجال، وتقر العين الباكية، والقلوب المكلومة، حينما تسيل الدماء من أعالي الرماح، ثم شرع الحارث في التأثير النفسي مستعملا الدعاية المجابهة، منبهاً بكرا بأنها لم تستعمل كل طاقاتها، ولم تحكم مراس حربها فيما مضى: (أصبحت وائل تعج من الحرب) انه يقول: ان

الحرب بدأت الآن بقوتها الجامحة، وضرامها المستعر، انه سيدير رحاها. وسيعد لها أهبتها، وسيصلي لظاها، انه سيقود بكراً بكل حنكة ودراية، وذلك لمراقبته لهذه الحرب الطويلة عن كثب، فهو يعرف مكامن الضعف فى تغلب، ويدرك ثغرات العجز عند بكر، وسيداهم تلك المكامن في تغلب، ويسد الثغرات في بكر، ان ثقله بمن معه سيجعل النصر الحاسم لبكر، وذلك لأن الحارث وقومه طوال هذه المدة منعزلون مستجمون، ثم يقف الحارث وقفة الرجل الكيّس الحكيم، ليبرز موقفه الحرج، وليبدي عذره في اشعال هذه الحرب الضروس، كأقوى ما تكون مرة أخرى، فيقول: يعلم الله انني لست راغباً في اشعال هذه الحرب، ولكني اليوم سأدخل معمعتها، فهو قد تجنب حرب ابناء قومه، كي يرجعوا ويصطلحوا، ولكن تغلب ادخلته الحرب كرهاً، فقد أشابوا رأسه، ومزقوا قلبه بقتل بجير، ـ رسول السلم ـ ظلماً وعدواناً، وبغير قتال، ولم يكفهم هذا القتل بل أهانوه، وأهانوا أباه، وجعلوه لا يساوي شسع نعل كليب (ان بِيع الكريم بالشسع غال) أي: رخيص، ويخاطبٍ بني تغلب مستغرباً هذا العمل الشنيع الغريب، فقد قتلوا بجيراً دون حرب، ودون اقتناع بدمه، وهو رسول، ثم اتبعوه اهانة وتحقيراً له ولقومه، ان هذا لم يحدث فيما مضى من الزمان، ولا يتصور العقل حدوثه فيما بعد، ويقفل الحارث باب المحاورة في البيت الخامس عشر، وكان الأولى أن يكون السادس عشر من القصيدة، وأعتقد أن الرواة مخطئون في ترتيبه فهو في هذا البيت ينذر تغلب ويحذرها من حربه، فانه قد شرب الموت الزؤام بفعلها الغشوم، وانه لا يريد الكلام، بل سيشرع في اعداد المعركة، ولنقف هنيهة قبل أن نقرأ استعداد الحارث، فهو يرد ـ في هذه القصيدة ـ على مهلهل قوله في قصيدته الماضية، ان مهلهلا كرر فيها عشرة أشطار (على أن ليس عدلا من كليب) وهذا التكرار من مهلهل تعظيم من مكانة كليب، واستهانة بمن سواه، وهو اقناع بياني على أن اعجاز الأبيات تظهر مدى هذا الاقناع.

والحارث هنا يريد أن يهزم مهلهلا في بيانه قبل أن يهزمه في

حربه، ان الحارث يسير على نهج الشاعر مهلهل ولكنه يريده بيانا مفعما بالأفعال، متدفقاً بالثورة، فهو يعيد الاشطار ويزيدها سبعة، ببيان مستفيض عن قضيته، والحارث في هذه الأبيات يقرر الاستعداد الشامل والتهيؤ الكامل للحرب، انه يعلن التعبئة التامة.

ولما كانت الخيل أهم عدة في الحروب، وأقوى قوة فيها، أولاها الحارث كل اهتمامه، وجعلها عنواناً لحربه الثائرة (قربا مربط النعامة مني) ولم يقل قربا النعامة مني. . انه يريد أولا تعهدها ورعايتها وتمرينها، والاطلاع على جميع شئونها، لتكمل رياضتها، وتستوفي مرانها لتصبح مهيأة للغزو، ولعل الحارث أدرك الثغرة التي هزمت منها بكر وهي ضعف خيلها بعد هذه السنوات المتواصلة في الحرب، فأراد أن يبين لهم أن الاهتمام العظيم بالخيل هو الموصل الى النصر، وأن التفريط في العناية بها هو السبب المؤدي الى الهزيمة، والحارث قائد محنك، لا يريد حرب تغلب الا بعد أن تأخذ قبيلته الأهبة الكاملة، والاستعداد التام، انه يصرح أن حرب وائل بدأت الآن، وكأنه يقول: ان حرب بكر فيما مضى لم تكن حربا بالمعنى الصحيح، وأنه سيلقح هذه الحرب العشواء، انه يريد أن يلقي الرعب في قلوب تغلب عامة، وفي قلب مهلهل خاصة، انه نفذ الى نقطة الضعف في نفس مهلهل ببيانه الساطع، وتصميمه الصارم، وأعلمه أن الحرب التي سيقودها ليست مثل الحرب التي ينتصر فيها مهلهل، وبعد تكراره الثاني لتقريب مربط فرسه يقول: (ليس قولي يراد لكن فعالي) وهذه صدمة أخرى لمهلهل، لأنه شاعر مجيد مبرز، ومع ذلك فقد تميز عليه الحارث في هذه القصيدة باشراق بيانه، وجمال أسلوبه، وصدق معانيه، ولكن الحارث لا يريدها مصارعة بيانية، وان كان قد انتصر فيها، ولكن يريدها غارات شعواء، وحروباً دامية، يكون فيها البطل الفعال، لا الشاعر القوال، وهنا يلمز مهلهلا. وفي التكرار الثالث يقول: (جد نوح النساء) انه تهويل وتصوير لتلك النساء اللواتي سيفقدن رجالهن من تغلب، ان البيوت التغلبية ستعج بالبكاء وهذا من التأثير النفسي الذي يوقعه الحارث في نفوس بني تغلب، انه يستعمل الدعاية المؤثرة

بمفهومها الحديث. وفي التكرار الرابع يبين عز، حاله، وعما أحدثته هذه المصيبة به، وقد أنكر حاله من حوله، وفي التكرار الخامس يدعو للاسراع في الغزو ليلا ونهاراً، وفي التكرار السادس يتململ من طول ليله، تشوقاً الى القتال، وتحرقاً الى الأخذ بالثأر، وفي التكرار السابع يتطلع الى التحام المعارك، واعتناق الأبطال، وفي التكرار الثامن يأمر بالعدول عن مقالة السفهاء، ويعود في ردهِ هنا الى طعن مهلهل في الصميم، ولا شك أنه يرد على مهلهل قوله: (هتكت بيوت بني عباد) وكأنما يقول له الحارث: بل هتكت بقتله بيتك وقبيلتك، ولكن الحارث أراد أن يحقر مهلهلا، فاعتبره جاهلا لا يدرك عواقب الأمور. وفي التكرار التاسع يتلهف الى القتال. فلن يسلوه قلبه، وفي التكرار العاشر يطلب تقريب فرسه عند هبوب الرياح، وفي التكرار الحادي عشر يُقيّم بجيرا كما قَيّم مهلهل كليبا، ان بجيرا بطل باسل يفك الأغلال، ويداهم الأبطال، وفي التكرار الثاني عشر يصف بجيرا بكريم الصفات، وهو بعد غض العود، يانع الشباب، وما الذي يمنعه من أن يسود كما ساد كليب، لو مد في عمره، وهو من منبع البطولة. وجرثومة الكرم، وقد توجته خلائقه بالجمال، وفي التكرار الثالث عشر يأنف من تحقير مهلهل لبجير، ويأبى الدنية، فليس الحارث من الذين يبيعون الرجال بيع النعال.

ويعقبها في التكرار الرابع عشر بلوعة الأب المفجوع، وحنان المحب المصاب، وثورة الشيخ الموتور (لبجير فداه عمي وخالي) ويختتم الحارث تقريب مربط النعامة بهذا العجز الرائع ليعلم مهلهلا وبنيّ تغلب بأنه سيضحي بنفسه، وبكل غال وعزيز، ليأخذ بثأر بجير، وبهذا التكرار يطلب الحارث تقريب فرسه لا تقريب مربطها، كما سبق، إنه تصوير حي لاندفاعه الى القتال، وهو التكرار الخامس عشر بصفته المبدلة (قرباها لحى تغلب... البيت) وقوله (شوسا) يعرفنا أنه لا يقصد فرسه وحدها، وتقريبها هذا لكي تدوس تغلب، وتصارع الأبطال، وفي التكرار المبدل السادس عشر يدعو لتقريبها مع تقريب سلاحه ودرعه، فقد حان اللقاء، وفي التكرار السابع عشر يطلب تقريبها مع السيوف

المرهفة الحداد ليوم التحام المعارك والنزال.

ان بطلنا ختم تكراره البياني الرائع بلباسه عدة الحرب، وأرانا أنه سائر الى المعمعة لنزال الأبطال.

واذا كان المهلهل ابتدع هذا التكرار البياني الساحر بجدارة بيانية، وقدرة بلاغية، فان الحارث سار فيه ببيان مشرق، وأسلوب ناصع، وبلاغة محكمة، وتعبير فائق، ولعل هذين الشاعرين أعطيا البيان الجاهلي في نصيهما سمواً في الأسلوب البياني المبدع، وقد توهم بعض المستشرقين لما ران على قلوبهم من الجهل، وما خامرهم من العجمة، فظنوا التكرار في بعض سور القرآن الكريم لا مكان له من البيان، وقد تبعهم بعض من كتاب هذا العصر الذين أعمى الله بصيرتهم.

ويعود الحارث بعد ذلك، فيذكر مواقعه وحروبه، انه يتلقى الجيوش التي تمطر الموت، وهو على جواد كريم عظيم — انه لا ينسى الخيل أبداً — ثم يقول سائلوا كندة الكرام والقبائل الأخرى التي جاءت لتغزونا بجيوش جرارة، وأبطال معلمة، وهم شديدو البأس، فقريناهم الرماح الصلبة، والسيوف الماضية.

لقد ختم الحارث قصيدته بقوة قبيلته، وصمودها في القتال، وذكر المعارك التي صال فيها وجال، لينبه قبيلته الى ماضيها العظيم، وصبرها الجميم، ومراسها المستديم، انه يشحذ العزائم، ويبعث الهمم، ويحث الأبطال.

ولا شك عندي أن قصيدة الحارث ملحمة فنية فريدة، دلتنا على أهمية الخيل العظمى في الحروب الجاهلية، كما أمدتنا بأسلوب بياني راق.

وتجد حرب ضروس بين عبس وذبيان وكان سببها المباشر سباق مشؤوم وسنرجىء ذكر هذه الحرب لنوردها عند التحدث عن السباق في فصول الكتاب الآتية ان شاء الله، وليس ضم تفاصيل هذه الحرب الى باب السباق لأن سباقها أشهر سباق عرفته العرب فحسب، بل لأن في هذا السباق أموراً كثيرة، تدلنا على كثير من النظم السباقية التي توصل اليها العرب، ومع ذلك فاننا سنذكر بعض الأشعار الحربية التي

قيلت في هذه الحرب، ونقتصر على ذكر ما قاله أحد فرسانها الأبطال، والذي أظهرت هذه الحروب المستطيلة بطولته بشكل بارز، وأمكنته من اظهار ملكاته الحربية والبطولية.

عنترة بن شداد

لقد كان عنترة بن شداد فارس هذه الحرب المبرز، وشاعرها المقدم . ولذلك سنقتصر على ما قاله في الخيل والحرب في هذه المعارك .

نشأ عنترة في بيئة جاهلية ظالمة ، كانت لا تعترف بأي كرامة لهجين مهما تعددت فضائله . أو سمت أخلاقه . وكان شاعرنا يتميز بصفات خلقية كريمة يقصر دونها كثير من زعماء تلك البيئة الجاهلية التي تعتز بهذه الصفات . وتحرص على التحلي بها . ولكن العادات والأعراف الجاهلية القبلية تمنع وصول أمثال عنترة الى السيادة مهما اكتملت فيهم أدواتها .

ولقد حز في نفس هذا البطل ما يلقاه من اهانة واهمال . بالرغم من شجاعته وخلقه الكريم . وتعرض الى متاعب ومصاعب . وأهمل مع أخوته لأمه . دون أن يكون معه الفرس الأصيل والعتاد القوي ومع ذلك استطاع أن يبرز شجاعته . وأن يعلم القبيلة بمكانته .

ويقتل مالك بن زهير غدرا بعد ان قتل قيس بن زهير ابن جذيمة ابن بدر بعد حوادث السباق . وتثور عبس بسبب قتل بطلها المغدور. فيقول عنترة:

فلله عينا من رأى مثل مالك
عقيرة قوم ان جرى فرسان

وكان اذا ما كان يوم كريهة
فقد علموا اني وهو فتيان

لقد أبدى عنترة أسفه الشديد على مالك . ثم تعجب من سبب قتله التافه . وأعرب في بيته الآخر عن اظهار بطولته المغمورة . ونلاحظ أنه قرن نفسه بأحد أبطال القبيلة الشجعان . معلنا بذلك مكانته التي يجب أن يعطاها . ولم يبد شيئا من بطولته الخارقة التي ظهرت فيما بعد . ونستنتج من ذلك ان مكانة عنترة البطولية أظهرنها حرب

داحس ، ورغم أن التاريخ العربي والأدبي أعطى عنترة مكانته الحقيقية ، وعده بطلا كغيره من الأبطال ، لكن الأساطير الشعبية جعلته بطلا خارقا ، ومرجع ذلك الى هذه الحرب .

لقد رمت حرب داحس عبسا في أتون حرب طاحنة ، وتنقلت من جوار قبيلة الى أخرى بعد أن تبادلت الهزيمة مع ذبيان ، وقتلت جميع من أمسكتهم بالهباءة من زعماء فزارة ، وكان هروبها خشية من أن تثأر ذبيان بعبس فتبيدها ، واستجارت ببني عامر ، ولكن هذا الجوار لم يطل ، والتجأت الى بني حنيفة ، ثم جاورت بني تميم ، ثم انتقلت عنهم ، وهي فيما بين ذلك في نزاعات وحروب مع هذه القبائل بعد أن تترك جوارها مع حربها المستديمة مع ذبيان .

ان بطلنا الشاعر كان في جميع هذه التنقلات الحربية بطل القبيلة المناضل ، ولسانها المدافع ، لقد تمكن بجدارة من أن يكون البطل الخارق في الحروب ، والفارس الشجاع الذي لا يدانيه فارس من عبس ، وبذلك استطاع ان يكون السيد الحقيقي ، في هذه المواقف أخذت القبيلة تنظر اليه نظرة اعتزاز وتكريم ، بعد أن رأته يلقى بنفسه في المهالك ليدافع عنها ، ويتعرض للردى لينفس عن فرسانها ، لقد ثبت عنترة في موقف من أحرج المواقف البطولية في احدى هذه الحروب ، فقد غزت عبس تميما ، فانهزمت عبس ، وطلبتهم تميم ، واضطرهم الطريق الى مضيق ، وتبعتهم كوكبة من الخيل ، فحامى عنترة عن الفرسان ، فلم يصب مدبر ، ورجعت القبيلة وهي تشيد بموقف البطل الفذ ، الذي لم يتزحزح عن المضيق حتى خروج آخر المدبرين ، ولكن هذا الموقف العظيم ساء رئيس القبيلة الذي كان من الشراد الأوائل ، وحسد عنترة على موقفه البطولي الرائع الذي كان يجب أن يقفه هو ، ولو وقفه لكان من الهالكين ، لقد أراد رئيس القبيلة قيس أن يسجل هذا الموقف البطولي بخبث فقال حين رجع الناس .. والله ما حمى الناس الا ابن السوداء ، وهكذا دفعه حسده الى الغض من شأن عنترة مع اعترافه بحمايته للناس ، ما ضره لو قال ابن شداد أو عنترة ، ولكنه الخبث والحسد ، أهذا موقف تكريم أم موقف

تجريح ؟
ان عنترة كان أكثر اتزانا ، وأرصن منطقا في جوابه ، فحينما بلغه قول قيس قال :

انـي امـرؤ مـن خير عـبـس مـنـصـبـا
شـطـرى وأحمـي سـائـري بـالمـنـصـل
ان يـلـحـقـوا اكـرر وان يـسـتـلـحـمـوا
أشـدد وان يـلـفـوا بـضـنـك أنـزل
حين الـنـزول يـكـون غـايـة مـثـلـنـا
ويـفـر كـل مـضـلل مـسـتـوهـل

ها هو يقرر الحقيقة في نسبه ، فيذكر عراقته النصفية ، ثم يبدههم بواقعه الصارم . ولا يريد أن يدخل معهم في مفاهيم أخرى . ان أصالة نصفه الثاني تظهره حقائق القوة ، وتبرزه مواقف البطولة . ويحميه السيف القاطع الذي حمى القبيلة لقد علم عنترة ان أي منطق غير هذا لن يقنع قومه لقد اعترفوا بمكانته حينما رأوا حاجتهم اليه وانه درع من أهم أدراع القبيلة ولذلك أشار عنترة الى رفع شطره الثاني بمنصله ، لقد اذعنت سادة عبس لزعامة عنترة الواقعية على مضض ، لقد تسنم عنترة زعامة القبيلة غير الرسمية بفضل تضحياته الجليلة ، وخلقه القويم ، وبطولته الفذة ، وهذه الحرب من أخريات حروب بني عبس . ولذلك رأينا هذا البطل في موقفه الفذ . وفرسان عبس تحاول الفرار . وهو يحمي ادبارهم ، وهو ثابت الجأش ، معرضا نفسه للموت حماية لقومه .

ان ممارسة عنترة لحرب داحس الطويلة المريرة أكسبته الفروسية الفائقة ، والطعان النافذ ، والجلاد المحكم ، مع ما فيه من شجاعة باسلة ، وصبر على الأحداث ، ومصابرة على الشدائد ــ ومع كل هذه الفروسية العظيمة لعنترة ، وبالرغم من أنه من أبطال العرب البارزين ، فان العرب لم تجعله من اعلام الفروسية الأول ، كعتيبة بن شهاب ، وعامر بن الطفيل ، وبسطام بن قيس ، الذين اعتبرتهم أفرس العرب .

لقد تمكن عنترة بدربته الحربية، وصبره وجلده وتضحياته، وخلقه الكريم، وعقله الرزين، من أن يحتل راية المجد في هذه الحروب العصيبة، وبقدر ما سر معظم القبيلة ما أحرزه عنترة ساء سادتها وقادتها، فقد رأوا ان ما حرصوا عليه من أمجاد قد انزاح الى عنترة، وهو شاعر فحل لا يشق له غبار، يسجل هذه الأمجاد، بقول خالد.

ولما رأى سادة عبس المتعصبون أنهم قد أنهكتهم الحروب، وتقاذفتهم القبائل، واضروا قومهم ببغيهم فيما بينهم، وتبينوا انهم قد خسروا ايضا الأمجاد التي ينتظرونها أمروا قومهم ان يرجعوا الى اخوتهم بني ذبيان، ويصطلحوا معهم، لقد حرض قيس بن زهير على ان ترجع بنو عبس الى اخوتهم بني ذبيان، حرصا على ألا يتزعم القبيلة عنترة، لأنها لو دامت في هذه التنقلات الحربية لاضطرت لترئيس عنترة عليها، لحاجتها الى رئيس مثله، وفي ذهابها الى ذبيان ستكون الزعامة لبني بدر، ثم لا تحتاج القبيلة في السلم الى رئيس محارب.

حث قيس بن زهير قومه على الذهاب الى اخوتهم، وطلب الصلح منهم، ولم يذهب مع قومه، بل قال: لا استطيع ان تنظر الى امرأة من هوازن وقد قتلت أباها، أو أخاها أو زوجها، وذهب الى عمان، حيث لا تناله سيوف هوازن.

وبعد ان ينتسب وينتصف في بيته الشعري المذكور، يتبعه ببيت يصف فيه الواقعة الفريدة، ويبين موقفه الحرج النادر، فان يلحقوا القوم فهو الكرار الذي يتلقاهم، وان يستلحموا فهو الشداد الذي يفك هذا الالتحام، واذا ما تداخل الفرسان، واحتدم الصدام، واعتنق الأقران، وتضايق المقام، فان عنترة هو الملقى نفسه في هذا المعترك الضنك.

وفي الشطر الأول من البيت الثالث يبين عنترة المواقف الحرجة في عراك الابطال والتزام الاقران، فهو غاية الغايات، ومنتهى القتال، ومكمن الخطورة، وفي الشطر الأخير يبدأ عنترة بالغمز من قيس والبادي أظلم، من هو المضلل، ولماذا جاء بهذه اللفظة التي لا يحتاج لها الموضوع الا اذا كانت رمزا لما وراءها، وما موضع ادخال التضليل، ولكن ما يزيل

هذا التساؤل أن قيسا كان من دهاة العرب، وأن عنترة أراد أن يقلب هذا الدهاء تضليلا، وأن يضرب قيسا في أقوى صفة له. وأن يشير اليه بغطاء خفي، فيشير الى العموم وهو يريد الخصوص. فليس هناك الا مضلل واحد، هو قيس الداهية، ولحذق عنترة البياني. واتزانه العقلي قال: (كل مضلل) وما هناك الا واحد، لقد ألصق عنترة الفرار بقيس، وقلب دهاءه تضليلا، ورماه بالضعف.

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل
واذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيت خيرا من معم مخول
والخيل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل
اذ لا أبادر في المضيق فوارسي
أو لا أوكل بالرعيل الأول

ويتتبع عنترة نقائص قيس وعيوبه من طرف خفي. فهو يذكر ايثاره ومكارم خلقه، ويعرض بقيس، لأن قيساً كان أكولا شرها. وفي البيت التالي يذكر المواقف العصيبة التي يحجم فيها الفرسان عن الاقدام، ويتبادل فيها الشجعان النظرات من شدة الهول. ووعورة الاقدام، عندها يلفى عنترة خيرا من ذلك المعم المخول، من هو هذا المعم المخول؟ انه قيس، وما قيمة هذه الاصالة النسبية؟ هلا كان خيرا من ابن السوداء؟ لا، انه لم يستطع ان يكون مثله. بل كان ابن السوداء خيرا منه، أراد قيس أن يهين عنترة في هجنته، فبزه عنترة في نسبه، وهجنه في نفسه، لقد كان تعريض عنترة تعريضا عاما مبطنا بالخصوصية.

ويخرج عنترة في البيت السادس للاعلان عن فروسيته وجدارته وشجاعته، وان الخيل وفوارسها قد تأكدت من موقفه البطولي، وقد علمت تضحياته وصموده، وأنه فرق جمع الأعداء بساعده القوي،

وسيفه الصارم .

وفي البيت الأخير يصف نفسه وهو لا يريد أن يصف الا قيسا، وانه يقول: انني لا أسارع بالمبادرة بالخروج قبل الفوارس، وقوله فوارسي لا يقولها الا رئيس القوم، وعنترة يريد أن يدخل في نفس السامع هروب قيس في طلائع الفارين، دون أن ينظر من خلفه من فرسانه أهلكوا أم نجوا، ويعرج عنترة في الشطر الأخير، وبأسلوبه الفني الخاص، فهو يتكلم عن نفسه بأنه لا يتوكل بالرعيل الأول من المنهزمين، وهو بهذا القول يطعن قيسا في الصميم، فهل مهمة رئيس القوم ان يكون مع أول الفارين ليلملمهم، ويترك فرسانه المجالدين في أحرج المواقف، وأشدها ضنكا ؟

فشخصية عنترة تنبئنا بأن أباه أولاه كل رعاية وتأديب، ولولا هذه العناية لما استطاع عنترة أن يكتسب هذه الفضائل .

شب عنترة في هذه البيئة العربية الصارمة، وتربى على الاباء والفضيلة، وحرص على أن يكون مثالا للخلق السجيح، ونموذجا لمحاسن الشيم، ونشأ قوى البنية، شجاع النفس، بعيدا عن الدنايا والرذائل، ومارس بعضا من الحروب، فبدت نجابته وجرأته، وظهر كفارس من فرسان عبس لم تحكمه التجارب بعد، ولم يتمكن من امتلاك العتاد الحربي القوي، والخيل الاصيلة التي هي من عدة الأبطال الفوارس. وهال عنترة أن يرى أمه وأخوته في شظف من العيش، فراح ينهب ابلا ليعين هذه الأم الرؤوم، وما ان تم له ما أراد، وجمع لهم ما يوفر لهم المعيشة الطيبة من الابل، حتى هجم عليهم أحد فرسان العرب البارزين ــ وهو عويمر العقيلي ــ وسلبهم ابلهم، وهب عنترة فلم يجد الا فرسا هزيلا عند اخوته، فامتطاه ليرد الابل، وتلقاه عويمر العقيلي، وحاول عنترة أن يقاتله، فوجد لدى هذا الفارس حنكة وفروسية لم يعهدها من قبل، وأين عنترة في شبابه من عويمر العقيلي الذي حنكته التجارب الحربية، وعرف بمهارته الفروسية الفائقة، وتحته فرس من أنجب الأفراس العربية، وهو بشكته وكامل أهبته . ورأى عنترة نفسه أمام بطل مجرب شجاع، ومحارب قديم،

فتيقن عنترة انه لن يستطيع الصمود، بل سيكون طعمة لرمحه وسيفه، وهرب عنترة بفرس اخوته الهزيل، تاركا ابله وابل أخوته، والخيبة تملأ جوانحه، والأسى يملك نفسه، والوجل يسيطر عليه، لقد تيقن عنترة بعد هذه الحادثة الأليمة أن بينه وبين البطولة الخارقة مراحل يجب أن يتخطاها، واستعدادات يجب أن يهيئها، وتيقن أيضا أن مجتمعه الفوضوي لا مكان فيه لغير القوي.

نشأ عنترة في بيت شداد، احد سادات بني عبس من الدرجة الثانية حسب الأعراف الجاهلية، وتربى تربية عربية خالصة.

وكان شداد فارسا من فرسان عبس المعدودين، وكان شديد الاهتمام بخيله، فهو يقول في فرسه جروة:

فمن يك سائلا عني فاني
وجروة لا ترود ولا تعار
مقربة الشتاء ولا تراها
وراء الحي تتبعها المهار
لها بالصيف اصبرة وجل
ونيب من كرائمنا غزار

ها هو أبو عنترة يخبرنا أن فرسه لم تعد للتوليد مع اصالتها وكرامتها انه محراب لا يأمن الصريخ حتى يكون فرسه على أهبة الاستعداد للحرب، وهي قبل ذلك لا تبعد عن البيوت للرعي، ولا تعار تحسبا للطوارىء العاجلة، وتحبس لها النوق ويحفظ لها الطعام.

لقد كانت أم عنترة زبيبة الخادم كثيرا ما تترك عملها لتسرع الى جر طفلها الذي يتجه حبوا الى مربط فرس أبيه خوفا من أن يكون عرضة لركلة من تلك الفرس، وكان الطفل يرفع نظره الى ذلك الحيوان الجميل ويتجه اليه حبا له وتعلقا به، وترعرع عنترة في هذا البيت الذي اعتبر الفرس أحد أفراده المميزين، وعنى شداد بتربية ابنه تربية فاضلة صارمة، فألزمه رعاية الابل والخيل، ودربه على

الفروسية، وحبب اليه الفضيلة، وغرس فيه مكارم الخلق، ويجب ألا نلتفت الى بعض الروايات الواهية التي تقول: ان أباه اعتبره عبدا.

ويتذكر حذر أبيه ويقظته وانتباهه الدائم لعدته الحربية، وحرصه الشديد على ايثار فرسه بلبن النوق، وحرمان اولاده وأهله منه مع حاجتهم الشديدة اليه، ولام عنترة نفسه على ما كان يلوم به أباه في نفسه من هذا الايثار لفرسه، وعلم ان الخيل هي العدة القوية في الحرب.

وراح عنترة بعد هذا الموقف المؤلم المخزي ينفس عن كرباته، ويبرر هروبه وانهزامه، ويلقي تبعة ذلك على اخوته الذين أجاعوا جوادهم وأهملوه، وقال: (ابني زبيبه ما لمهركم) الأبيات التي ذكرناها في أول فصل من الكتاب.

لقد صمم عنترة بعد هذه الحادثة الأليمة أن يتجه بكليته الى الاستعداد والقوة، وألا يلتفت الى أمه وأخوته ولو ماتوا جوعا، وان عليه أن يعد نفسه اعدادا فروسيا، وأن يأخذ بالتدريب الحربي الشاق، لقد كانت هذه التجربة المريرة التي مر بها عنترة عونا وحافزا له على البروز بالفروسية، وتمكينه من القدرات القتالية، واتجه عنترة بكل ما لديه الى ان يمتلك الفرس القوى الأصيل، فهو العدة القوية، واعتبر بيقظة أبيه وتحسبه للمباغتة في منع فرسه من الطرق، وكان عنترة يطمع في توليدها ليأخذ منها مهرا، ولما في التوليد من منفعة لأبيه، ويعجب من امتناع أبيه عن ذلك. لقد أخذ عنترة درسا جعله يستوعب تحسب أبيه للطوارىء، وحذره الشديد من المفاجآت الخطرة، وزاد عنترة حذرا على ما استوعبه وتمثله من ماضي أبيه أن صدم صدمة كادت تودي بحياته.

وقرر عنترة أن يحوز الفرس المطلوب، ولكن عنترة بعد ما حدث له أصبح أكثر حذرا من أبيه الذي لا يريد فرسه أن تنتج تهيئا للظروف الحرجة، وانتظارا للغزوات المباغتة، فها هو عنترة يتحاشى أن يمتلك فرسا أنثى خوفا من أن يتغافله اخوته فينتجوها فتكون في بعض الأوقات غير صالحة للغزو، ويأبى أن تكون خيوله الا فحولا، لقد

أشرب عنترة الحذر، وأولع بالحيطة، والتزم باليقظة، فلم يصطنع لحربه غير الأفراس الذكور، فخيل عنترة التي نعرفها في حربه كلها فحول ـ الأبجر ـ الأغر ـ الأدهم .

لقد توصلنا الى الظروف والعوامل التي جعلت عنترة يصل الى الاكتمال الفروسي، والنضوج الحربي، والتمكن القتالي، والاستعداد البالغ لأدوات الحرب وعدتها، ولنستمع الآن لوصف عنترة لجواده المعد للمعارك قال:

ولرب مشعلة وزعت رعالها
بمقلّص نهد المراكل هيكل
سلس المعذر لاحق أقرابه
متقلب عبثاً بفأس المسحل
نهد القطاة كأنها من صخرة
ملساء يغشاها المسيل بمحفل
وكأن هاديه اذا استقبلته
جذع أذل وكان غير مذلل
وكأن مخرج روحه في وجهه
سربان كانا مولجين لجيأل
وكأن متنيه اذا جردته
ونزعت عنه الجل متنا ايل
وله حوافر موثق تركيبها
صم النسور كأنها من جندل
وله عسيب ذو سبيب سابغ
مثل الرداء على الغني المفضل
سلس العنان الى القتال فعينه
قبلاء شاخصة كعين الأحول
وكأن مشيته اذا نهنهته
بالنكل مشية شارب مستعجل

فـعـلـيـه اقـتـحـم الهـيـاج تـقـحـمـاً
فـيـهـا وانـقـض انـقـضـاض الأجـدل

ولا يخفي على البصير ما في هذه الأبيات من ركاكة وحشو على الرغم مما فيها من شاعرية وأسلوب جيد، كما ندرك أن قائل هذه الأبيات فارس ناشىء لم تنجذه الحرب بعد بمراسها، ولم يتعرف على المزايا الخفية للخيل، فهو يهتم بمظاهر القوة فيها، فيصفها وصف الشاعر المعجب، ويبعد عن وصف الفارس الخبير، ويتصنع التهويل المتكلف، فجواده طويل القوائم مرتفع شامخ، ذو ضخامة، ضامر الأقراب، مرتفع القطاة صلبها، كأن عنقه جذع مشذب، وكأن مخرج انفاسه مدخلان لغار ضبع، وهكذا يتعسف التشبيه والاغراق في المبالغة كما تكلفه فيما قبله (أذل وكان غير مذلل) في تصوير امتداد العنق، ويصف في البيت السادس فيما أوردناه متني فرسه بمتني ذكر الوعل، ويأتي بحشو ردىء فيقول (اذا جردته ونزعت عنه الجل) أليس التجريد كافياً عن قوله ونزعت عنه الجل؟، ويصف حوافر فرسه باكتمال التركيب، وكأنها من الصخر، وان باطنها صلب، ثم يصف الفرس بأنه ذيال، وكأن شعره رداء على غنى مفضل، ثم يذكر أنه سهل الانقياد الى القتال، وهذا وصف بارد لا يقوله فارس متمكن، ثم يخرج الى التشبيه الغث مع الوصف الجيد (فقبلاء شاخصة) تصوير حسن أما قوله (كعين الأحول) فهو انحدار ضعيف، فالشخوص والقبل في عين الفرس فيه حدة وشموخ، والحول فيه ضعف وفتور، وفي البيت قبل الأخير يخطىء شارح ديوان عنترة، فيفسر (النكل) بالقيد وغاب عن بعض الشراح لديوانه (١)، ان النكل لها معنى آخر وهو اللجام، وهذا ما قصده عنترة، اذ أن الجواد لا يمكن نهنهته بالقيد. ووصف عنترة في البيت وصف شعري رائع.

وفي البيت الأخير يعود عنترة الى التكلف والحشو، (فتقحماً) جاءت حشواً مقحما، والشطر الأخير وان أجاد فيه الوصف الا أنه في غير موضعه بعد أن ذكر الاقتحام، ولم نورد هذه القطعة، ونشير الى مواطن الضعف في فروسية عنترة وشعره، لنغض من شأنه، أو نخفض

(١) كرم البستاني «دار صادر»

من مكانته الشعرية التي ضارع فيها الفحول، وانما كان قصدنا أن نتعرف على مدارج شعرائنا الفرسان في طريق تسنمهم قمم البطولة والفروسية، وامتلاكهم ناصية القول، وما يلاقونه من أهوال، وما يواجهونه من متاعب، وما يقف في طريقهم من مصاعب، وما يجب أن يمتلكوه من قدرات ودراية، وما يحوونه من خبرات وتدريب، وما اكتسبوه من حنكة وتجارب، وما يتصفون به من ايثار وتضحية ومعرفة وثبات وصـــبر.

ان سبيل القمم شاق وعر، تكتنفه العقبات، ولا يستطيع السير فيه الاذووالهمم التي لا تعرف الكلل، والنفوس التي لا يضنيها النضال.

صابر عنترة في طريق القمم الشائك حتى وصل، وما كان له أن يصل، لولا صفة من أبرز صفاته، وحرب داحس، أما الصفة فهي الصبر الذي عرف به، ولعل ما روى عنه في قصة الشاب الذي سأله عما أوصله المكانة المرموقة في القتال، وان عنترة طلب من الفتى أن يعض أصبع عنترة، وأن يدخل الفتى اصبعه في فم عنترة ليعض كل منهما اصبع الآخر، وفي أثناء العض صرخ الفتى، وأطلق اصبع عنترة، فقال البطل: يا ابن أخي لو صبرت قليلا لكنت البادىء، بهذا كنت أتغلب على الأبطال، ونحن نشك في صحة هذه الرواية، وهي وإن لم تصح تمدنا بما عرف عنه من صبر.

وأما حرب داحس فقد ألقته في أتونها، لتصهره بنيرانها، وتعركه بأحداثها، وتدربه بمعاركها، وتنجذه بقتالها، وأنّى له أن يحوز تلك التجارب الطويلة المدى، وينال جميع الخبرات الحربية، ويصاحب المعارك الحربية الطاحنة طوال أربعين عاما لولا حرب داحس.

لقد دخل عنترة هذه الحرب كفارس لا يؤبه له في قبيلته، وما أكثر الفرسان والأبطال في قبيلة عبس، وخرج منها ولا يشار بالبنان الا له، ولا يذكر في الحرب الا هو، ولا يذكر موقف الا كان سيده وصاحبه.

ولنستمع لعنترة ــ بعد تجاربه الطويلة ــ وممارساته لحروبه العصيبة، وتمكنه من امتلاك عنان الفروسية والبيان،يقول في معلقته

يصف احدى المعارك ونحن نقتصر منها على ما جاء في الخيل:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... ان كنت جاهلة بما لم تعلمي

اذا لا أزال على رحالة سابح ... نهد تعاوره الكماة مكلم

طوراً يجرد للطعان وتارة ... يأوى الى حصد القسيّ عرمرم

يخبرك من شهد الوقيعة انني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ألست ترى معي أن عنترة قد سما في فروسيته وفي شعره،وأنه صار خبيراً بعد هذه الممارسات والتجارب، وأصبح بارعاً في الشعر، وان تلك الضحالة المعرفية بالخيل قد كشطت، وحلت محلها خبرة متمكنة، وان ألفاظه المفخمة الجوفاء قد اجتثت، وحشوه الغث لا وجود له. لقد صفا شعره، وراق بيانه، ودقت معانيه، وامتاز أسلوبه، فهو قد امتلك ناصية الخيل بفروسيته، وناصية القول بفنه.

ان قوله (هلا سألت الخيل) لفتة ذات أبعاد فنية وفروسية، فهو لا يطلب منها أن تسأل فوارس الخيل وأصحابها تأدباً مع مكانة محبوبته، وفي التوجه الى الخيل وأصحابها بالسؤال ما ينبىء عن خبرة حقيقية، وادراك واف لمكانة الفروسية، ومكامن القوة والضعف فيها، ثم هو يريدها أن تستخبر بنفسها عن مواقفه المشرفة كواقع تظهره الأحداث، فهو لا يريد أن يتكلم عن نفسه، وانما يريد أن يسجل مواقفه، ان لهجة شاعرنا الفارس أضحت لهجة البطل الصادق الواثق الذي يبني أقواله على واقع ملموس لا تهويل فيه ولا تطبيل. وفي الشطر الثاني نحس ببعض الحشو، ولكنه حشو مقبول سوغته تلك المداعبة لمحبوبته (ان كنت جاهلة بما لم تعلم).

وفي البيت الثاني يتجه عنترة الى وصف فروسيته بالواقعية الصادقة، فهو على ظهر جواده الشامخ، الذي أحاطت به الفرسان، وأثقلته الجراح، وتلاحظ هنا أنه أولى كل اهتمامه لجواده، ونظر اليه

نظرته الى المقاتل الشهم، الذي يتحمل الآلام، ويكابد المصاعب، ثم يقول عنه: انه تارة يعرض للهجوم، وتارة يتعرض للسهام، فهو طود صامد، لقد بين عنترة فضل هذا الجواد وصبره، وأنصفه في اظهار تحمله وجلده، وانبأنا أنه هو سده الواقي وحصنه المنيع، وعنترة هنا يعترف بفضل جواده الذي يقاسمه الفروسية، ويناصفه الأهوال.

ولقد بدأ واضحاً أن البطل المغوار يتكلم عن خبرة فروسية نادرة، كما نلاحظ أنه لم يتكلم عن نفسه، وانما كان حديثه عن جواده، ثم يتجه في البيت الأخير الى الأخبار الخارجي الذي هو واقع مسلم به ــ وهي القيم ــ فلم تعد عنده الفروسية قتالا وانما مع ذلك مثلا، ولذلك بدأ بصفة خلقية مثالية، وأبان أنه مرتفع عن الأغراض الدنيا متصف بالتضحية والايثار (أغشى الوغى وأعف عند المغنم).

لقد تغيرت نظرة الفروسية لدى عنترة، فأصبح يراها مزايا ومكارم خلقية أولا، وهي التي يجب أن يعتز بها البطل الفارس.

ويقول في معلقته عن الخيل أيضاً:

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى
اذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
في حومة الحرب التي لا تشتكي
غمراتها الأبطال غير تغمغم
اذ يتقون بي الأسنة لم أخم
عنها ولكني تضايق مقدمي
لما رأيت القوم أقبل جمعهم
يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره
ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه
وشكى الي بعبرة وتحمحم

لـو كـان يـدري مـا المـحـاورة أشـتـكـى
ولـكـان لـو عـلـم الـكـلام مـكـلـمـي
ولـقـد شـفـا نـفسي وأبـرأ سـقـمـهـا
قـيـل الـفـوارس: ويـك عـنـتـر أقـدمـي
والخـيـل تـقـتـحـم الخـبـار عـوابـسـا
مـن بين شـيـظـمـة وأجـرد شـيـظـم

لقد ذهب ذلك الانتفاخ الفارغ، وبدأ عنترة جم التواضع، بعيد النظر، حكيم الرأي، واسع التفكير، متزن العقل، يتحرى الحقيقة، ويحرص على الصدق، لقد تناسى كل التجارب التي مرت به، وتجاهل جميع الخبرات التي مارسها، ليعلن عن حفظه الوصيه من عمه، إنه كشف عن أصالة تربيته الفروسية، وعن جذور واقعه القتالي، وعن أعماق نفسيته الحربية.

ان عنترة في هذا الموقف الحرج تمثل حذر أبيه وأجداده، وتذكر نصيحة عمه، وحافظ على الأخذ بها، مبيناً عن عراقته الفروسية، ناسباً الفضل لأهله، ويستجمع عنترة جميع هذه الرواسب التي تأصلت في شخصيته الفروسية في معمعة الحرب وغمراتها، وعند احتدام الأبطال وعراكها، في هذه الساعة العصيبة التي لا تستطيع فيها الأبطال التكلم أو التفكير الا في الواقع المعركي، نرى عنترة رابط الجأش، كامل الطمأنينة، يحكم أمره، ويستطلع مكامن فروسيته البعيدة الجذور، ليجمع الى حذره حذر آبائه، وليستفيد من نصائحهم لتكتمل قواه الحربية.

ثم يعرج في البيت الثالث الى صفة موقفه وموقف أصحابه الفرسان، ويحدثنا بلهجة البطل الصادق الحذر، فأصحابه يلوذون به ليتقوا الرماح المشرعة اليهم، آملين بهجومه الذي يفرج الكرب، منتظرين اقدامه الذي يفرق الأبطال، ولكن عنترة لا يريد الا أن يصف الحقيقة ويذكر الواقع، انه استطاع الصمود، ولكنه اعتذر عن التقدم، لقوة الهجوم، وحرج الموقف، واندفاع الأعداء، انه لم يجبن ولم ينكل، ولكن لا سبيل الى التقدم، انه اعتراف جميل بقوة أولئك

المهاجمين، وبطولتهم التي جعلت عنترة وفرسان عبس لا يستطيعون التقدم، ان عنترة ومن التف حوله أصبحوا طوداً شامخاً للصمود، ولولا صمودهم لولت القبيلة منهزمة هاربة، ولم يكن عنترة الا صادقاً فيما نقل من هذا الصدام العنيف.

ثم يشرع عنترة في شرح تفاصيل هذه المعركة، فيقول في البيت الرابع انه لما رأى القوم يلوم بعضهم بعضا كر راجعاً، لينقذ القوم من الارتباك الذي وقعوا فيه، وكاد أن يسبب الهزيمة، وكانت كرته عزمة أرجعت المقاتلين الى صفوفهم، وجعلتهم يتكتلون حول عنترة، ويطلبون منه التقدم، لتنقلب الهزيمة الى نصر ساحق، وكانت تلك الصرخات التي يطلقها الفرسان الى عنترة بالاقدام حينما صعب الصمود تحرك في نفس عنترة مشاعر التضحية والفداء، فقد جعلته فرسان عبس بطلها المبرز، وفارسها المقدم، ان دعواتهم التي أثارت مشاعره، وهزت كيانه، قد دفعته الى أن يحاول القذف بنفسه الى الموت، ليفرج الغمة، ويزيل الظلمة، ويفتح الثغرة في صفوف الأعداء، ولكن كيف ذلك والرماح مشرعة، وصفوف الأعداء في تماسك محكم، وتراص مترابط.

لقد هم عنترة أن يكون كبش الفداء، وقد سيطر على عنترة في هذا المأزق حذره المتأصل، وبرزت بصيرته في الحرب، وخبرته الفروسية، وتملكته نوازع تربيته الانضباطة فحكم العقل، ونظر في العاقبة، وتبصر في أمره، ووازن بين تضحيته وخسارة قومه في فقده، فصمم على الثبات، غير أن لا سبيل الى التقدم، وأصم أذنيه عن كل النداءات، وان كان حز في نفسه الا يجيبها، لقد وصف عنترة الدعوات الموجهة اليه مع شرح الحالة التي كان فيها، ووجه الانظار بأسلوب فني مبدع الى ظروف المعركة الخطيرة بتصوير ما يعانيه جواده من هجوم الأعداء، ونقل عنترة الصورة بتجسيم فني رائع بحيث جعلنا نرى تلك الرماح الموجهة الى جواده، ونحس بالأسنة وهي تنال منه، وربط بين دعوات القوم والرماح التي تكاد تقتلع جواده، ليبدي عذره في استحالة التقدم الذي يريده القوم، وهو مع ذلك لا يكف عن المحاولات التي يريد أن ينفذ منها الى ثغرة تتيح له التقدم

والانطلاق، فقد رمى بنحر جواده ولبانه في نحر الأعداء، ولكن دون جدوى، فقد كانوا أبطالا أقوياء أشداء، لم تجد معهم هجماته العنترية، وتحمل ثقل هذه الهجمات جواده الأصيل، وهنا يظهر صدق عنترة، فقد اعترف بأنه عرض جواده للخطر بأكثر مما عرض نفسه، ولكي يرينا آثار الهجمات في جواده فانه يصوره لنا وقد اكتسى بالدم، وتثور في نفس عنترة عوامل الصدق، ودواعي الحق، وتعتمل في ضميره جوانب الانصاف، فيرى أنه ظلمه، حيث جعله سداً مانعاً وقي به نفسه وقد حمله كل هذه الطعنات، ووسمه بجميع تلك الجراحات، وعرضه لكل هذه الأهوال والمخاطر، ليسلم هو، عندما التفت الجواد المناضل الى فارسه، والألم يعصر عينيه، والجراحات تهد جسمه، والدم يغطي جسده، ولسان حاله يقول: أهكذا تفعل بي؟ (وشكى الي بعبرة وتحمحم) ثم يقف عنترة مع جواده المفضل موقف المحامي المدافع عن جواده أمام نفسه، فيبيح للأدهم أن يحاكمه، وأن يحاوره ويشكوه، ولكنه لا يفهم المجادلة، ولا يستطيع التكلم، ولو استطاع لابدى حججه، وأظهر الحيف الذي وقع عليه، ولانتصر على عنترة وفلجه بواقعه الحق، وتحمله الأليم، وجلده العظيم، ونظر الفارس المغوار الى فرسه وهو يقول في نفسه انك على حق، فمعذرة يا أدهم فاما أنا أو أنت.

ويكشف لنا هذا الحوار الجميل الطيبة المتمكنة من نفس عنترة، والأمانة الضميرية المخلصة، التي تظهر الحقائق وتحرص على الانصاف، لقد أسند بطلنا معظم انتصاراته الصمودية في هذه المعركة الخطيرة الى جواده الأدهم، وأطلعنا ببيانه المشرق وتفصيله البليغ على جميع تضحيات هذا الجواد الصابر المكافح.

ان الاحساس الرقيق، والعطف الانساني المفعم بالتقدير، الذي أبداه عنترة نحو فرسه، لما يدلنا على ما في نفس العربي من سمو خلقي، وما في طبعه من مثل انسانية عليا.

ولئن اضطر البطل الفارس الى ظلم الأدهم، وتعريضه للمهالك في الواقع، فقد انصفه في نفسه، واعترف بفضله، وسجل تضحياته في

شعر خالد.

ويعود عنترة الى نفسه ليخفف آلامها، ويبرىء أسقامها، فقد شفى واشتفى، فالأكليل الشرفي الذي تقلده أزاح تلك الغمامة التي تصاحبه، ومحاكل الرواسب المقيتة في نفسه، ألا وهو اعتراف فرسان عبس وأبطالها بفضله ومكانته التي طالما غمزوها، فدعوتهم اليه بالأقدام في أخطر المواقف وأشدها حرجا دليل على نيله المرتبة العليا فيهم شاءوا أم أبوا.

ويأبى شاعر الفروسية قبل أن يختم ذكر الخيل في معلقته الا أن يصور لنا لوحة عن الخيل وهي تدخل القتال في أرض المعركة، مدججة أبطالها، عابسة أوجهها، قد اختيرت في انسابها، وقد أنتقيت في نجابتها ذكوراً واناثاً.

أراد عنترة بهذه اللوحة ألا تفارق مخيلته صورة الخيل في المعارك الحربية، فقد أثرت في نفسه منذ نعومة أظفاره، فولد حول مرابطها، ودرج بين أيديها وأرجلها، وصاحبها في صباه، ورافقته في قتاله، وقاسمته آلامه ومصاعبه، وكانت أبرز عامل في اظهار شخصيته الفروسية.

لبيد بن ربيعه

ولكي نلم بتعدد صور المعارك الحربية عند العرب، فلابد من ذكر الغارات الليلية، التي يكون همّ المهاجم فيها المباغتة، لكي يكتسب النعم، ويقتل من حولها، ويسرع في الرجوع الى مأمنه، لينأى عن سطوة أصحابها. وتكون النجدة في هذه المواقف لأصحاب اليقظة الحذرة، والاستعداد الدائم، والتنبه الشديد، والشجاعة النادرة.

وعلى الرغم من وجود مثل هذه الغارات في المجتمع الجاهلي الا أنا نجد ذكرها يندر الا عند بعض شعرائهم الفرسان، ولعل أكثر من تعرض لمثل هذه المواقف من الشعراء الفحول لبيد بن ربيعة رضي الله عنه.

ولبيد بن ربيعة شاعر صادق، يتحلى بفضائل جمة، وفارس مقاتل، يمثل أسمى صفات الفروسية العليا، وفي شعره خصائص جليلة، وابداعات رائعة، تدل على بلوغ الشعر الجاهلي في عصره القمة

السامقة، والذي يعنينا الآن ما يتصل بهذه الغارات والفروسية، فلبيد تكتمل فيه عناصر الفروسية الحقة، والشاعرية الفذة، فهو عريق في المجد، سام في الطباع، فاضل في الأخلاق، يأسرك بصدقه، ويتسحوذ على مشاعرك بشاعريته المتمكنة، ويرفعك الى أحاسيسه المبدعة بأسلوبه البياني البليغ، وقدرته الفنية الفائقة، ولد لبيد في بيت تحوطه الزعامة، ويكتنفه الشرف، ومن أبرز البيوت العربية مكانة ورفعة، وكان أبوه وأعمامه الأربعة أعلاماً في الفروسية والرئاسة والمجد، واختص أبوه ربيعة بالفضل والكرم، ولقب بربيع المقترين.

ونشأ لبيد في رعاية أبيه الذي كان يفيض سماحاً وكرماً، وفتح شاعرنا عينه على وفود الضعفاء والمنهوكين والأرامل والأيتام، وهم يقصدون فناء أبيه، فيلقون كل رعاية وتكريم، ولقد كان صادقاً في وصفه حينما قال:

ويكللون اذا الرياح تناوحت
خلجا تمد شوارعا أيتامها

انهم يضعون اللحم فوق الجفان، ويمدونها كالأنهار، ليشبع الضعفاء والأيتام، ولقد تأثرت نفس لبيد بهذه الفضيلة المثلى التي ورثها عن أبيه، وتأصلت فيه، فأصبح حريصاً عليها، ملتزماً بها، ولو حملته ما لا يطيق، وسنورد قصة روتها كتب الأدب والتاريخ وهي تكشف لنا جوانب كثيرة من شخصية لبيد، وتبين عن فروسيته في المكارم، واليك ما رواه صاحب الأغاني:

كان لبيد من أجواد العرب، وكان قد آلى في الجاهلية ألا تهب صبا الا أطعم، وكان له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم، فهبت الصبا يوما والوليد بن عقبة على الكوفة، فصعد الوليد المنبر فخطب الناس ثم قال: ان أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر في الجاهلية ألا تهب الصبا الا أطعم، وهذا يوم من أيامه، وقد هبت الصبا، فأعينوه، وأنا أول من فعل. ثم نزل عن المنبر، فأرسل اليه ابلا، وكتب اليه بأبيات قالها:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه
اذا هبت رياح أبي عقيل
أشم الأنف أصيد عامري
طويل الباع كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعفري بحلفتيه
على العلات والمال القليل
بنحر الكوم اذ سحبت عليه
ذيول صبا تجاوب بالأصيل

فلما بلغت أبياته لبيداً قال لابنته: أجيبيه، فلعمري لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر، فقالت ابنته:

اذا هبت رياح أبي عقيل
دعونا عند هبتها الوليدا
أشم الأنف أروع عبشميا
أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبا
عليها من بني حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا
نحرناها فأطعمنا الثريدا
فعد ان الكريم له معاد
وظني يابن أروى أن تعودا

فقال لها لبيد: أحسنت لولا أنك استطعمتيه. فقالت: ان الملوك لا يستحيا من مسألتهم. قال: وأنت يا بنية في هذه أشعر.

لقد أظهرت هذه القصة تمسك لبيد الشديد بالمكارم. ومعرفته النافذة في بيته الشعري حيث أمر ابنته بأن تجيب الوليد حيث ما كان ليعيا بجواب شاعر. كما أبانت القصة عما يحمل هذا الفارس البطل من عزة، وكرامة في نفسه. وعما في شخصيته من أنفة واباء. حين قال لابنته: قد أحسنت لولا أنك استطعمتيه. ولم تؤثر فيه الظروف الحرجة. ولم تلن من شكيمته المدنية الحديثة. ولم تطأطىء من شموخه

الدولة الجديدة المنظمة، فقد أبى على ابنته أن تستطعم الوليد وهو أمير الكوفة، لان ذلك يضع من مكانته ومكانة ابنته، ونلاحظ في آخر القصة انضياع لبيد الى المنطق حينما يقتنع فيعترف بالصواب، ويعجب بأبنته ويقول لها: وأنت يا بنية في هذه أشعر.

كان لبيد أحد الفرسان الأبطال، الذين تخصصوا في وصف المعارك الليلية، ولاشك أن حروب المساء أكثر خطورة، وأوعر مسلكا، وأعظم تضحية وهي — مع ما تقتضيه من الحذر الشديد، والاستعداد الكامل، والشجاعة النادرة — تحتاج الى جأش رابط، وعزيمة قوية، وسرعة متناهية، ودائماً ما تكون هذه الغزوات مترصدة مباغتة، فأصحابها يكمنون بعيداً عن أنظار القبيلة ورعاتها التي يريدون الهجوم عليها، ويرسلون أحدهم كابن سبيل — وهو عين لهم — يتعرف على أمورها، ويمد الغزاة بمعلومات دقيقة عن أماكن القوة والضعف في القبيلة، ويعين لهم تواجد النعم الكثيرة، وما اذا كانت قريبة من أصحابها أو بعيدة، وعلى ضوء هذه المعلومات يقرر المغيرون هجومهم، وغالباً ما يختار الغزاة البيوت النائية عن مضارب القبيلة، والمتطرفة منها، لتأكدهم من أن هذه البيوت لا تستطيع مقاومتهم، ولحرصهم على الانقلاب السريع في الرجوع، للوصول الى مأمنهم مع ما اكتسبوه، حيث لا تقدر القبيلة المنهوبة أن تمد يدها اليهم.

ويحدثنا لبيد في معلقته عن احدى المعارك الليلية التي كان فيها فارس القبيلة، المحامي عن ذمارها، والمحافظ على ثغورها، والمناجذ لمن يريد الكيد بها، ومعلقة لبيد من أشد المعلقات تماسكا، وأقواها بنية، وأدقها وصفا، وأروعها تصويراً، وأنصعها بيانا.

ولقد أبدع لبيد في وصف فرسه في هذه المعلقة، حتى جعلنا نتصور فرسه طائراً يطير بجناحيه، قال:

ولقد حميت الحي تحمل شكتي
فرط وشاحي اذ غدوت لجامها
فعلوت مرتقباً على ذي هبوة
حرج الى أعلامهن قتامها

حـتـى اذا الـقـت يـدا في كـافـر
وأجـن عـورات الـثـغـور أكـامـهـا
أسـهـلـت وانـتـصـبـت كـجـذع مـنـيـفـة
جـرداء يحصر دونـهـا جـرامـهـا
رفّـعـتـهـا طـرد الـنـعـام وشـلّـه
حـتـى اذا سـخـنـت وخـف عـظـامـهـا
قـلـقـت رحـالـتـهـا وأسـبـل نـحـرهـا
وابـتـل مـن زيـد الحـمـيـم حـزامـهـا
تـرقـى وتـطـعـن في الـعـنـان وتـنـتـحـي
ورد الحـمـامـة اذ أجـد حمـامـهـا

لقد أوجز في تبيين المهمة العظمى والمقصد الذي يرمي اليه ما شاء له الايجاز، واقتصرها بلفظتين هما حماية الحي، ثم عرض صورة انطلاقه، وهو كالصاروخ المؤقت، ووضع على تلك الصورة خيوطاً فنية مبدعة، ليدلنا على كيفية وضعه، وشدة اهتمامه، وسرعة اندفاعه، فهو لم يبطىء، ولم يتريث، ولم يلتفت، بل أخذ كامل سلاحه، وقذف بنفسه على فرسه، وهو أكثر اندفاعاً منها، فقد جعل لجامها وشاحاً له، وعلا على المرقاب المشرف فاطلع على المغيرين (حرج الى اعلامهن قتامها). وبعد أن أرانا لبيد حرج الموقف، وضيق المسلك، وخطورة الهجوم، راح يعلمنا عن الوقت، فالشمس قد القت يدها في الليل، فزال كل أثر منها للضياء، وستر الظلام مكامن العورات، ومنافذ الثغرات، كل هذه المخاطر والصعاب لم تفل من عزيمة لبيد، ولم تقلل من اندفاعه الخطر، لقد رمى بنفسه في نحور الأعداء، باذلا نفسه، مضحياً في سبيل هدفه، حريصاً على انقاذ قومه، لقد أسهل من مرتقبه المرتفع الى القوم المهاجمين، مستسهلا وعورة الطريق ومضايقه غير عابىء بظلام الليل ومخاطره، لقد اندفع باقصى سرعة، وحث فرسه التي انتصبت كالنخلة الجرداء المنيفة، ثم الح على فرسه وكأنما يحثها لصيد النعام، حتى عرقت ومرنت عظامها، ومن سرعة العدو، ووعورة الطريق اضطربت رحالتها ــ وهو ما يشبه السرج ــ وبدأ نحرها يسيل

ماء، وابتل من كثرة العرق حزامها، وبعد هذا الجهد من الفرس الأصيل أخذت تصعد برأسها يميناً وشمالاً وتضرب بالعنان، وهي أكثر ما تكون نشاطاً وقوة، وكأنما تحاول إلقاءه، لتقذف بنفسها في الفضاء، ولقد شبهها لبيد بالحمامة العطشى التي جد سربها لورود الماء.

إنها لوحة بيانية فنية مبدعة، رسمتها ريشة شاعر فارس، ها نحن ننظر الى عادية متقدمة، تحمل فارساً بطلا، شاكي السلاح، يندفع بأقصى سرعة، متوشحاً لجام فرسه، وكأنما توشح وسام بطولة الفروسية، وغايته ادراك المغيرين، ليصدهم بقوته وشجاعته، وليرجع الى قبيلته طمأنينتها، وما أخذ منها، ثم يعرض لتوضيح الصورة لاعتلائه المرقب، ويطلعنا على مكان المهاجمين، ووعورة مسلكه، ثم يرينا الظلام وقد أسدل أستاره، وقد اندفعت فيه فرسه، وهي في عنفوان نشوتها، وقوة نشاطها، وسرعة عدوها كالطائر المجنح.

لقد عرض لبيد لنجدته، وكيفية مسيرته وهيئة حملته الفريدة، وافتنّ في وصف فرسه، ولكنه لم يقصد تفصيل قتاله، فهل كان ذلك عن اغفال؟

لم يكن لبيد مغفلا لهذه الناحية، ولكنه كان مؤثراً منهج البلاغة العربية الأصيل، وقد أوجز موقف قتاله ــ كما ألمحنا اليه من قبل في قوله (ولقد حميت الحي) ــ انه بهذا القول استغنى عن التفصيل، اذ بلغ النهاية والغاية من القتال، فلا داعي للاعادة والاسهاب، وبهذا الايجاز الرائع استطاع العصر الجاهلي والمخضرم أن يصل الى المرتبة العليا من القول، ومما ساعد على تمكين هذا الايجاز المحكم، وجود الأذهان الوقادة في العصرين السالفين، والذي جعل الافهام تدرك خفايا الاشارات الايجازية، وتستوعب جوانب المواضيع البلاغية، وتستكشف اللمحات البيانية، وتأنف من التطويل المغث، وتبتعد عن الاسهاب الممل.

ولقد أدرك البحتري ــ وهو أجود شاعر في القرن الثالث ــ غثاثة الاطالة المنهجية العقيمة، عندما أجاب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في رده عليه.

كلفتمونـــــا حدود منطقكـــــم ... في الشعر يلغى عن صدقه كذبه
والشعـــر لمح تكفـــي اشارتـــه ... ولـــيس بالهذر طولت خطبـــه

وللبيد مواقف بطولية، فهو يتشوق الى الغارات، ويتطلع الى الحروب، ويعد الخيل للغزوات، قال:

لا تسقني بيديك ان لم التمس
نعم الضجوع بغارة أسراب

تهدي أوائلهن كل طمرة
جرداء مثل هراوة الأعزاب

ومقطع حلق الرحالة سابح
باد نواجذه على الأظراب

يخرجن من خلل الغبار عوابسا
تحت العجاجة في الغبار الكابي

واذا الأسنة أشرعت لنحورها
أبدين حد نواجذ الأنياب

يحملن فتيان الوغى من جعفر
شعثا كأنهم أسود الغاب

ومدججين ترى المعابل وسطهم
وذباب كل مهند قرضاب

يرعون منخرق اللديد كأنهم
في العز أسرة حاجب وشهاب

وبالرغم من أن هذه القطعة تدلنا على تطلعاته الحربية، وشجاعته النفسية، وتصف لنا الفرسان من فتيان قبيلته، وتظهر لنا التزامه بالصدق، واعترافه بالفضل لأهله، الا أنها تدلنا على أنه قالها في صباه، ففي بعض أبياتها حشو، وفي بعضها ركة، ولكنها تطلعنا على اهتمامه الشديد بالخيل، لقد أبى لبيد أن يقدم اليه الشراب ما لم يشن تلك الغارة الشعواء، التي تتكنفها أسراب الخيل، وتتقدمها الأفراس المنتخبة التي تشبه (هراوة الأعزاب) وهي فرس عرفت بالسرعة والقوة والنجابة، وفيهن الفحول المذاكي التي بدت نواجذها، ثم يشرع في الوصف التقليدي للخيل في المعارك: (يخرجن من خلل الغبار عوابسا) والشطر الأخير حشو لا فائدة منه، وفي البيت التالي

يقوي في الشطر الأول ويضعف في الشطر الثاني، فأشراع الأسنة لنحورها فيه روعة، ولكن ابداء حد نواجذ الانياب فيه برود، ثم يصف فتيان قومه وهم على ظهور الخيل، وقد كللهم الغبار، كأنهم أسد غاب، ويصف شكتهم وقد حملوا رماحهم وسيوفهم، وقد لبسوا الدروع، ويعرج على موكبهم في انحدارهم على جانبي الوادي، وكأنهم في المجد والعز أسرة حاجب وشهاب، وهذا المثل الذي ضربه لبيد، يدلنا على ما في نفسيته من صدق، واعتراف بالفضل لأهله، فأسرة لبيد لا تبعد كثيراً في عراقة المجد ومزايا الفضل عن أسرتي حاجب وشهاب التميميتين، ونزداد اعجاباً بفضيلة الصدق لدى لبيد حينما نعلم أن بين قبيلته وهاتين الأسرتين حروباً شعواء.

وللبيد موقف خاص أطلعنا عليه في جهاده وقتاله وحسن بلائه، فقد عتب على عمه عامر ملاعب الأسنة، واظهر في هذا العتاب مواقفه المعلومة، وعدد أيامه التي أبدى فيها نضاله، واليك ما قاله:

من كان مني جاهلا أو مغمرا
فما كان بدعاً من بلائي عامرُ

ألفتك حتى أخمر القوم ظنة
عليّ بنو أم البنين الأكابر

ودافعت عنك الصيد من آل دارم
ومنهم قبيل في السرادق فاخر

فُقيم وعبد الله في عز نهشل
بشيتل كل حاضر متناصر

ومنها:

ويوم منعت الحي أن يتفرقوا
بنجران فقري ذلك اليوم فاقر

ويوماً بصحراء الغبيط وشاهدي الـ
ـملوك وأرداف الملوك العراعر

وفي كل يوم ذي حفاظ بلوتني
فقمت مقاماً لم تقمه العوارر

أشار لبيد في أول هذه المواقف الى يوم ذي نجب الذي كان بعد يوم شعب جبلة، وكانت بنو عامر قد انتصرت على بني حنظلة من تميم، ومن جاء معهم من أسد وذبيان، واستنجد بنو عامر بحسان بن كبشة أحد حكام اليمن، وقالوا له: هل لك في ابلٍ عكر، ونساء كالبقر، وتسير مبرداً، وترجع سالماً غانماً، من قوم أوقعنا بهم حديثاً، وقتلنا فرسانهم.

وجاءت بنو عامر مع الملك تريد أن تستأصل بني حنظلة، وتكتسب أموالها، فخاب ظنها، وقتلت فرسانها، وأسرت أشرافها، وفرت رؤساؤها، وثبت في هذه المعركة عامر ملاعب الأسنة، وانسحب انسحاباً مشرفاً، وما كان له أن يصمد كل هذا الصمود لو لم تكن معه عصبة تسنده، ولم يحدثنا التاريخ عن أحد من هذه العصبة، ولم يذكر الرواة غير موقف أبي براء الذي نال شرف لقب البطولة الفروسي، وقد المح الى هذا الموقف أوس بن حجر قال:

يلاعب أطراف الأسنة عامر
وصار له حظ الكتيبة أجمع

ولقد أشار الى الكتيبة، وذلك يدلنا على أن عامراً لم يكن وحده في هذا المأزق الحرج، وانما كان معه فرسان يشاركونه في موقفه البطولي الفذ، وقد فر طفيل — وهو فارس معروف — وقد عيره أوس بن حجر في شعره مراراً، حتى أصبح مشهوراً به، كما اكسب أخاه عامراً لقب البطولة بقوله في بيته السالف ومما قال أوس في طفيل:

فرارا واسلمت ابن أمك عامراً
يلاعب أطراف الوشيح المزعزع
وقد علمت عرساك أنك ايب
تخبرهم عن جيشهم كل مربع

وسنعرض الى موضوع الفرار في فصل غير هذا ان شاء الله. ولكنا أتينا بهذين البيتين لندلل على صعوبة الصمود، وعلى خطورة الموقف، وتعترضنا معضلة في وجود لبيد في هذه الكتيبة فهو يصرح بقوله

(ودافعت عنك الصيد من آل دارم) ولكن شارح النقائض يقول إن عمر لبيد قبل هذه الواقعة بعام كان تسع سنين، ويضيف أو بضع عشرة سنة، ولا يمكننا أن نتصور لبيداً فارساً في هذه السن، بل يستحيل ذلك، ولعل الاضافة في الرواية الأخرى تعطينا منفذاً الى سنه الحقيقي، فهو شاب صغير، ولكن ليس في هذه السن المتدنية، وهناك احتمال أبعد، وهو أن يكون ما بين يوم شعب جبلة وما بين اليوم الذي قاتل فيه لبيد مع عمه عامر بن مالك أكثر من عام، ولا نجد روايات موثوقة تختلف في المدة فيما بين اليومين، واستناداً الى ما أكده لبيد نستطيع أن نرجح قتاله في هذه المعركة، لصدقه، ولاجماع الروايات على اطالة عمره مع اختلافها، ومع افتراض أقصرها تحديداً، فهي تجعله في سن الرجولة المتكاملة في ذلك اليوم، اذا استثنينا قول صاحب النقائض.

واتجه لبيد الى عتاب عمه بالمصارحة الكاملة، وقال: ان كان من الممكن خفاء نجدته ونضاله المشرف على أحد، فعمه أخبر الناس ببلائه، وصبره ونضاله، وأخذ يعد الأيام التي ظهرت فيها فروسيته، ومواقفه المشهودة، وان جحدها المنكرون، فلا يستطيع انكارها ملاعب الأسنة الذي هو أعرف بها، يخصص التوجيه الى عمه، وأنه قد اختبره في جميع المواقف الصعبة، فوجده ذلك الفارس البطل، والمناضل المصابر الذي لم تهن عزيمته، ولم تضعف شكيمته. وكان سبب هذا العتاب أن عامر بن مالك اعتدى على جار له.

لقد رأينا لبيداً فيما سلف شاعراً فارساً يفخر بقومه، ويذكر مفاخرهم بمنطق واتزان، ورأيناه هنا حينما اضطر لاظهار مواقفه الفروسية تحدث بقوة واعتزاز، ودعم نضاله بشواهد يذكرها عمه، ويعرف بلاءه فيها، ونلاحظ أن لبيداً في جميع افتخاراته بعيد عن التطبيل والانتفاخ الكاذب.

وللبيد تفنن خاص في وصف خيل الحرب، واهتمام شديد بتحديد الأوقات وابداع في تصويرها وقد يكون تحديداً للمعركة، أو قد يكون لما قبلها، وهذه النظرة للوقت لفتة فنية، اختص بها لبيد، وغابت عن

معظم فحول الشعر في عصره، ولنستمع الى وصفه فرسه المعد للمعركة، قال:

ولــقــد يــعــلــم صــحــبــي كــلــهــم
بعـــدان الـســيـــف صــبري ونـفـــل
رابـــط الجـــأش على فـــرجـــهـــم
أعـــطـــف الجـون بمـربـوع مـتـــل
ولـــقــــد أغــدو ومـا يــعــرفـنـــي
صـاحـــب غير طـويـــل المـحـتـبـــل
ســـاهـــم الـــوجـــه شــديــد أســره
مـــغـــبــط الحــارك محـبـوك الـكـفـل
بــأجـــش الـــصـــوت يـــعـــبـوب اذا
طـــرق الحـــي مـــن الـــغـــزو صهـــل

ومنها:

فـــهـــو شـــحـــاج مـــدل ســـنـــق
لاحـــق الـــبـــطـــن اذا يعــدو زمـــل
فـــتـــدلـــيـــت عـــلـــيـــه قـــافـــلا
وعلى الأرض غـــيـــابـــات الـــطـــفـــل

وتـــأيـــبـــت عـــلـــيـــه ثـــانـــيـــاً
يـــتـــقـــيـــنـــي بـــتـــلـــيـــل ذي خـــصـــل
لـــم أقـــل الا عـــلـــيـــه أو على
مـــرقـــب يـــفـــرع أطـــراف الجـــبـــل
ومـــعـــي حـــامـــيـــة مـــن جـــعـــفـــر
كـــل يـــوم تـــبـــتـــلي مـــا في الخـــلـــل

ها هو لبيد يعلن أن جميع المقاتلين معه يعرفون موقفه في عدان السيف حق المعرفة، (وعدان السيف هي المنطقة التي تضم ساحل الكويت الجنوبي وساحل المنطقة الشرقية للملكة السعودية، ولا تزال هذ التسمية باقية) انه رابط الجأش، مطمئن النفس، قوي الشكيمة، عاطف فرسه الى موضع الخطورة، وثغر المخافة، مشرع رمحه القوي في

نحور الأعداء، ثم يبدأ في وصف جواده الحربي فيقول: انه في اتجاهه الى القتال لا يفارق صاحبه الموثوق، وهو فرسه، وجعله بمثابة الصديق، وهذا اتجاه نفساني، يدلنا على ما في نفس لبيد من حب للخيل، وتقدير لمزاياها. ثم وصف وجه جواده الحديدي، وأخذ يصف ما فيه من قوة ومن شدة، وأخذ يبين ما يتميز به خلقه من صفات، وما لاعضائه من اكتمال، وذكر بحة صوته وأنه حين يعود من القتال يكون في حيوية ونشاط، ويرجع صهيله، وكأنما يريد أن يرجع ثانياً، فهو لا يمل المعارك، ويتشوق الى الغزو، ثم يعود الى ذكر الصفات المحبوبة فيه، فهو جريء ضامر سريع حذر، ثم يصف قفوله، ويعطينا صورة عن حالته وهو راجع، وان الشمس قد أخذت الى الغروب، وان ظلال الطفل قد خيم على الأرض، ثم لا يلبث أن يأرب عليه ثانياً، ويحاول لبيد أن يلتفت التفاتة فنية، فيرينا جواده وهو يتقيه بعنقه الطويل، ذي الخصلات الناعمات، وكأنما يريد لبيد أن يداعبها بأنامله، ثم يعود الى مواقفه الحربية، ومصارعته وأنه لا يركن الى الراحة، فما كان ليقيل الا على جواده أو ثغرة مخوفة في أطراف الجبال، ومعه قومه من جعفر، أولئك الذين يختبرون في كل يوم سيوفهم، فهم أهل الضراب والقتال.

النابغة الجعدي

ومن الشعراء الفرسان الذين برعوا في وصف الخيل النابغة الجعدى، وهو أحد الثلاثة المبرزين في هذا المجال، وشاعرنا نشأ منذ صغره على الفروسية ــ خلافاً لما ادعاه الأصمعي من أنه لم يعرف الخيل الا كبيراً ــ فآباؤه وأجداده فرسان معروفون، وكان لهم موقف عظيم حينما همت قيس بالهروب من وجه لقيط بن زرارة ومن معه، وقد ذهبت بنو جعدة الى رواحل النساء، فقطعت وضنهن منعاً لفكرة الهروب، واصراراً على مواجهة الجيش المهاجم مهما كانت النتائج، وقد كان النصر حليف قيس في هذه الوقعة التي تسمى بيوم شعب جبلة. لقد تربى النابغة في بيوت هؤلاء الفرسان الافذاذ، فهل يعقل ألا يكون عرف الخيل الا كبيراً؟، ولكن الأصمعي تحامل على النابغة ــ سامحه الله ــ دون وجه حق، ولعل هذا التحامل كان باعثه ضعة قبيلة

...

باهلة التي ينتسب اليها مع قربها الوشيج من قبيلة بني جعدة الأنجاد. ولا غرابة أن تجد هذا الانحراف عند الأصمعي، فله شطحات كثيرة مع فضله وعلمه، ولكن العجب ألا نرى دحضا لادعاء الأصمعي من علماء اللغة والتاريخ والأدب على مر العصور، على الرغم من أنهم يرون مقالته دون أن يشيروا اليها بتفنيد أو نقد، وكأنما هي مسلم بها، مع أن الواقع والحقيقة ينقضانها، بل كيف يقرؤون أبيات النابغة ولا ينكرون ما قال الأصمعي؟، واليك الأبيات:

نشأت غلاماً أقاسي الحروب ... ويلقى المقاسون مني مراسا

وحمر من الطعن غلب الرقا ... ب كالأسد يفترسون افتراسا

شهدتهم لا أرجّي الحيا ... ة حتى تساقوا بسمر كياسا

وشعث يطابقن بالدارعين ... طباق الكلاب يطأن الهراسا

ها هو يعلن عن نشأته الفروسية بكل وضوح، فهو قد مارس الحروب في حداثته، وقد غامر فيها بحياته وهو غض الاهاب صغير السن، طرى العود، ان النابغة هنا يخبرنا بمراسة الحربي الشديد وهو في حداثة الشباب وطراوة الصبا، ومع هذا شهد هذه المعارك وهو لا يرجي الحياة، لقد قذف به في أتون حرب شعواء، يتعاورها أشداء، قد عركوا الحرب وعركتهم وناجذوها فنجذتهم، فدخول هذ الغلام الناشىء بينهم يعد مجازفة خطرة، واقداما على الموت، وهكذا يطلعنا النابغة على تضحياته الأولى، واقدامه العظيم وهو غلام يافع.

لقد رمى بنفسه بالمعركة وهو لا يرجيٍّ الاياب، ولا ينتظر النجاة، ومن هنا نعلم أن نشأة النابغة في الفروسية كانت نشأة صارمة، قاسية، فقد أراد له قومه أن يكون فارساً فذاً، أو أن يموت.

واذا تغافل الأصمعي عن هذه الأبيات فمن حقنا أن نتساءل ما

الذي جعل النقاد والباحثين ينساقون خلف الأصمعي، دون تفنيد لزعمه أو تحقيق لادعائه؟.

وللنابغة الجعدي اتجاه فني خاص في وصف المعارك الحربية، ونظرة ذات أبعاد في مواقف الخيل في الحروب، فهو ينفذ الى أهم المواقف في الحرب، فيصفها وصفاً بارعاً، ثم يتجه الى الخيل، فيلبسها ثوباً من الدماء، يتفنن في توضيحه وتنميقه، حتى نرى خيله يعلوها الجمال، ويضفو على جوانبها الاشراق، ولا نحس قتامة ولا كآبة للدماء وقد غمرت خيله. قال:

حتى لحقناهم تعدوا فوارسنا
كأننا رعن قف يرفع الآلا

فلم نوقف مشيلين الرماح ولم
نوجد عواوير يوم الروع عزالا

حتى خرجن بنا من جوف كوكبهم
حمراً من الطعن أعناقاً وأكفالا

ثم نزلنا وكسرنا الرماح وجـ
ـردنا صفيحاً كسته الروم دجالا

في غمرة الموت نغشاها ونركبها
ثمت نبدو كرام الصبر أبطالا

هكذا يصور النابغة جيشه العادي، ويصف فوارسه، وكأنما ينظر اليهم من مسافة بعيدة، لقد أبدع في وصف هذا الجيش. ونفذ الى تشبيهه بدقة وروعة، فهو يصف الجيش وكأنه طرف جبل يرفع السراب على رأي بعض العلماء، أو يرفعه السراب على رأي من قال بالقلب منهم.

ان النابغة توصل بخياله المشرق الى رسم لوحة فنية، أرانا فيها تكتل جيشه، واندفاعه وهو يعلو الهضاب وينحط الى الوديان، وسجل ما تثيره الخيل من النقع، وما يكتنف الجيش من الغبار في علوه وهبوطه، فنقلنا بريشته الشاعرية الى أنف الجبل المعتم بالسراب، ثم وصف جيشه بالاقدام وأنهم شجعان أشداء، قد أخذوا للحرب

أهبتها، وللمعركة عدتها، وبعد ذلك يصور هجوم فرسان جيشه تصويراً أخاذاً، فهم قد اخترقوا جيش العدو، وكأنما دخلوا في جوفه، ونفذوا منه، وكان نتيجة هذا النفاذ أن خرجت الخيل محمرة الاعناق والاكفال، وكما قلنا فقد ألبس خيله حلة قشيبة زاهية بعد هذا الصدام العنيف، لقد وضع خيوطاً جمالية على أعناق الخيل وأكفالها، وانبأنا من خلال هذ الأوشحة الحمراء ما بلغته المعركة من تضحيات، وما وصل اليه القتال من فداء، ويصف النابغة بعد ذلك موقفاً من أشد المواقف حرجاً، في الحروب العربية، ومن أصعبها مجالا، ذلك عندما يلتحم الفرسان، وتتقارب الأبطال، ويضيق المجال، ولا تجد الخيل ميداناً، ولا الخرصان اتساعاً، هنالك تضطر الفرسان الى النزول، وتجرد السيوف للضراب، ويشتد الصراع، ويحتدم النضال، ويخبرنا النابغة عن نزول الفرسان بعد أن أحمرت الخيل من الدماء، ويطلعنا على ما وصلت اليه المعركة قبل النزول بقوله (وكسرنا الرماح) انهم لم ينزلوا الا بعد اشتداد الطعان وتكسير الرماح، لقد كان لابد من النزول، وتجريد السيوف المذهبة للمجالدة الصارمة، ثم أوضح أن أبطاله يغشون غمرات الموت، ويركبونها ثم يبدون كرام الصبر في بُراكاء القتال، أبطالا مجلّين في مواقف الضيق والحرج.

ولشاعرنا الفارس افتخارات جامحة، وادعاءات مغالية، وقد يشتط ويسرف، حتى تخاله مفرطاً متعالياً، ان قصيدته التي أنشدها النبي صلى الله عليه وسلم هي من أكثر شعره افتخاراً واستعلاء، ولقد استغرب النبي صلى الله عليه وسلم وتعجب من فخره، ومبالغته في أمجاده، ثم زاد فقال ـ بعد ايراد افتخاراته:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا
وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال صلى الله عليه وسلم (الى أين يا أبا ليلى) فيقول النابغة الى الجنة، فيقول رسول الله: (ان شاء الله) وبهذه الاجابة الحذرة المطمئنة ندرك ذكاء النابغة، وسعة ادراكه.

ولقد استمع له صلوات الله وسلامه عليه حتى بلغ الى قوله:

ولا خير في حِلْمٍ اذا لم يكن له
بوادرُ تحمي صفوه أن يُكَدَّرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له
حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له صلى الله عليه وسلم (لا يفضض الله فاك).

وفي هذه القصيدة كثير من الأوصاف الخيلية التي تفنن شاعرنا في ابداعها، وليس هذا الفصل موضعها، وسنتحدث عنها في الأجزاء التالية من هذا الكتاب ان شاء الله عند ذكر أوصاف الخيل، ولكننا سنتوقف عند ثلاثة أبيات وصف فيها خيلهم في المعركة.

قال:

وانا أناس لا نعود خيلنا
اذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وننكر يوم الروع ألوان خيلنا
من الطعن حتى تحسب الجون اشقرا
وما كان معروفاً لنا أن نردها
صحاحاً ولا مستنكراً أن تُعَقَّرا

كان آباء النابغة واجداده من فرسان قيس البارزين، ومن أصحاب النجدات المعروفين، وقوله يبين عن حقيقة مواقف أولئك القوم الذين لا تحيد خيولهم عن العدو، ولا تنفر من القتال.

ويجدر بنا أن نذكر أبياتاً لودّاك بن ثميل المازني لنستوضح قول النابغة (ان تحيد وتنفرا) قال:

رويداً بني شيبان بعض وعيدكم
تلاقوا غداً خيلي على سَفَوان
تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى
اذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها الكماة الغر من آل مازن
ليوث طعان كل يوم طعان

تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم
على ما جنت فيهم يد الحدثان
مقاديم وصّالون في الروع خطوهم
بكل رقيق الشفرتين يمان
اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
لأية حرب أم بأي مكان

ثم يعود النابغة الى تلوين خيلهم بالدماء، فلا يستطيع الرائي أن يستبين لونها الحقيقي، حتى يظن أن الأدهم أشقر من كثرة الدماء السائلة عليه، ويفصح النابغة عن خطورة معاركهم، وعن فداحة خسائرهم فيها، فليس مستغرباً أن تعود خيولهم مكلومة معقورة.

لقد أبان شاعرنا الفارس عن مكانة الخيل في الحروب، وتعرضها لأهم المخاطر مع فرسانها.

ولكي لا يتسع المجال فاننا لا نحاول استقصاء شعرائنا الفرسان، ولا الإلمام بجميع أبطال الفروسية في العصر الجاهلي، ولو استقصينا أخبارهم لخرج الكتاب عما حدد له. ولذلك سنختم هذ الفصل بذكر أعلام الفروسية والرئاسة. -

عتيبة بن الحارث بن شهاب

يجمع العرب على أن أبرز فرسانهم، وأعظمهم قدرة ومهارة ثلاثة: عتيبة بن الحارث بن شهاب التميمي وهو أعلى الثلاثة كعبا في الفروسية حيث قالت العرب لو سقط شهاب من السماء لما تلقفه الا عتيبة. وعامر بن طفيل العامري، وبسطام بن قيس الشيباني، وكل قد ضرب المثل به، ويلاحظ الباحث أن العرب لم تعط هؤلاء الثلاثة هذه المنزلة القصوى في الفروسية الا لأسباب فنية حربية امتازوا بها امتيازاً لا نظير له، ولم تعرف العرب فارساً فاق في فنون الحرب ومراسها، وتمكن في فنون القتال وملابساتها، واحكم مناجزات الفروسية وقدراتها كعتيبة.

نشأ هذا الفارس المقدام بين قومه بني يربوع، وهم أحلاس الخيل، وأرباب القتال، وصناديد الحروب، وكانت الردافة فيهم، وأراد المنذر أن ينتزعها منهم فارجعوها اغتصابا، والردافة: نيابة ملكية تتبعها

مسؤوليات وحقوق، واشتهر في بني يربوع كثير من الفرسان الأفذاذ الذين حفظت لهم الحروب الجاهلية مواقفهم النادرة، كأسيد بن حنّاءة الذي قال عنه بسطام بن قيس (لم يكن يظله بيت شاتيا ولا قائظاً، يبيت القفر، لا يفارق فرسه الشقراء) والكحلبة اليربوعي، ومالك بن نويرة وأخيه متمم، والاحيمر، ومالك بن حطان، وبجير بن عبد الله وغيرهم.

ومارس عتيبة الغزوات ورئاستها، وأبدى فيها من التفوق الفروسي ما لا مزيد وراءه، ولنورد قصة أسره لبسطام، لنستطلع منها موقعه مع زميليه اللذين اشتركا معه في قمة الفروسية (ولما أسر عتيبة بسطاما قالت له بنو ثعلبة يا أبا حرزة، ان أبا مرحب قتل، وقد أسرت بسطاما وهو قاتل فليل وبجير بن مليل ومالك بن حطان يوم قشاوة فاقتله. قال اني معيل وأحب اللّبن. قالوا انك لتفاديه، وتخلي عنه، فيعود فيحربنا، فأبى. فقال بسطام: يا عتيبة ان بني عبيد أكثر من بني جعفر وأعز، وقد قتل أبو مرحب وله في بني عبيد أثر بئيس، وهم آخذي منك، ولن تقدر بنو جعفر أن يمنعوني منهم، وأنا معطيك من المال عائرة عينين، فقال لا جرم، والله لاضعنك في أعز بيتين من مضر، في بني جعفر بن كلاب، أو في بني عامر بن جندبة، فاختار بسطام بني جعفر، فتحمل عتيبة بأهله وبه قاصداً بني عامر بن صعصعة، لئلا يؤخذ فيقتل، حتى لحق بالشرِبّة ببني جعفر. فلما توسط بسطام بيوت بني جعفر قال: واشيباناه ولا شيبان لي. فبعث اليه عامر بن الطفيل ان استطعت أن تلجأ الى قبتي فافعل، وان لم تستطع فاقذف بنفسك الى الركي التي خلف بيوتنا.

فأتت أم حمل ــ وهذا من جهل الجاهلين وسخفهم، فهم يعتقدون أن مع بعض الناس جنيات تخبرهم وتنبئهم بالأحداث، وما هو الا الذكاء والزكانة والفطنة ــ عتيبة فخبرته بما كان من أمر عامر، فأمر عتيبة ببيته فقوض، وركب فرسه، وأخذ سلاحه، ثم أتى مجلس بني جعفر، وفيه عامر بن الطفيل فحياهم، ثم قال: يا عامر انه قد بلغني الذي أرسلت به الى بسطام، فأنا مخيرك فيه خصالا، فاختر أيهن

شئت. قال عامر: ما هن يا أبا حرزة؟ قال: ان شئت فاعطني خلعتك وخلعة أهل بيتك حتى أطلقه لك، فليست خلعتك وخلعة أهل بيتك بشر من خلعته وخلعة أهل بيته، فقال عامر هذا ما لا سبيل اليه. فقال: فضع رجلك مكان رجله، فلست عندي بشر منه. فقال عامر: ما كنت لافعل، فقال عتيبة: فأخرى هي أهونهن. فقال عامر: ما هي؟ قال عتيبة تتبعني اذا أنا جاوزت هذه الرابية، فتقارعني عنه الموت، فاما لي واما علي، فقال عامر: «تيك أبغضهن الي».

وهذه القصة تدلنا على ما لدى فارس ربيعة من مكر ودهاء، وما عند فارس قيس من حيلة وخداع، وما يحمله فارس تميم من خبرة وذكاء، وما يتذرع به من حيطة وحذر.

لقد أراد بسطام أن يبعد عتيبة عن قومه، فاقنعه بالابتعاد عنهم، خشية أن يقتله أحد بني عبيد، فيخسر عتيبة الفداء العظيم الذي ينتظره، وكان بسطام يقصد الى اخراج عتيبة عن قبيلته الى بيوت رؤساء بني عامر، ونلاحظ أن استغاثته كانت بقومه، ولكن اعلانها بين بيوت بني جعفر هي استغاثة بهم، وندرك أن بسطاما عندما قال: «واشيباناه ولا شيبان لي» وهو في أضعف المواقف، وأشد المحن وأقسى الظروف، تذكر زعامته ورئاسته في شيبان، فأبى أن يستغيث بعامر، خشية أن يأخذها قومه عليه فواقعها استغاثة ببني عامر، وظاهرها ببني شيبان. وأراد عامر بن طفيل أن يفوز باطلاق فارس شيبان ورئيسها، ويخدع عتيبة عن أسيره، فتكون له اليد الطولى عند شيبان. وانتبه عتيبة لما أريد به، فأبدى من الدهاء والشدة، والصراحة والصرامة، ما جعل عامراً وكأنه يشد في وثاقه مع بسطام. ان مجابهة عتيبة لعامر أعلمته أن اطلاق سراح الأسرى لا يكون بالمكر والخداع، وأن فك قيود رؤساء القبائل لا يأتي بالدسيسة والاساءة. وان شئت خيرتك بالطريقة التي يمكنك بها المن عليه. وبعد أن عرض عليه الخصلتين اللتين أباهما عامر، قال عتيبة: فأخرى هي أهونهن، وهذا القول من عتيبة يدل على تمكنه من الفروسية الخارقة، وجدارته القتالية الفائقة، وشجاعته القوية النادرة، انها خصلة هينة لا تكلف شيئاً،

فـفـارس قـيـس ورئيس بني عامر ان كان يزعم أنه كذلك فلا يصعب علـيه أن يلقي فارساً خلف هذ الرابية، فيقارعه الموت، فاما أن يسلب مـنـه سـيـد بنـي شيـبان وفارسها واما أن يقتل أو يكون في القيد معه، ولـكـن عـامـراً كـان أضـعـف مـن أن يخرج الى عتيبة، أو أن يسرع الى مـناجزته، ان الخصلة التي يراها عتيبة أهون الخصال التي عرضهن هي أشـدهـن وأبـغـضـهن الى عامر، فهو لا يريد سماعها، وما أصدق قوله: (تـيـك أبـغـضـهـن الي) لـقـد كـان عـامـر يعرف مقدرة عتيبة القتالية، وشـجـاعـتـه الـبـطـولية، ودربته الحربية، ومكانته في الفروسية، فأجاب بـصـراحـة لا خـفـاء فـيها، انه يبغض مبارزة عتيبة، ونقف عن اكمال قصة أسر بسطام.

واشتهر من الأفراس لعتيبة المكسر ولا حق.

- عامر بن الطفيـل -

والفارس الثاني من هؤلاء الثلاثة هو عامر بن الطفيل، وعامر بطل مشهور، ورئيس معروف، وفارس حنكته الحروب، وسياسي خبيث، وكان يطمع في سيادة هوازن، ويحاول السيطرة على بني عامر، وولد في يوم جبلة، وتنبأت أمه بأن سيكون لمولودها شأن، فأمرت قومها أن يرفعوها على الرماح، فكانت سرير عامر، واستبشرت بنو عامر بمولده حيث نالوا مالم يأملوه في ذلك اليوم، ونشأ هذا المولود كما نشأ لبيد ابن عمه في بيت تكتنفه السيادة والرئاسة والشرف، فأعمامه الأربعة كل منهم بارز في الشجاعة والسيادة والكرم، وكذلك أبوه، الا أن أباه كان فرارا، وهذا يدلنا على أن طفيلا كان خبيثاً، فهو يقاتل ما كان النصر لقومه، أما اذا رأى الكرة عليهم، وقرب الموت من عينيه، فلا يضحي بنفسه، بل يحث قرزلا برجليه، تاركاً قومه يعالجون الموت، وقد عير بذلك مراراً، كما عير عامر بفرار أبيه، وان كان عامر ليس فرارا، وتلاحظ أن طفيلا قد أورث عامراً كثيراً من خبثه في غير الفرار. وليس معنى هذا أن عامراً لم يفر.

لقد عرفت البطولة في عامر بن الطفيل في «يوم فيف الريح» فقد غزت قبائل من اليمن بني عامر، وانهزمت بنو عامر بعض الانهزام، وثبت عامر بن الطفيل فيمن ثبت، وحث فرسان قومه على الثبات، وأبدى من الجلادة والصبر والفروسية ما جعل قومه يعجبون منه، وهو بعد في ريعان الشباب، وتماسك جيش بني عامر، واستطاع أن يصد هجوم الجيش المنتصر، ويجعل انتصاره غير ساحق، وفي هذا اليوم طعن عامر في عينه، وعرفت فروسيته وشجاعته، وبعد هذه المعركة أخذ عامر في ابراز مفاخره، وحاول أن يتسنم الرياسة في قومه، ولنستمع لما يقوله بعد هذه المعركة:

لقد علمتْ عُليا هوازن انني
أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق اني اكرّ
عشية فيف الريح كر المُشَهّر
اذا أزور من وقع الرماح زجرته
وقلت له: ارجع مقبلا غير مدبر
وأنبأته أن الفرار خزاية
على المرء ما لم يبل عذراً فيعذر
ألست ترى أرماحهم فيّ شرّعا
وأنت حصان ماجد العرق فاصبرِ
فبئس الفتى ان كنت أعور عاقراً
جباناً فما عذري لدى كل محضر
وقد علموا اني أكرّ عليهم
عشية فيف الريح كر المدور
وما رمت حتى بلّ صدري ونحره
نجيع كهداب الدمقس المسير
ولو كان جمعاً مثلنا لم يهزنا
ولكن أتتنا أسرة ذات مفخر
أتونا بشهران العريضة كلها
وأكلب طراً في جياد السَنَوّر

لقد بدأ عامر قوله بادعاء عظيم، فهو يزعم أنه الفارس الوحيد الذي حمى حقيقة جعفر، وقد علمت رؤوس هوازن بذلك، وهكذا نرى عامراً وقد ملكه الغرور، واستبد به الشموخ، وتناسى مقام عمه وبلائه، وتضحياته، ومواقفه العديدة التي شهد له بها العدو قبل الصديق، وراح يدعي لنفسه المكانة العليا في حماية عشيرته، وهو بعد لم يقف موقفاً ذا أهمية قبل هذا اليوم، لقد كان عامر يرمي من رواء ذلك لتثبيت زعامته والسعي لترؤسه على قبيلته. ولكنه مني بعقبتين، أولاهما عمه عامر بن مالك ملاعب الاسنة، فقد كان أكثر منه تجربة، وأرفع

منه منزلة، وأعظم اقداماً وتضحية، والعقبة الأخرى علقمة بن علاثة، فقد كان ينازعه الرئاسة ويفاضله المزايا ويبادله التهم.

ونرى عامراً بعد أن القى قنبلته الدعائية، وبعد عن الحقيقة في بيته الأول، رجع ليبين موقفه الصادق في يوم فيف الريح، وذكر قتاله وبلاءه، وثباته بكل رزانة وعقل، دون تهويل أو تطبيل كما في بيته الأول. لقد علم فرسه المزنوق أن فارسه يقحمه في وجوه الأعداء، ثم لينبيء المزنوق أن الفرار عار وخزاية، ثم تذكر هروب أبيه وما عيّر به، وانسحابه بعد أن بللت الدماء صدره ونحر جواده، فراح يعتذر لابيه ولنفسه (مالم يبل عذراً فيعذر) ويشهد فرسه على ثباته وجلده، ويخاطبه: (الست ترى أرماحهم في شرعا) فاصبر كما أصبر، فانت كريم الأصل، طيب العرق، وما عذري إن لم أكن شجاعاً؟ فهل أجمع الى قبح الوجه وعدم الانجاب، رذيلة الجبن؟ ثم كرر موقفه في الكر، وهذا يدل على اعجابه بثباته في يوم فيف الريح، واعتذر عن انسحابه بأنه لم يبرح حتى سالت الدماء منه ومن فرسه، واعتذر لانهزام قبيلته بأن قبائل اليمن قد تجمعت فقد جاءتهم، مذحج، ومراد، وخثعم، وزبيد، وجعفر، وأكلب كلها، ولو كان عددهم كعددنا لما كان هم النصر، لقد كان عامر فيما بعد البيت الأول منطقياً صادقاً، يذكر الحقائق ولا يتعداها، انه يريد بهذا الاتزان والصدق أن يموه على بيته الأول، فيدخل ادعاءه الزائف الى الحقيقة، وهذا من دهاء عامر وخداعه، انه يريد الزعامة بأي ثمن، ويصر على اعلام بني عامر بأن رؤساء هوازن يعلمون أنه زعيم بني عامر، وحامي حماها، لقد حاول عامر بكل ما استطاع من جهد وحيلة وجرأة أن يصل الى سدة الرئاسة في بني عامر، وكان له ما أراد، فقد رأسته قبيلته، واستبد الغرور بعامر، وراح يكثر الغزوات طمعاً بالنهب والأسلاب، ورغبة منه في توسيع سيطرته، وكان يطمع أن يكون ملكاً غير متوج، وكثيراً ما نلحظ ذلك في أشعاره، فهو دائماً يذكر الاتاوة والخراج الذي يتمنى فرضه على اعدائه، وكأنما يريد أن يتمثل دور زهير ابن جذيمة في هوازن، ولكن حدث ما ليس في الحسبان، فقد غزا عامر

جماعة من فزارة على حين غرة، وأخذ امرأة منهم يقال لها هند، واستاق نحما لهم. وبينما هو في طريق رجوعه، والزهو يملؤه. والغرور يسيطر عليه، قال: ما ظنك يا هند بالقوم؟ قالت: ظني أنهم سيطلبونك. وليسوا نياماً عنك، فحطأ عجزها، وقال بكل وقاحة وسخرية: (لا تقول استها شيئاً).

وحاول بنو فزارة اللحاق بعامر، وبينما هم يتأهبون لذلك مر بهم زيد الخيل، فقالوا له: ما كنا قط اليك أحوج منا اليوم. فتبع عامر ابن طفيل، وأدركه زيد، فنظره عامر، فأنكر عظمه وجماله، وغشيه زيد، فبرز له عامر، فقال: يا عامر، خلّ سبيل الظعينة والنعم، فقال من أنت؟ قال: فزاري، قال: ما أنت من القلح أفواها، فقال: خلّ سبيلها، قال: لا والله أو تخبرني من أنت؟ قال: من بني أسد، قال: لا والله ما انت من المتكورين على ظهور الخيل، قال: خل سبيلها، قال: لا والله أو تخبرني من أنت ؟ قال: أنا زيد الخيل، قال صدقت، فما تريد من قتالي؟ فوالله لئن قتلتني ليطلبنك بنو عامر، ولتذهبن فزارة بالذكر، فأسره زيد، وجزّ ناصيته، وأخذ رمحه ومنّ عليه، ورد الابل وهندا الى بني فزارة) وقال أبياتاً في ذلك.

وانطلق عامر بن طفيل الى قومه، مجزوز الناصية، والخيبة تملأ جوانحه، والذل يكلله، والصغار يحيط به، فغضبت بنو عامر، وقالوا: لا يرأسنا أبداً، وتجهزوا لغزو طيء، ورأسوا عليهم ند عامر علقمة بن علاثة.

ورأى عامر أن قومه لو انتصروا على طيء، واقتصوا من زيد فانهم لا يرئسونه أبد الدهر، وان عار أسره سيتعلق به وحده، وسيكون عائقاً له عن أي سيادة في قومه، ولذلك اتجه للكيد لقومه، والايقاع بهم، مستغلا خبثه ودهاءه، مضحياً بهم مهدرا لكرامتهم في سبيل زعامته الشخصية، ولكي يقاسموه المذلة، فلا يمتازوا عليه في شيء، فأرسل الى زيد الخيل دسيساً ينذره، فجمع زيد قومه، ولقي بني عامر في المضيق فهزمهم، وأسر قوماً منهم فحبسهم، فلما طال عليهم الأسر قالوا: يا زيد فادنا، قال: الأمر الى عامر بن طفيل، فأبوا ذلك عليه،

فوهب الأسرى لعامر. وهكذا رد زيد لعامر جميله، حيث غش قومه وأنبأ زيداً بأخبارهم، وأطلعه على عوراتهم، وعرضهم بذلك للهلاك.

عاد علقمة بن علاثة رئيس بني عامر مع فلول قومه، وهم يجرون أذيال الخيبة، ويشاركون عامراً في المذلة والصغار، ومما زاد نكبتهم أن أصبح أسراهم في يد عامر، فهو الذي يستطيع أن يمن عليهم، أو يبقيهم في الأسر، وعن هذا الطريق استطاع عامر أن يسترجع مكانته في قومه.

ان عامر بن طفيل من أخطر الزعماء الجاهليين، ومن أكثرهم دهاء ومكراً وهذا ما فعل بقومه فكيف مع غيرهم؟ وهو مع ذلك محراب صنديد، وفارس من الطراز الأول، حفظت له الحروب الجاهلية جدارته الحربية، ومكانته القتالية وفروسيته النادرة.

لقد كان جريئاً الى أبعد الحدود، وخبيثاً كل الخبث، ذا نجدة وشدة وبأس وعنجهية، وكان يطمع في سيادة هوازن، ويمني نفسه بالسيادة على العرب، ولقد كان تطاوله في الكلام على كسرى حينما كان مع رؤساء القبائل الذين طلب كسرى من النعمان ايفادهم اليه (ان صحت الرواية) دليلا على شدة جرأته. ولعل اهتمام القيصر بعامر كان نابعاً من هذه الحادثة، فهو يسأل من يفد اليه من وجوه العرب عن عامر، لا كما يعلل الرواة والمؤرخون من أن قيصر كان معجباً بفروسية عامر.

كانت قبيلة بني عامر من أقوى القبائل العربية، وكان عامر يريد أن تخلص له رئاسة بني عامر، فيمتد نفوذه الى غيرها ولكن شاء الله أن يقف في وجهه علقمة بن علاثة، وهو يمتاز على عامر بكثير من الخصال الطيبة، ولكن عامراً كان يمتاز على علقمة ببراعته القتالية، ودهائه المفرط، وظلت المنافسة بينهما حتى بلغت المنافرة، وهي مذكورة في كتب الأدب، وقد أبى كثير من حكام العرب الفصل فيها، لحساسيتها وأبعاد آثارها، ولقد قضى فيها أخيراً هرم بن قطبة الفزاري، فكان حكمه فيها أروع قضاء سجله التاريخ في مثل هذه التفاهات التي يلجأ اليها بعض زعماء الجاهليين، ولقد دلتنا هذه

المكرمة على ما في المجتمع العربي الجاهلي من أفراد تتمتع بعقلية فريدة، وحكمة بالغة، وذهن وقاد، ودراية شاملة. لقد ذهب عامر وعلقمة الى هرم، ومع كل واحد وجوه عشيرته، ومع كل منهما مائة من الابل ينحرها من ينفر عليه، ليطعمها الناس، وأخذ قطبة عامراً وانفرد به، وقال له: أتظنني منفرك على علقمة؟ وما من فضيلة الا وقد غلبك عليها. قال عامر: سألتك الله لا تفضل على علقمة، خذ ناصيتي فجزها، ولا تفضله علي، ثم انفرد قطبة بعلقمة وقال له مثل ما قال لعامر، فقال علقمة: سألتك الله لا تفضل علي عامراً وخذ ناصيتي وجزها ولا تفضله علي، وخرج كل واحد منهما وهو يظن أن صاحبه منفر عليه، وأمر هرم بن قطبة اثنين من أصحابه أن ينحر واحد عشرة من ابل عامر، وينحر الآخر عشرة من ابل علقمة، فيطعماها الناس، وخرج الى الناس، وقال: ان عامراً وعلقمة متساويان في الفضائل، وهما كركبتي البعير، قال أحد الناس أيهما اليمنى؟ قال هرم: هما سواء. ومن الطريف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته سأل هرم بن قطبة ــ بعد عشرات السنين ــ عن حكومته، من تفضل الآن؟ قال يا أمير المؤمنين لو قلتها لاعدتها جذعة.

لقد حسم هرم ببعد نظره، ونفاذ بصيرته، وقوة عقله هذا التنافس الخطير بين أعلا فرعي بني عامر، والذي كاد أن يوقع بينهم الشر.

لقد عاد الزعيمان المتنافسان الى قومهما وهما أكثر تعقلا، وأبعد نظراً، وأشد حيطة، فقد أخذا درساً من هذا الحكم في الاصلاح والحكمة، وواصلا تنافسهما ولكن بطريق آخر.

لقد كان عامر يطمح الى السيطرة وبسط النفوذ، وان وجد العقبات الكأداء في تسنم رئاسة بني عامر.

ان ظهور الاسلام كقوة ذات شأن كان يقض مضجع عامر، فهو لا يريد النظام والانقياد، بل يريد الفوضى والتجبر والظلم، ورأى أن محاربة الاسلام والكيد له واجب لابد أن يقوم به، ومال بثقله مع أعداء الاسلام ومحاربيه، ونكاية به وافتراقا عن طريقه مال علقمة بن علاثة الى الاسلام ومؤيديه دون أن يسلم، وأسلمت بعض القبائل

العربية، وأعلنت تأييدها له، ففتّ ذلك في عضد عامر الذي كان يسعى لابعاد القبائل العربية عن الاسلام، ومما زاد في غيظ عامر أن رأى عمه عامر بن مالك ملاعب الاسنة، وهو زعيم بني عامر وفارسها يميل الى الاسلام، ويذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسأله عن الاسلام، ويطلب أن يرسل الى قبيلته أناساً يدعون الى الاسلام، وهم في خفارته وعهده، فأرسل صلوات الله وسلامه عليه الى بني عامر أربعين رجلا من القراء. وثار الحقد الدفين، والخبث المكين في نفس عامر، وصمم على الغدر بهؤلاء القراء، فطلب من بني عامر أن يخرجوا معه لقتل دعاة الاسلام، فأبت بنو عامر أن تغدر بذمة أبي براء ملاعب الاسنة، وأصر عامر على الغدر بهم، وأخذ جماعة من غير قبيلته، وغزا بهم هؤلاء القراء العزل، ولم ينج منهم الا اثنان، واحد أرتث في الجرحى، والآخر رجع الى المسلمين ليخبرهم بما فعل بالقراء.

وغضب ربيعة بن عامر بن مالك لغدر عامر بذمة أبيه، فطعن عامر بن الطفيل، ووقع عن فرسه، فقال: هذا عمل أبي براء، ان أمت فدمي لعمي، فلا يتبعن به، وان أعش فسأرى رأيي فيما أتى الى...... كان عامر يرمي من وراء هذا الفعل الشنيع الى ادخال الرعب في قلوب المسلمين، واعلامهم بأنه سيقف بجبروته وطغيانه سداً مانعاً من دخول الاسلام الى نجد، وسيكون الخصم الألد للمسلمين ورسولهم، ولكن خاب ظن عامر، وتواتر اسلام القبائل، وخضعت الجزيرة العربية لقوة الاسلام ورسوله، ثم وفدت القبائل على رسول الاسلام معلنة ولاءها للاسلام، خاضعة لاوامره ونظمه، واحتار عامر في أمره، وهو الذي يحمل أشد الحقد وأعظم البغض للاسلام ورسوله، هل يظل على عدائه الظاهر للاسلام؟ أو ينخرط مع هؤلاء الذين دخلوا الاسلام؟ ورأى عامر أنه ليس في استطاعته مجابهة الاسلام بعد انتصاراته الساحقة، ودخول العرب فيه، فحاول أن يجابهه بالخبث والدهاء والغدر، فراح يراوغ، ويظهر الميل الى الاسلام وهو يريد الكيد له، وجمع أفراداً من قومه، وأظهر عزمه على الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفق فيما بينه وبينهم على الغدر برسول الله وقتله،

وأسند القتل الى أربد. وقال له انني سأشغل محمداً فتغافله واقتله. وقد ذكرنا ذلك في أول هذا الجزء. ونلاحظ أن عامراً لم يحاول الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم. خشية أن يخفق فيما يريد فيتعرض للقتل، وانما أسند ذلك الى أربد خبثاً ومكراً، لكي يتبرأ من صنيع أربد اذا ما فشلت المؤامرة، ويتظاهر بعدم العلم بها، وعجز أربد وعامر عن تنفيذ مؤامرتهما، ولما تيقن عامر ومن معه أنهم أضعف من أن يقدموا على ما أرادوا، أخذ يساوم رسول الله صلى الله عليه وسلم على اسلامه، ولما لم يعطه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراد، وقال له لك أعنة الخيل، غضب وقال: أتعطيني شيئاً هو لي؟ وقال عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا، وخرج مغاضباً، ومات في الطريق.

ان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لك أعنة الخيل) يعطينا المنزلة الحقيقية لعامر في الفروسية، فهو حقيق بها لو أسلم، وقول عامر: (أتعطيني شيئاً هو لي؟) يكشف لنا ما في نفس هذا الجبار من اعتزاز بفروسيته.

واشتهر لعامر من الأفراس المزنوق ودعلج والرحالة، ورثى المزنوق بعد عقره بقوله:

ونعم أخو الصعلوك أمس تركته
بتضروع يمرى باليدين ويعسف

ـ بسطام بن قيس بن مسعود ـ

وثالث هؤلاء الأبطال الذين برزوا في الفروسية هو بسطام بن قيس ابن مسعود، وهو سيد شيبان، وفارس ربيعة، وصاحب الغارات المتواصلة والحروب المتتابعة.

نشأ بسطام في بيت كان يحوز رئاسة بني شيبان بلا منازع، فآباؤه وأجداده أعلام في المجد والشرف والرئاسة، وتربى بسطام في هذا البيت الشامخ على كثير من العادات العربية الكريمة، وتمرس وهو

شاب يافع بفنون الحرب والقتال. وبرز في ميادين الفروسية. حتى تسنم قمتها مع صاحبيه: عتيبة وعامر. وضرب المثل بفروسيته كزميليه.

وانما لنقدر للعرب معرفتها الدقيقة في اعطاء هؤلاء الثلاثة ميزاتهم الخارقة في الفروسية، ومنحهم المنزلة العالية، والدرجة الرفيعة منها، على الرغم من أن الحوادث والأيام التي حفظت لنا مواقف بسطام لا تعطينا الأضواء الكاشفة لادراكه المكانة القصوى في الفروسية، ولعل العرب بنت حكمها على مواقف في غارات وحروب لم تصلنا أحداثها، وما بين أيدينا من المصادر يخبرنا عن خمس معارك خاضها بسطام، أربع منها لم يحالفه الحظ فيها، ففي يوم الغبيط أسر وهزم جيشه، وفي يوم ذي طلوح هزم جيشه وأسر شريكه في الرئاسة الحارث بن شريك، وهرب بسطام وفي ذلك يقول عميرة بن طارق:

فأفلت بسطام جريضا بنفسه
وغادرن في كرشاء لدنا مقوما

وفي يوم الاياد فر وهزم الجيش الذي معه، وقال في ذلك العوام الشيباني:

ففر أبو الصهباء اذ حمس الوغى
وألقى بأبدان السلاح وسلما

أما المعركة الوحيدة التي انتصر فيها بسطام من تلك المعارك فكانت (يوم قشاوة)، ويؤسفنا أن نقول ان بسطاما قد أظهر في هذه المعركة كثيراً من الخداع والمراوغة، والكيد الذي لا يليق بخلق الفرسان العظماء، ولكي لا نظلم بسطاما في حكمنا، فانه يجمل ان نورد ما بدر من بسطام في هذا اليوم، واليك بعضا مما روى عن هذه المعركة:

خرج بسطام غازيا لبني يربوع، فأتى الصريخ بن عاصم بن عبيد ابن ثعلبة، فركب سبعة فوارس من بني عاصم، فيهم بجير بن عبدالله، ومليل بن عبدالله، والاضجر ـ حريث بن عبدالله، ومالك ابن حطان بن عوف، وخرج معهم قوم من بني سليط، حتى ادركوا

القوم.

فلما نظروا الى جيش بسطام هابوا أن يقدموا عليهم، فقال مليل ابن أبي مليل، يا بني يربوع، انه لا طاقة لكم بهذا الجيش الا بمثله، فأرسلوا بجيرا يستصرخ لكم، وانه امرهم بذلك مخافة أن يقتل بجير فقال لا والله لا أذهب صريخا بعد أن عاينت القوم، فلما غلبه قال لابن عمه: اذهب أنت يا اضجر: فقال: لا والله لا أذهب، فقال لمالك بن حطان: اذهب أنت صريخا. فقال: وأنا لا أذهب، فقال لهم مليل ابن أبي مليل: فأعطوني قولا أثق به، واطمئن عليه، لتضبطون لي انفسكم، ولا تقدموا على الجيش حتى آتيكم، ففعلوا، وذهب مليل صريخا، فلما سار نظر اليه بسطام فقال لأصحابه: ذلك الذي يركض سيجلب عليكم شرا، فانظروا ان تفرغوا من أصحابه قبل أن يأتيكم الناس، فبرز بسطام في فرسان من أصحابه حتى دنا من القوم، فكلمه بجير، فقال له بسطام: من أنت؟ قال: أنا بجير بن عبدالله بن الحارث. فقال: يا بجير، ألم تكن تزعم أنك فتى يربوع وفارسها؟ قال: بلى، وأنا الآن أزعمه، فأبرز لي، فأبى بسطام أن يبرز له، وقال: ما أظن نسوة بني يربوع يظنن بك هذا الظن وأنت تحجم عن الكتيبة حين رأيتها، ثم قال لصاحبيه اضجر ومالك مثل ذلك.

فلم يزل يشحذهم ويحضهم كيدا وخديعة، حتى حملوا على أفراسهم وسط القوم، فأما بجير فلقيه الملبد بن مسعود — عم بسطام — فاعتنق كل واحد منهما صاحبه فوقعا عكمي عير، فاعتلاه بجير. فلما خشي الملبد أن يظهر عليه بجير نادى رجلا من شيبان، يقال له: لقيم بن أوس: يا لقيم أغثني، فقد قتلني اليربوعي، فمال اليه لقيم فضربه على رأسه فقتله. وخرّق اضجر بالقنا، وترك مطروحا، فظنوا أنهم قتلوه. وضرب مالك بن حطام فأم، فقاسى مأموما سنة، ثم مات من أمته، وانهزمت بنو سليط.

فلما انهزموا قال بسطام: يا بني شيبان: أيسركم ان تأسروا أبا مليل؟ قالوا: نعم، قال: فانه أول فارس يطلع عليكم الساعة، فأتاه مليل فأخبره خبرنا، وخبر ابنه، فلم ينتظر الناس، فليتخلف معي

منكم فوارس، فانكم ستجدونه مكبا على بجير حين عاين جيفته.
فكمن له بسطام في عشرة فوارس قريبا من مصرع أصحابه، فلم يلبثوا الا قليلا حتى طلع عليهم على فرسه بلعاء، فلما عاين بجيرا نزل فأكب على جيفته يقبله ويحتضنه، وأقبل بسطام ومن كان معه يركضون، حتى أتوه، فوجدوه مكبا عليه، وبلعاء يعلك لجامه واقفا، فأسروه، وأخذوا فرسه.

لقد نقلنا هاتين الحادثتين بنصيهما كما رويتا، ليطلع القارىء على ما في نفس بسطام من كيد وخداع وقسوة وحقد.

ان بسطام أراد أن يغرر بهؤلاء الفرسان الأبطال الذين أخذ عليهم صاحبهم عهدا ألا يقدموا على هذا الجيش حتى يرجع اليهم، وكان قصده من هذا العهد ألا يلقى الفرسان انفسهم في وجه هذا الجيش حتى يرجع اليهم بجيش مثله.

وحاول بسطام اقحام هؤلاء في وجه جيشه بطريق المكر والخديعة، وحينما طلب منه بجير أن يبارزه، جبن وأبى أن يبرز له، ولم يكف عن مراوغته وخداعه، حتى أوقعهم في الجيش. ومن موقف هؤلاء وعدم رجوع أي منهم لاستصراخ قومه، ومن زجهم بأنفسهم في وجه هذا الجيش بعد تحضيض بسطام لهم مع أنهم أعطوا العهد لصاحبهم ألا يقدموا حتى يرجع، نعلم أي فرسان عظماء هم.

والحادثة الأخرى التي يندى لها الجبين أن بسطاما فجع الشيخ بابنه البار، وفارس قومه وهو يعلم حبه الشديد وتعلقه الزائد ببجير، فكمن له مع عشرة من فرسانه، وأخذه أسيرا وهو مكب على ابنه يقبله ويحتضنه، وسلبه فرسه، وأقسم أبو مليل وهو أسير الا يأكل طعاما لبسطام، فكان يطرد الكلاب عن طعامه خشية أن يظن أنه أكله، حتى جهد، فلما رأوا جهده قال بشر بن قيس لأخيه بسطام، اني لا آمن أن يموت أسيرك هذا في يديك هزلا فتسبك به العرب، فبعه نفسه، فأطلقه على ألا يتبعه بدم ابنه بجير، وألا يغير عليه ثم جز ناصيته.

وإذا كان من الصعب أن يجد المرء عذرا لتغرير بسطام بالفرسان

والمكر بهم، حتى جعلهم طعمة لجيشه، وقد نكل عن أن يبارز واحدا منهم حين دعاه، فاننا لا نجد عذرا لبسطام في تنازله عن أخلاق الفروسية فيما صنع بأبي مليل، أما المعركة الخامسة فقد قتل فيها بسطام، وشرد جيشه، وكانت يوم الشقيقة.

وقد بلغ الغرور ببسطام غايته في غزوته الأخيرة، فقال لأمه ليلى بنت الأحوص، إني قد أخدمتك من كل حي أمة، ولست منتهيا حتى أخدمك أمة من بني ضبة، فقالت له أمه: يا بني لا تفعل، فان بني ضبة حي لا يسلم ولا يغنم منهم من غزاهم.

ولم يلتفت الى قول أمه، وخرج لغزو بني ضبة، وقتل بسطام في هذه المعركة، وولت بنو شيبان الادبار وقتل وأسر كثير منهم.

واذا كنا لا نرى من شخصية هذا الفارس الرئيس الا جوانب قاتمة، فلعلنا نتلمس شيئا من الاشراق فيما رثى به، قالت أمه ترثيه:

ليبك ابن ذي الجَدين بكر بن وائل
فقد بان منها زينها وجمالها
اذا ما غدا فيهم غدوا وكأنهم
نجوم سماء بينهن هلالها
فلله عينا من رأى مثله فتى
اذا الخيل يوم الروع هب نزالها
عزيز المكر لا يهد جناحه
وليث اذا الفتيان زلت نعالها
وحَمّال أثقال وعائذ محجر
تحل اليه كل ذاك رحالها
سيبكيك عان لم يجد من يفكه
ويبكيك فرسان الوغى ورجالها
ويبكيك اسرى طالما قد فككتهم
وأرملة ضاعت وضاع عيالها
مفرج حومات الخطوب ومدرك الـ
حروب اذا صالت وعز صيالها

لا نريد ان نتعرض لهذه الأبيات بكثير من التفصيل، لكنا سنشير الى بعض اللمحات التي أبدتها هذه الأم الشاعرة، التي بكت سيد شيبان، وفارس ربيعة، فأبكت معها الناس، لقد تجمعت أحاسيس الأمومة، ونبضات الشاعرية في نفس هذه المرأة الثكلى، فراحت تكشف عن مكامن الاشراق في شخصية ابنها التي هي أعرف بها، وانظر الى قولها: (لا يهد جناحه) فقد أظهرت قوة جلده، وشدة صبره، وعظيم احتماله.

وأمعن النظر في بيتها:

سيبكيك عان لم يجد من يفكه
ويبكيك فرسان الوغى ورجالها

لقد اشركت في البكاء على فقيدها أبطال القبيلة، وفرسان الوغى، ورجال الحرب، بعد أن أدخلت بكر بن وائل في مأتمها في صدر أبياتها، وأخيراً ضمت الأسرى والأرامل والأيتام الى هذا المأتم. ولا يخفى ما في هذه الأبيات من حزن عميق، وألم بالغ، وأسى متمكن، فقد كررت البكاء أربع مرات.

ولنستمع لعبدالله بن عنمة الضبي الذي كان مجاورا في بني شيبان في رثائه لبسطام قال:

لام الأرض ويل ما أجنت
بحيث أضَرَ بالحَسَن السبيل
يقسم ما له فينا وندعو
أبا الصهباء اذ جنح الاصيل
أجَدَّكِ لن تَريه ولن نراه
تخب به عذا فرة ذمول
الى ميعاد أرعن مكفهر
تُضَمَّرَ في جوانبه الخيول
لك المرباع منها والصفايا
وحكمك والنشيطة والفضول

فـــان تجــزع عـــلـيـــه بـنـــو أبـيـــه
فــقــد فــجــعــوا وفــاتــهــم جــلــيــل
بــطــعـــام اذا الأشــــوال راحـــت
الى الحــجــرات لــيــس لهــا فــصــيــل

لقد استغرب ابن عنمة أن تضم الأرض هذا الرئيس المحارب، وان تخبو هذه النار المتأججة، وان تكف هذه الحروب المتواصلة التي كان يقودها هذا الفارس الخطير، انه لن تراه النساء في السلم، ولن يراه الرجال في الحروب، فقد أسدل الستار على تلك الغزوات المتكررة، والمعارك الطاحنة، والهجمات المباغتة، فقد قتل قطب رحاها بسطام، ونوه الشاعر بجوده ومكانته في ثاني الابيات وفي آخرها.

واذا كنا قد خصصنا هؤلاء الفرسان الثلاثة الذين ضربت بهم الأمثال، فمن حق البحث أن نذكر ثلاثة لا يقلون عن هؤلاء فروسية وشجاعة واقداما، وهم: عمرو بن معدي كرب الزبيدي، فارس اليمن بلا منازع، وربيعة بن مكدم حامي الظعن، وقاهر الأبطال، وفارس الشباب، والسليك بن السلكة، فارس الصعاليك وقد لقب بسليك المقانب.

ـ عمرو بن معدي كرب ـ

كان عمرو بن معدي كرب فارسا نادر المثال، ذا طاقات خارقة، وبراعات فريدة، وقدرات قتالية عجيبة، وقد ذاع صيته الفروسي، واشتهرت قوته القتالية، ولم ينل سيف من الشهرة والذيوع والاهتمام على مر التاريخ ما حازه الصمصامة العمري، ولقد بلغ من الاهتمام به ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما جاءه عمرو أخذ الصمصامة منه وأمر أن يُجَرّب، ثم قال لعمرو: لم نجد فيه ما يتناسب مع شهرته، قال عمرو: أخذت السيف ولم تأخذ الساعد الذي يَضرب به.

وحينما انتقلت ملكيته الى الخليفة الهادي بعد ما يزيد على قرن من وفاة صاحبه أقام الهادي احتفالا بهذه المناسبة، قال فيه الشعراء كثيرا من القصائد، وقال أحد الشعراء في هذه المناسبة:

حاز صمصامة الزبيدي دو
ن الانام موسى الأمين

سيف عمرو وكان فيما سمعنا
خير ما اطبقت عليه الجفون

وعمرو بطل حقيقي يكاد أن يكون اسطوريا، فضخامة جسمه، وامتداد طوله الذي بلغ عشرة أشبار، وقوته الخارقة جعلته شبيها بالاسطورة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رأى عمرا قال: (الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرا) تعجبا من عظم خلقه، وكان مع عظيم هذا الخلق قد وهبه الله قوة بدنية خارقة.

وعمرو ذو خلق سجيح، وروح مرحة، ونفس مطمئنة، ولهجة صادقة، لا كما يزعم الرواة، من أنه كان يكذب. وكان استنادهم في ذلك أنه حدّث يوما أنه قتل رجلا وسماه وكان ذلك الرجل حاضرا، فقيل له: ان قتيلك ها هو جالس معك، فقال عمرو: اننا نخوف الناس بهذه الأقوال، وغاب عن هؤلاء الرواة أن عمرا قال هذه القصة وسنه فوق المائة باجماعهم. ولم ينتبه أحدهم ان من بلغ المائة من العمر ينسى الحوادث بعد أيام، فكيف اذا مضى عليها خمسون سنة، ومما زاد تعلق الرواة بالصاق هذه الوصمة بعمرو أن اعتذاره الخاطىء كان تهربا من أن يذكر الحقيقة عن نسيانه لكبر سنه، فيتهم بالخرف، ودليلنا على وهم الرواة انهم لم يذكروا عن عمرو كذبة غير هذه.

وفارسنا شاعر متمكن، ومحدث مقتدر، يملك على السامعين مشاعرهم، ويأسرهم بطلاوة قوله، وحسن بيانه، وجميل أسلوبه، وتتخلل أحاديث عمرو عبارات جارحة، ولكنها مقبولة، لأنها تنبع من نفس طفولية صافية تحيط بها السذاجة من كل جانب، ومما يخفف من وقع كلمات هذا الفارس الجارحة ما ينبع في احاديثه من صراحة

صادقة، وما يكتنفها من مرح دفين.

ولعمرو في الحروب خبرة متمكنة، ومعرفة كاملة، ودراية واسعة، وقد ضربت العرب المثل بفروسيته، ولكن بأسلوب يختلف عن المثل الذي ضرب بالثلاثة الفرسان سابقي الذكر، فقيل: أفرس من عِتيبة، وافرس من عامر، وأفرس من بسطام. وقيل فيه: (فارس ولا كعمرو) وهذا يدلنا على عناية العرب وشديد اهتمامها بتحديد مضارب أمثالها، ودقة ملاحظاتها. وقد ضرب المثل به في اقدامه أبو تمام في العصر العباسي ــ حينما مدح أحمد بن المعتصم ــ فقال:

اقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء اياس

ولعل سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرا عن الحرب وأدواتها يعطينا المنزلة المرموقة لعمرو، سأله عن الحرب فقال: (مرة المذاق، اذا قلصت عن ساق، من صبر فيها عُرِف، ومن ضعف عنها تلف، وأنشد:

الحرب أول ما تكون فتية
تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا استعرت وشب ضرامها
عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت
مكروهة للشم والتقبيل

وسأله عن السلاح فقال: الرمح اخوك وربما خانك، والنبل منايا تخطىء وتصيب، والترس هو المِجنّ، وعليه تدور الدائرة، والدرع مشغلة للفارس، متعبة للراجل، وانها لحصن حصين، وسأله عن السيف فقال: قارعتك امك عن الثكل. قال عمر: بل امك، قال: الحُمَّى أضرعتني).

لقد انسجم عمرو في حديثه، وتصور وكأنه يحدث شبان قبيلته، ونسي انه أمام كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قهروا صناديد الجاهلية ومنهم عمرو نفسه، وقهروا ممالك الفرس وأبطالها.

وممالك الروم وفرسانها، ونسي أو تناسى أنه يخاطب أميرهم وخليفتهم عمر بن الخطاب، والقى القول على عواهنه دون اكتراث بعمر رضي الله عنه، ولم يغفر عمر لعمرو فظاظته بل ردها عليه، فقال: بل أمك، وهنا انقلب الحديث من مجراه القصصي الى الجد والصرامة، وأجاب عمرو بمثل دلنا على ما لدى هذا الفارس من ذكاء لا يخلو من دهاء، ومن فطنة تصاحبها طيبة، فهو قد انتصر لنفسه بطريقة أرضى بها عمر والصحابة.

وظهرت فروسية عمرو في أول معركة شارك فيها، فقد غزت خثعم قومه، وهزمتهم، ونظر عمرو الى لواء أبيه ساقطا بعد أن كان قائما: فاتجه الى أبيه، وطلب منه أن ينزل له عن فرسه، فقال: اليك مائق: فقال له بنو زبيد: خلّه أيها الرجل وما يريد، فان قتل كفيت مؤنته، وان ظهر فهو لك، فألقى اليه بسلاحه، فركب ثم رمى خثعم بنفسه، حتى خرج من بين أظهرهم، ثم كر عليهم، وفعل ذلك مرارا، وحملت عليهم بنو زبيد، فانهزمت خثعم وقهروا، فقيل له يومئذ: فارس زبيد.

وأصبح عمرو بعد هذه الواقعة فارس قومه، وبطلهم المغوار، وهو في مقتبل الشباب، وزهرة الفتوة، وأضحى ديدنه القتال، وهمه المجالدة والغزو، وظل يمارس الحروب طول حياته ممارسة بطولية خارقة، ولم نعرف على الاطلاق واحدا برز في مجال الفروسية العليا في حروب الجاهلية وفي فتوح الاسلام ما يجعله في المكانة التي لا مثيل لها غير عمرو، ولقد اعتبره المجتمع الحربي الجاهلي فارسا نادر المثال، كما عده التاريخ الاسلامي بطلا مجاهدا فذا في تضحياته واقدامه، ومما يزيد من مكانة عمرو الفروسية، وجهاده البطولي، أنه حارب في الفتوح وقد بلغ من العمر عتيا، ونحن لا نميل الى ما قرره المؤرخون من أن سنه في الفتوح قد جاوز المائة، ولكننا لا نشك في أنه قد طعن في العمر وقد صار شيخا كبيرا.

لقد سجلت له واقعة القادسية وغيرها كثيرا من البطولات الخارقة الخالدة، وأبدى من الاقدام والجرأة والتضحية في جهاده مالا مزيد

وراءه، ورأينا من عمرو في الوقائع هجمات واندفاعات يكاد يستحيل صدورها عن شيخ مثله. ولنستمع لما رواه التاريخ عن هجمة من هجماته في القادسية.

(قال عمرو لاصحابه: اني حامل وعابر الجسر، فان اسرعتم بمقدار جزر جزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عقر بي القوم، وأنا قائم بينهم وقد قتلت وجردت، وان ابطأتم وجدتموني قتيلا بينهم وقد قتلت وجردت. ثم سار فحمل على القوم فقال بعضهم يا بني زبيد، تدعون صاحبكم، والله مانرى أن تدركوه حيا، فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فرس من العجم فأمسكها، وان الفارس ليضرب الفرس فما تقدر أن تتحرك من يده، فلما غشيناه رمى الاعجمي بنفسه وخلى فرسه، فركبه عمرو، وقال: أنا أبو ثور، كدتم — والله — تفقدونني، قالوا: أين فرسك؟ قال رمى بنشابة، فشب، فصرعني وعار).

ها هو عمرو لم يتغير منه شيء، فهو في ريعان الشباب، وفوران الفتوة، يقتحم صفوف بني خثعم ليسجل نصرا بعد هزيمة لقبيلته، وهو الآن بعد أن كبر وطعن في السن يقذف بنفسه في وسط جيش الفرس، ليفتح للمسلمين ثغرة في صفوف أعدائهم، محددا الفترة التي يمكن فيها أن ينتصر ويكسب وهي (جزر جزور) ومقدرا المهلة التي ان طالت عن تلك ان يقتل ويسلب. ويدلنا هذا التحديد من عمرو على خبرة حربية فائقة، كما يدلنا هذا الهجوم الفردي على ما يتحلى به هذا الفارس المغوار من شجاعة قوية، وتضحية متناهية، واقدام خطير، وثقة بالنفس لا حدود لها، كما تطلعنا هذه القصة على ما لدى عمرو من معرفة متقصية في شئون الحرب، ودراية متمكنة في أحوال القتال، وفروسية مقتدرة في مجال المعارك.

ويحق لنا أن نجعل عمرا بطلا عالميا فريدا، ففيه من الصفات القتالية النادرة والقدرات الفروسية المكتملة، والخبرات الحربية الواسعة، والقوة الجسمية الهائلة، والممارسة الطويلة المستمرة للقتال — على امتداد عمره — مالا نجده عند غيره.

ولقد عده عمر رضي الله عنه حينما بعثه مع صاحبه طليحة الاسدي الى سعد بن أبي وقاص عن الف كما عد صاحبه كذلك، وعمر بن الخطاب أحد فرسان المسلمين المبرزين، وهو لا يلقى القول على عواهنه، وهي شهادة ذات أهمية عن مكانة عمرو القتالية، وكان عمر يأمر أمراءه أن يستشيروا عمرا في الحروب ولا يُؤمرُوه، وعمر من أعرف الناس بالرجال. وبين أيدينا شهادة من قائد صحابي جليل تبين عن مدى تضحية عمرو وغنائه في الجهاد، قال سعد عنه (لقد كان له موطن صالح يوم القادسية، عظيم الغناء، شديد النكاية للعدو، فقيل له: فقيس بن مكشوح؟ فقال: هذا أبذل لنفسه من قيس، وان قيسا لشجاع).

ولعمرو ميزة كريمة وهي اعترافه بالحقيقة، واقراره بعجزه وهربه اذا كان. وهذه الخصلة الكريمة نجدها في فارس اليمن الاكبر جلية واضحة فهو لا يماري ولا يتهرب من الحقيقة المؤلمة، بل يعلنها دون مواربة أو تغطية، ونلمس هذه المزية عند بعض فرسان القبائل اليمنية، ولا نجدها عند فرساننا العدنانيين، فهم يأبون الاعتراف بها، ويتحاشون التحدث عنها.

ولقد أتحفنا عمرو بحقيقة نعتبرها ميزانا دقيقا في معرفة مكانة أربعة من أبرز أبطال العرب في الفروسية، وحديث عمرو الذي اطلعنا فيه على مكانة هؤلاء يكشف لنا بجلاء ما تحتويه الساحة العربية العدنانية من أبطال يتعاورون قمة الفروسية، ولو شاء عمرو لاكثر، واليك ما قاله عمرو: (لو سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها، مالم يلقني حُرّاها أو عبداها، فأما الحران: فعامر بن الطفيل وعتيبة بن شهاب، وأما العبدان: فأسود بني عبس، يعني عنترة، والسليك بن السلكة، وكلهم قد لقيت، فأما عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت، وأما عتيبة فأول الخيل اذا غارت وآخرها اذا آبت، وأما عنترة فقليل الكبوة، شديد الكلب، وأما سليك فبعيد الغارة كالليث الضاري).

لقد أخبرنا عمرو عن هؤلاء أخبار العالم المطلع، وحدثنا حديث

الفارس المتواضع ، الذي يفضل الصدق ، وينبيء بالحقائق ، ولقد عده النقاد القدامى (أحد من يصدق عن نفسه في شعره) لقوله :

ولقد أجمع رجليّ بها
حذر الموت واني لفرور
ولقد أعطفها كارهة
حين للنفس من الموت هرير

ويبلغ الصدق من عمرو أن يروى قصة أسره مع ربيعة بن مكدم الفراسي ، وأن يذكر تفاصيل تلك الواقعة بما فيها من مواقف التفوق لربيعة ومواقف الضعف له . ان عمرا سجل حافل للبطولة الفروسية ، ومعيار صادق لاعلامها ، وهو أحد فرسانها الاعلام الذين سجل لهم التاريخ صفحات من البطولة خالدة .

ـ ربيعة بن مكدم ـ

ومن فرسان القمة وأبطالها المشهورين ربيعة بن مكدم ، وقد قتل وهو في عنفوان الشباب ، وتزعم الرواة أنه كان صغير السن جدا حينما قتل ، ونحن لا نؤمن بذلك ، ولكننا لا ننكر أنه قتل وهو شاب ، فهم عندما يذكرون لقاءه مع دريد بن الصمة يصفونه بالغلام ذي الذؤابة ، ولا تكون الذؤابة في ذلك العصر الا على صغار السن . ثم يذكرون أن الظعينة التي كانت معه زوجته ، ومن هنا نعلم أن قولهم مبالغ فيه ، وفي يوم مقتله يصرون على الصاق تلك الصفة به ، ويؤكدون أن له ذؤابة . واذا كان من المحتمل تصديق تلك الصفة في الحادثة الاولى ، فانه من غير الجائز قبولها في مقتله ، لأنه قد مضى زمن بين الحادثتين ليس بالقليل .

ولربيعة بن مكدم مكانة خاصة في الذهن الفروسي والبطولي لدى العرب ، فقد أولوه من نفوسهم وأعماق مشاعرهم منزلة رفيعة لا تدانيها منزلة .

وكان بعض الفرسان والشعراء العرب اذا مروا بقبر ربيعة ينحرون عنده، اعظاما لصاحبه، وتكريما لبطولته ومحافظته، وتقديرا لتضحياته واقدامه، واعترافا بفضله وابائه.

ويعتذر أحد الشعراء حينما مر بقبر ربيعة ولم ينحر ناقته لبعد طريقه، وقد نسب هذا الاعتذار لحسان، قال:

نفرت قلوصي من حجارة حرة
بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري يا ناق منه فانه
سباء خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه
لتركتها تحبو على العرقوب

وتمدنا الروايات بواقعتين فيهما كثير من التفاصيل التي تبين عن جدارة ربيعة الفروسية، وشجاعته البطولية، واليك أولاهما:

(خرج دريد بن الصمة في فوارس من جشم، يريد الغارة على بني كنانة، فلما كان بواد لبني كنانة رفع له رجل من ناحية الوادي معه ظعينة، فلما نظر اليه، قال لفارس من أصحابه: صح به أن خلّ الظعينة وانج بنفسك ـ وهو لا يعرفه ـ فانتهى اليه الرجل، والح عليه، فلما أبى ألقى زمام الراحلة، وقال للظعينة:

سيري على رسلك سير الآمن
سير رداح ذات جأش ساكن
ان انثنائي دون قرني شائني
فأبلي بلائي واخبري وعايني

ثم حمل على الفارس فصرعه، وأخذ فرسه، فأعطاه الظعينة.

فبعث دريد فارسا آخر لينظر ما صنع صاحبه، فرآه صريعا، فصاح به فتصام عنه، فظن أنه لم يسمع، فغشيه، وألقى زمام الراحلة الى الظعينة، وهو يقول:

خـــل ســـبـــيـــل الحـــرة المـــنـــيـــعـــة
انـــك لاق دونـــهـــا ربـــيـــعـــة
في كـــفـــه خـــطـــيـــة مـــطـــيـــعـــة
أولا، فـــخـــذهـــا طـــعـــنـــة ســـريـــعـــة
فالطعـــن مني في الوغى شريعـــة

ثم حمل عليه فصرعه.

فلما أبطأ على دريد بعث فارسا آخر، لينظر ما صنعا، فانتهى اليهما فرآهما صريعين، ونظر اليه يقود الظعينة، ويجر رمحه، فقال له الفارس: خل عن الظعينة. فقال لها ربيعة: اقصدي قصد البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

مـــاذا تـــريـــد مـــن شـــتـــيـــم عـــابـــس
أمـــا تـــرى الـــفـــارس بـــعـــد الـــفـــارس
أرداهما عامل رمح يابس؟

ثم طعنه فصرعه، فانكسر رمحه.

ولما أبطأ عن دريد ارتاب، وظن أنهم أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل، فلحق بهم، فوجد ربيعة بن مكدم لا رمح معه، وقد دنا من الحي، ووجد أصحابه قد قتلوا، فقال دريد: أيها الفارس: ان مثلك لا يقتل، وان الخيل ثائرة بأصحابها، ولا أرى معك رمحاً، وأراك حديث السن، فدونك هذا الرمح: فاني راجع الى أصحابي، فمثبطهم عنك.

وأتى دريد أصحابه، فقال: ان فارس الظعينة قد حماها، وقتل فرسانكم، وانتزع رمحي، ولا مطمع لكم فيه، فانصرف القوم، وقال دريد:

مـــا ان رأيـــت ولا ســـمـــعـــت بمـــثـــلـــه
حـــامـــي الـــظـــعـــيـــنـــة فـــارســـاً لـــم يـــقـــتـــل
أودي فـــوارس لـــم يـــكـــونـــوا نـــهـــزة
ثـــم اســـتـــمـــر كـــأنـــه لـــم يـــفـــعـــل
مـــتـــهـــلـــلا تـــبـــدو أســـرة وجـــهـــه
مـــثـــل الحـــســـام جـــلـــتـــه أيـــدي الـــصـــيـــقـــل

يـزجـي ظـعـيـنـتـه، ويـسـحـب رمحـه
متـوجـهـاً بمـنـاه نـحـو المـنـزل
وتـرى الـفـوارس مـن مخـافـة رمحـه
مـثـل الـبـغـاث خـشين وقـع الأجـدل
يـا لـيـت شـعـري مـن أبـوه وأمـه؟
يـا صـاح مـن يـك مـثـلـه لـم يجـهـل

وقال ربيعة:

ان كـان يـنـفـعـكِ الـيـقين فـسـائلي
عـنـي الـظـعـيـنـة يـوم وادي الأخـرم
اذ هـي لأول مـن أتـاهـا نـهـبـة
لـولا طـعـان ربـيـعـة بـن مـكـدم
اذ قـال لي أدنـى الـفـوارس مـيـتـة
خـلّ الـظـعـيـنـة طـائـعـاً لا تـنـدم
فـصـرفـت راحـلـة الـظـعـيـنـة نـحـوه
عـمـداً لـيـعـلـم بـعـض مـا لـم يـعـلـم
وهـتـكـت بـالـرمـح الـطـويـل اهـابـه
فـهـوى صـريـعـاً لـلـيـديـن ولـلـفـم
ومـنـحـت آخـر مـثـلـه جـيـاشـة
نـجـلاء فـاغـرة كـشـدق الأضـجـم
ولـقـد شـفـعـتـهـمـا بآخـر ثـالـث
وأبـى الـفـرار لي الـغـداة تـكـرمـي

وبقدر ما تكشف لنا هذه الواقعة من بسالة خارقة، وفروسية متمكنة لدى ربيعة، تكشف لنا مزية من أنبل المزايا وأرفعها لدى العرب، فقد أبى دريد الا أن يعظم هذا الفارس العظيم ويكبره، على الرغم من أنه قتل ثلاثة من فرسانه الأشداء، ولما رأى رمح ربيعة مكسوراً أعطاه رمحه خشية أن يداهم وهو أعزل، ثم ثبط فرسانه عنه.

ودريد من أبطال العرب البارزين، وفرسانهم المشهورين، ويؤسفنا أن المجال لا يتسع في هذا الكتاب لذكر من أشتهر من فرسان

العرب، لأن هذا الكتاب خصص للخيل، وأتينا بنخبة من أبطال الفرسان كمثال لما ترتبط به الفروسية مع أبطالها، وليس لاستقصاء عدد الفرسان وأخبارهم، اذ أن ذلك يحتاج الى كتاب خاص عن فرسان الجاهلية.

والواقعة الأخرى نرويها كاملة كما جاءت في الأغاني عن أبي عمروبن العلاء: (قال أبو عبيدة: قال أبو عمرو بن العلاء: وقع تدارؤ بين نفر من بني سليم بن منصور ونفر من بني فراس بن مالك بن كنانة، فقتلت بنو فراس رجلين من بني سليم بن منصور ثم انهم ودوهما. ثم ضرب الدهر ضرباته، فخرج نبيشة بن حبيب السلمي غازياً، فلقي ظعناً من بني كنانة بالكديد، في نفر من قومه، وبصر بهم نفر من بني فراس بن مالك فيهم عبد الله بن جذل الطعان بن فراس، والحارث بن مكدم أبو الفارعة وقال بعضهم أبو الفرعة، أخو ربيعة بن مكدم، قال وهو مجدور يومئذ يحمل في محفة، فلما رآهم أبو الفارعة، قال: هؤلاء بنو سليم يطلبون دماءهم. فقال أخوه ربيعة بن مكدم: أنا أذهب حتى أعلم علم القوم، فآتيكم بخبرهم فتوجه نحوهم، فلما ولى، قال بعض الظعن: هرب ربيعة. فقالت أخته أم عزة بنت مكدم: أين تنتهي نفرة الفتى؟ فعطف وقد سمع قول النساء فقال:

لقد علمن انني غير فرق
لا طعنن طعنة وأعتنق
أعمل فيهم حين تحمر الحدق
عضباً حساماً وسناناً يأتلق

قال: ثم انطلق يعدو به فرسه، فحمل عليه بعض القوم، فاستطرد له في طريق الظعن وانفرد به رجل من القوم، فقتله ربيعة. ثم رماه نبيشة أو طعنه، فلحق بالظعن يستدمي حتى أتى أمه أم سيار، فقال: اجعلي على يدي عصابة وهو يرتجز ويقول:

شدى على العصب أم سيار
لقد رزيت فارساً كالدينار
يطعن بالرمح أمام الأدبار

فقالت أمه:

إنـــا بـــنـــو ثـــعـــلـــبـــة بـــن مـــالـــك
مـــرزوء أخـــيـــارنـــا كـــذلـــك
مـــن بين مـــقـــتـــول وبين هـــالـــك
ولا يـــكـــون الـــرزء الا ذلـــك

قال أبو عبيدة : وشدت أمه عليه عصابة. فاستسقاها ماء فقالت: انك ان شربت الماء مت. فكر راجعاً يشد على القوم ويذبهم، ونزفه الدم حتى اثخن، فقال للظعن: أوضعن ركابكن خلفي حتى تنتهين الى أدنى الحي فاني لما بي، وسوف أقف دونكن لهم على العقبة، واعتمد على رمحي، فلن يقدموا عليكن لمكاني. ففعلن ذلك، فنجون الى مأمنهن. قال أبو عبيدة: قال أبو عمرو بن العلاء ولا نعلم قتيلا ولا ميتاً حمى ظعائن غيره قال: وانه يومئذ لغلام له ذؤابة. قال فاعتمد على رمحه، وهو واقف لهم على متن فرسه، حتى بلغن مأمنهن وما تقدم القوم عليه. فقال نبيشة بن حبيب: انه لمائل العنق، وما أظنه الا قد مات. فأمر رجلا من خزاعة كان معه أن يرمي فرسه. فرماها فقمصت فمال عنها ميتاً. قال: ويقال بل الذي رمى فرسه نبيشة، فانصرفوا عنه، وقد فاتهم الظعن.

قال أبو عبيدة: ولحقوا يومئذ أبا الفارعة الحارث بن مكدم، فقتلوه، والقواعلي ربيعة أحجارا).

ان في موقف ربيعة هذا كثيراً من البطولات والتضحيات كما اظهرت هذ الواقعة تصميم ربيعة وتخطيطه الحربي وهو مثخن بالجراح مشرف على الموت لإيصال ظعنه الى مأمنهن. لقد تماسك ربيعة على متن فرسه واستند على رمحه وهو في نزعات الموت. وانها لصورة مرعبة لذلك الفارس المقدام الذي أحجم عنه مقاتلوه هيبة لمكانته وذعراً من صولته وخشية من هجماته ولم يعلموا أنه ميت حتى فاتهم الظعن.

لقد بينت هذه الواقعة بوضوح تضحية ربيعة بنفسه في سبيل المحافظة على حرمه وان لا تهان نساؤه، ومن هنا يظهر أي مكانة للمرأة في نفس العربي، وفي القصة ندرك موقفاً رائعاً لأم البطل وقد

جاءها والدماء تسيل منه وهو ينبئها بدنو أجله ويطلب منها أن تشد على جرحه الأليم لقد أخبرته أن موقفه هو موقف خيار الأبطال من رجالها وقومها ولا يكونون أبطالا الا بتعرضهم للقتل والهلاك وليس في الأمر ما يهولها أو يحزنها، فمصير فارسها المغوار وبطل العرب المحامي عن الذمار مصير آبائها وآبائه والأخيار من قومها. لقد جاءها ربيعة وهو يخشى أن يهدها موته، ورجع بعد أن ملأته ثقة وعزماً، ومنعته شربة ماء خشية أن يضعف فيفتر عن القتال. لاشك أن أم ربيعة قد تحملت وتجلدت وهي ترى ابنها البار يصارع الموت ويصارع الأعداء ولكنها البطولة الكامنة فى نفسها المتمكنة من كيانها الماثلة في روعها. ومن هنا نعلم أي خصب بطولي ونجابة أصيلة انبتتا هذا البطل. والظاهرة الغريبة هي اكبار قاتليه له حيث القوا عليه احجاراً وليس معروفاً عند الجاهليين مثل هذا الصنيع مهما بلغت بطولة المقتول ومكانته.

ـ السليك بن السلكة ـ

ومن أبرز فرسان الصعاليك، وأقواهم عارضة وأشدهم همة وعزماً، السليك بن السلكة، وهو أحد العدائين العرب الذين لا يشق لهم غبار، ومع ذلك فقد اهتم بالخيل، اهتماماً بالغاً، وأولاها عنايته ورعايته، وأعطاها من نفسه منزلة خاصة.

ويزعم رواة العرب أن الخيل لا تلحقه، وهذا قول فيه كثير من المبالغة التي لا نميل الى تصديقها لأن اهتمام السليك الشديد بالخيل يعطينا الدليل على عدم صحتها، مع علمنا أن للخيل مزايا في الحرب غير السرعة ولكن السرعة أبرز مزاياها.

كان فارسنا يلقب بسليك المقانب لقوته وشجاعته ومراسه الحربي واندفاعاته الخطيرة ــ وعند السليك ظاهرة جديرة بالدراسة، فهو لا يغزو مضر ويتحاشى غزو نزار ويوجه غاراته الى اليمنيين فاذا لم يجد مجالا لغزو اليمنيين غزا ربيعة خاصة ولا نريد أن نحلل هذه الظاهرة

النفسية عند السليك بل نشير اليها فقط، وظاهرة أخرى نلمسها عند السليك وهي اهتمامه بخالاته الاماء وحرصه على تخليصهن من الأسر والضيم وان كان ماله لا يمكنه من ذلك حيث قال:

اشاب الرأس أني كل يوم
أرى لي خالة وسط الرجال
يشق على أن يلقين ضيماً
ويعجز عن تخلصهن مالي

ولدى السليك طرق غريبة في غزواته البعيدة، فهو يخبىء الماء في بيض النعام في الشتاء في الأماكن البعيدة حتى اذا جاء الصيف وسار في غزواته مر بها فاستخرج ما بها من ماء ثم هو يتخذ شتى الأساليب ليستخبر عن أماكن القوم الذين يحاول غزوهم في الصيف ليحتاط من انتقالهم، واليك هذه القصة التي روتها كتب الأدب، والأخبار، وهي تكشف لنا كثيراً من مزايا السليك القتالية والخلقية كما تطلعنا على ما لدى سليك من جرأة وعزيمة قوية وشجاعة وفروسية متمكنة كما تظهر ما في نفسه من انصاف وكرم وها هي القصة.

خرج سليك في الشهر الحرام، حتى أتى عكاظ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه ثم خرج متفضلا مترجلا، فجعل يطوف في الناس ويقول من يصف لي منازل قومه، وأصف له منازل قومي؟ فلقيه قيس بن مكشوح المرادي، فقال: أنا أصف لك منازل قومي وصف لي منازل قومك، فتوافقاوتعاهدا ألا يتكاتما فقال قيس بن المكشوح: خذ بن مهب الجنوب والصبا ثم سر حتى لا تجد ظل الشجرة فاذا انقطعت المياه فسر أربعاً حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق، فانك ترد على قومي مراد وخشعم. فقال السليك خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من أفق السماء فثم منازل قومي بني سعد بن زيد مناة.

فانطلق قيس الى قومه فاخبرهم الخبر، فقال أبوه المكشوح: ثكلتك أمك. هل تدري من لقيت؟ قال: لقيت رجلا فضلا كأنما خرج من

أهله، فقال: هو والله سليك بني سعد فاستوى واستعوى السليك قومه فخرج أحماس من بني سعد وبني عبد شمس وكان في الربيع يعمد الى بيض النعام فيملؤه من الماء ويدفنه في طريق اليمن في المغاور.

قال فاذا غزا في الصيف مر به فاستشاره فمر بأصحابه حتى اذا انقطعت عنهم المياه قالوا: يا سليك أهلكتنا ويحك قال: قد بلغتم الماء ما أقربكم منه حتى اذا انتهى الى قريب من المكان الذي خبأ الماء فيه طلبه فلم يجده، وجعل يتردد في طلبه. فقال بعض أصحابه لبعض: أين يقودكم هذا العبد؟ قد والله هلكتم، وسمع ذلك، ثم أصاب الماء بعد ما ساء ظنهم فهم السليك بقتل بعضهم ثم أمسك. فانصرفت عنه بنو عبد شمس في طوائف من بني سعد، قال: ومضى السليك في بني مقاعس ومعه رجل من بني حرام يقال له: صرد. فلما رأى أصحابه قد انصرفوا بكى ومضى به السليك حتى اذا دنوا من بلاد خثعم ضلت ناقة صرد في جوف الليل فخرج في طلبها، فاصابه أناس حين أصبح فاذا هم مراد وخثعم، فأسروه ولحقه السليك فاقتتلوا قتالاً شديداً

وكان أول من لقيه قيس بن مكشوح فأسره السليك بعد أن ضربه ضربة أشرفت على نفسه، وأصاب من نعمهم ما عجز عنه هو وأصحابه، وأصاب أم الحارث بنت عوه بن يربوع الخثعمية يومئذ، واستنقذ صرد من أيدي خثعم، ثم انصرف مسرعاً، فلحق بأصحابه الذين انصرفوا عنه قبل أن يصلوا الى الحي وهم أكثر من الذين شهدوا معه فقسمها بينهم على سهام الذين شهدوا. وقال:

بكى صرد لما رأى الحي أعرضت
سهام له من دونهم وسهوب
وَخوّفه ريب الزمان وفقره
بلاد عدو حاضر وجدوب
ونأى بعيد من بلاد مقاعس
وان مخاريق الأمور قريب

نقلت له لاقيك عنك انها
قضية ما يقضي لها فنئوب
سيكفيك فقد الحي لحم مغرض
وماء قدور في الجفان مشوب
ألم تر أن الدهر يومان لونه
وطوران بشر مره وكذوب
فما خير من لا يرتجي خير أو به
ويخشى عليه مرية وحروب
رددت اليه نفسي فكأنما
تلاقى عليه منسر وسروب
مغادر قرن الشمس حتى أريته
قصار المنايا والغبار يثوب
وضاربت عنه القوم حتى كأنما
يُصعّد في آثارهم ويَصُوب
وقلت له خذ هجمة حميرية
وأهلا ولا يبعد عليك شروب
وليلة جابان كَررت عليهم
على ساعة فيها الاياب حبيب
عشية كرت بالحرامي ناقة
بحي هلال تدعى به فتجيب
فضاربت أولى الخيل حتى كأنما
أميل عليها أبدع وحبيب

هكذا نرى السليك قائداً حصيفا وفارساً مغواراً وزعيماً محنكاً وبطلا فريداً وكيف استطاع أن يمسك غضبه حينما هم بقتل بعض أصحابه ثم رأيناه بعد أن انخذل عنه أكثر أصحابه فلم تلن عزيمته ولم تضعف شكيمته بل سار بمن بقي معه بهمة وثابة وعزم وطيد ولم يفت في عضده بكاء صاحبه الحرامي وضياع ناقته بل جعل همه في تخليصه

وارجاع ناقته ثم كسب النعم الكثيرة له ولأصحابه وأسر قيس بن مكشوح وعاد ظافراً غانماً في اللحاق بأصحابه الذين انخذلوا عنه، ثم قسم وكأنهم شهود ولم يحقد على الاهانة التي لحقته منهم. لقد أبدى السليك في هذه الواقعة مؤهلاته الخلقية وانصافه لمن أخرجهم حتى ولو لم يشهدوا معه كما دلل على ما في نفسه من كرم وسماح.

وللسليك نظرات قيمة ولفتات فنية فهو لا يترك حادثة تمر به الا وسجل فيها ابداعاته فها هو في إحدى هجماته يحاصر فيلجأ الى بيت فيه فتاة فيدخل القوم بيتها ويدخل البيت فتصدهم الفتاة فيحاولون أخذ السليك فتخترط السيف وتكشف قناعها وينجدها أخوتها فيردون القوم ويأمن السليك بجوار تلك الفتاة ويسجل السليك هذه الحادثة بريشة الشاعر الفنان بابداع وأمانة فيقول:

لعمر أبيك والأنباء تنمي
لنعم الجار أخت بني عوارا

من الخفرات لم تفضح أباها
ولم ترفع لاخوتها شنارا

كأن مجامع الأرداف منها
نقا درجت عليه الريح هبارا

يعاف وصال ذات البذل قلبي
ويتبع الممنعة النوارا

وما عجزت فُكيهة يوم قامت
بنصل السيف واستلبوا الخمارا

لقد حمد جوار هذه الفتاة ثم ذكر شرفها وصونها وطهارتها ثم غلبته شاعريته الفنية فذكر جمالها وعرج على ما في نفسه من حب للمصونات النافرات وكره لكل مبتذلة مؤاتية ثم ختم قطعته بموقف فكيهة المشرف ورسم لوحته بهذه المرأة التي اخترطت الحسام وألقت بالقناع لتدافع عن جوارها الذي أراد القوم اخفاره.

والسليك محب للخيل شديد العناية بها يعدها للمهمات ويحافظ عليها للحروب والغارات انظر الى قوله:

قـرّب الـنـحـام مـنـي يـا غـلام
واقـذف الـسـرج عـلـيـه واللـجـام
واعـلـم الأقـوام انـي خـائـض
غـمـرة الحـرب فـمـن شـاء أقـام

انه يريد تقريب فرسه النحام والاسراع في اسراجه والجامه بقوله (واقذف) فهي كلمة تصور لنا الاندفاع الشديد وما يعتمل في نفس السليك من تلهف بالغ للوصول الى المعركة في الوقت المناسب.

وللخيل منزلة خاصة لدى السليك، فهو يعزها اعزازاً فريداً ويعنى بها عناية عظيمة ويحلها من نفسه محلة الاجلال والاكرام، ورثاؤه لفرسه النحام يعطي الدليل الواضح لما نقول. قال في رثائه له:

كـأن قـوائـم الـنـحـام لمـا
تحـمـل صـحـبـتـي أصـلا محـار
على فـرمـاء عـالـيـة شـواه
كـأن بـيـاض غـرتـه خمـار
ومـا يـدريـك مـا فـقـري الـيـه
اذا مـا الـقـوم ولـوا أو أغـاروا
ويحضر فـوق جـهـد الحضر نـصـا
يـصـيـدك قـافـلا والمـخ رار

لقد ذكر صفات جواده الجميلة وأوصافه الرائعة، ثم بين فقره اليه في حالات الكر والاقدام، وفي احتدام المعارك وتأزم المواقف وأنه في أمس الحاجة وأشد الاضطرار له، ثم ذكر شدة عدوه، وانه يزداد نشاطاً كلما زاد جهده فلا انتهاء لطاقته فهي تتجدد.

وينتهي المطاف بالسليك الى القتل وتنقطع أخباره عن أمه وتتحفنا السلكة بقصيدة ترثيه فيها والقصيدة تنبئنا عن مكنة شاعرية. وعن قدرة بلاغية وتظهرنا على ما لدى هذه الأمة من معرفة تامة بشئون الحياة وحكمة صائبة في أمور الناس. قالت السلكة:

طـاف يـبـغـي نـجـوة مـن هـلاك فـهـلـك

ليت شعري ضلة أي شيء قتلك
أمريض لم تعد أم عدو ختلك
أم تولى بك ما غال في الدهر السلك
والمنايا رصد للفتى حيث سلك
أي شيء حسن لفتى لم يك لك
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك
طال ما قد نلت في غير كد أملك
إن امرأ فادحاً عن جوابي شغلك
سأعزي النفس اذ لم تجب من سألك
ليت قلبي ساعة صبره عنك ملك
ليت نفسي قدمت للمنايا بدلك

ان هذه الظاهرة الفريدة لجديرة بالدراسة فلم نجد في الأدب الجاهلي أمة أبدعت هذا الابداع، وتوصلت الى ذلك البيان، وامتلكت مثل هذه الشاعرية وليس موضوع كتابنا دراسة هذه الظاهرة وتحليلها ولكن تجدر الاشارة الى بعض من مكامنها.

لقد تربت الساكة في بني سعد، ونشأت بين نساء بني تميم ونحن نعلم أي بيان ساحر ملكته رجال بني سعد، من المحاورة التي بين الزبرقان وعمرو بن الأهتم أمام النبي صلى الله عليه وسلم والتي أجاب فيها عمرو اجابتين مختلفتين فامتعض النبي صلى الله عليه وسلم فقال عمرو يا رسول الله والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الثانية فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ان من البيان لسحرا).

ولكي نعلم ما تحمله نساء تميم من بلاغة في القول ونصاعة في البيان. وقوة في التعبير فعلينا أن نورد بعضاً من أقوالهن:

قالت الحميراء حينما أراد عمرو بن هند أن يلقي بها في النار، وقد سألها من أنت فقالت: أنا الحميرآء بنت ضمرة بن جابر، قال اني لأظنك أعجمية. قالت: ما أنا بأعجمية ولا ولدتني الأعاجم.

اني لبنت ضمرة بن جابر
ساد معدا كابرا عن كابر

انـي لأخـت ضـمـرة بـن ضـمـرة
اذا الـبـلاد لـقـحـت بـجـمـرة

قال: من زوجك؟ قالت: هوذة بن جرول. قال: وأين هو الآن؟ أما تعرفين مكانه؟ قالت: هذه كلمة أحمق، لو كنت أعرف مكانه حال بينك وبيني، قال: وأي رجل هو؟ قالت: هذه أحمق من الأولى، أعن هوذة يسأل؟ قال عمرو: أما والله لولا مخافة أن تلدي مثلك لصرفت النار عنك. قالت: والذي أسأله أن يضع وسادك ويخفض عمادك ويصغر حصاتك ويسلب بلادك، ما قتلت الا نسياً أعلاها ثدى، وأسفلها حلى، ووالله ما أدركت ثأراً ولا محوت عاراً، وليس من فعلت هذا به يغافل عنك.

انظر الى شدة عارضتها، ورباطة جأشها وثبات عزيمتها وهي في هذا الموقف المريع والهول الشنيع والموت المعجل الذي تنظر اليه بأبشع صورة وأشدها ايلاماً.

وقد أبدت وهي في هذه الحال من براعة القول وجمال البيان، ولو أرتك في مثل موقفها أشد الأبطال بأساً لماليم.

ونرجو أن لا نكون في خروجنا قد بعدنا عن الجوانب التي أردنا كشفها عن مكامن قدرات أم السليك.

ولنعد الى رثائها لابنها لنستطلع بعض اللمحات التي تكشف عن شخصية السليك فهي أعلم الناس به وهو قد تربى بين أحضانها ودرج في عشها.

وانظر الى مطلع رثائها فقد جعلته كالطائر الجارح الذي طاف لينشب أظافره في فريسته ويعود سالما غانما كعادته ثم قررت في الآخر ان سبب هلاكه رغبته في اكتساب المغانم وتمتعه برفاهية العيش وهذه فلسفة وكأنما تقول لو استكفى بما عنده لما هلك. ثم تتساءل في استغراب في البيت الثاني أي شيء قتلك؟ فهي لا تتصور أن يستطيع احد قتل السليك فهو الفارس المتمكن والشجاع المغوار والقوي الصارم. ثم أوردت بعض الاحتمالات لهلاكه. وقد داهمه مرض وختله عدو، أما المجابهة الواضحة فلا يمكن أن يقتل فيها السليك،

ثم عادت لفلسفتها وجعلت احتمال هلاكه كأمثاله من الأبطال الذين غالهم الدهر، وقررت الحقيقة الواقعة أن الفتى عرضة للمنايا في أي لحظة، وفي البيت السادس عرجت على صفات ابنها السليك وألبسته حلة المجد والكرامة وأضفت على خلقه وفتوته كل معاني السمو والجمال، بأروع تعبير وأجلى بيان وأبلغ قول:

أي شـــــــيء حـــــــــسن

لـــفـــتـــى لـــم يـــك لـــك

لقد حصرت جميع المحاسن وعظيم المزايا وكرم الطباع في هذا الفتى البطل بايجاز متناه وتساؤل تفريعي دقيق ضم كل الفضائل.

ثم عادت في البيت السابع الى فلسفتها اليقينية في الحياة والموت فقررت أن أتفه الأسباب قاتلة حين يدنو الأجل، وفي البيت الثامن ذكرت قوة السليك وقدرته وهمته وأنه يدرك الأشياء الصعبة دون كد، وفي البيت التاسع أطلعتنا السلكة على ميزة خلقية في السليك فقد أعلمتنا أنه كان بارا بها لا يشغله شيء عن ندائها وفي البيت العاشر تملكتها العبرة فعزت نفسها اذ لم يهرول ليثها ليجيب عن سؤالها. وفي الحادي عشر أبدت لوعتها وأظهرت مكامن حزنها وعظيم كمدها، وتمنت لو أن قلبها صبر لحظة من الزمان على فلذة كبدها فهي تعاني غصص الآلام وتتجرع كؤوس الحزن وفي آخر المطاف تقذف السلكة بتضحيتها فداء لابنها البار وفارسها الباسل لو قدمت للمنايا بدلا منه.

ان هذه الأم الحنون المكلومة قد أبانت عن مقدرة في التفكير المتزن ومعرفة في أصول الحياة والناس وأظهرتنا على ما تحمل من عواطف كريمة وسجايا طيبة وخلق سجيح وكل ذلك قد جاء ببيان مشرق وبلاغة محكمة وايجاز مبدع.

ويحق أن نختتم ذكر الفرسان الابطال بذكر اثنين حازا قصب السبق في الفروسية والرئاسة والقيادة الحكيمة وامتازا على الآخرين من رؤساء القبائل العربية بمزايا سامية وصفات كريمة وهما قيس بن عاصم وزيد الخيل.

زيـــد الخيــل

اشتهر زيد بن مهلهل الطائي بالخيل حتى سمى بها وقد سماه الرسول صلى الله عليه وسلم زيد الخير وهي شهادة تعلي زيدا ولو لم يكن له غيرها لجعلته في أعلى المراتب .

وهو زعيم عظيم وقائد محنك ورئيس مظفر وقد اشتهرت شجاعته كما عرف كرمه . ولنسق قصة لزيد مع أحد العرب نستجلي منها ما عند هذا الفارس النبيل من خلق كريم وكرم أصيل ومكنة قتالية نادرة .

(كان رجل من بني شيبان خرج بعياله بعد أن أصابت قومه سنة ذهبت بالأموال حتى أنزلهم الحيرة ، وقال لهم : كونوا قريبا من الملك يصبكن من خيره حتى ارجع اليكن وآلى الآ يرجع حتى يكسبهن خيرا أو يموت . فتزود زادا ، ثم مشى يوما الى الليل فاذا هو بمهر مقيد يدور حول خباء فقال : هذا أول الغنيمة فذهب يحله ويركبه ، فنودي خل عنه واغنم نفسك فتركه ، ومضى سبعة أيام حتى انتهى الى عطن ابل مع تطفيل الشمس فاذا خباء عظيم وقبة أدم ، فقال في نفسه ، ما لهذا الخباء بد من أهل ، وما لهذه القبة بد من رب ، وما لهذا العطن بد من ابل ، فنظر في الخباء ، فاذا شيخ كبير قد اختلفت ترقوتاه ، كأنه نسر .

قال : فجلست خلفه ، فلما وجبت الشمس اذا فارس قد أقبل لم أر فارسا قط أعظم منه ولا أجسم على فرس مشرف ومعه أسودان يمشيان جنبه واذا مائة من الابل مع فحلها ، فبرك الفحل ، وبركت حوله ، ونزل الفارس فقال لأحد عبديه : احلب فلانة ، ثم اسق الشيخ فحلب في عس حتى ملأه ، ووضعه بين يدي الشيخ وتنحى ، فكرع منه الشيخ مرة أو مرتين ثم نزع ، فثرت اليه فشربته ، فرجع اليه العبد فقال يامولاي ، قد أتى على آخره ، ففرح بذلك ، وقال احلب فلانة ،

فحلبها، ثم وضع العس بين يدي الشيخ، فكرع منه واحدة، ثم نزع، فثرت اليه فشربت نصفه، وكرهت أن آتي على آخره فاتهم، فجاء العبد فأخذه وقال لمولاه: قد شرب وروى، فقال دعه، ثم أمر بشاة فذبحت، وشوى للشيخ منها، ثم أكل هو وعبداه فأمهلت حتى اذا ناموا وسمعت القطيط، ثرت الى الفحل، فحللت عقاله، وركبته، فاندفع بي وتبعته الابل، فمشيت ليلتي حتى الصباح، فلما اصبحت، نظرت فلم أر أحدا، فشللتها شلا عنيفا حتى تعالى النهار، ثم التفت التفاتة فاذا أنا بشيء كأنه طائر، فما زال يدنو حتى تبينته، فاذا هو فارس على فرس، واذا هو صاحبي بالأمس، فعقلت الفحل ونثلت كنانتي، ووقفت بينه وبين الابل، فقال: احلل عقال الفحل، فقلت كلا والله، لقد خلّفت نسيات بالحيرة، وآليت لا أرجع حتى أفيدهن خيرا أو أموت. قال: انك لميت حل عقاله لا أم لك. فقلت: ما هو الا ما قلت لك، فقال انك لمغرور: انصب لي خطامه، واجعل فيه خمس عجر ففعلت، فقال اين تريد أن أضع سهمي؟ فقلت: في هذا الموضع، فكأنما وضعه بيده ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمسة بخمسة اسهم، فرددت نبلي، وحططت قوسي، ووقفت مستسلما، فدنا مني وأخذ السيف والقوس ثم قال: ارتدف خلفي، وعرف أني الرجل الذي شربت اللبن عنده، فقال: كيف ظنك بي؟ قلت: اسوأ ظن. قال: وكيف؟ قلت: لما لقيت من تعب ليلتك وقد أظفرك الله بي، فقال: اترانا كنا نهيجك وقد بت تنادم مهلهلا قلت: ازيد الخيل أنت؟ قال نعم. أنا زيد الخيل، فقلت كن خير آخذ، فقال ليس عليك بأس.

فمضى الى موضعه الذي كان فيه ثم قال أما لو كانت هذه الابل لي لسلمتها اليك، ولكنها لبنت مهلهل، فأقم علي، فاني على شرف غارة.

فأقمت أياما، ثم أغار على بني نمير بالملح، فأصاب مائة بعير، فقال: هذه أحب اليك أم تلك؟ قلت: هذه، قال: دونكها. وبعث معي خفراء من ماء الى ماء وردوا بي الحيرة).

ان هذه الحادثة وان كان فيها شيء من المبالغة فهي تنبىء في جملتها على ما يحمل هذا الرجل من فضل وشمم فقد دلتنا على حرص زيد على بر أبيه والمحافظة على ضيفه ولو كان سارقا له وأبانت عن مقدرته القتالية في الرمي بحيث انه لم يخطىء هدفا من أهدافه ونجد الكرم الطبعي في قصته مع هذا الرجل يظهر بأجلى صوره فهو يفيض بعطائه على ضيف ابيه السارق بأوسع العطاء ثم يخفره حتى يرجعه الى أهله.

لقد مارس زيد الفروسية منذ نعومة أظفاره ولازم الحروب طيلة حياته وكان فيها البطل المبرز والعلم المشهور والقائد المغوار لقد صاحبته الانتصارات ورافقه الظفر.

ولا بد أن نذكر طرفا من غزواته لنستطلع مكانته في الفروسية الفذة وقدرته القتالية العظيمة.

(أغار زيد على بني فزارة وبني عبدالله بن غطفان ورئيسهم يومئذ أبو ضب، ومع زيد الخيل من بني نبهان بطنان يقال لهما: بنو نصر وبنو مالك، فأصاب وغنم، وساقوا الغنيمة وانتهى الى العلم فاقتسموا النهاب فقال لهم زيد: أعطوني حق الرئاسة، فأعطاه بنو نصر، وأبى بنو مالك، فغضب زيد، وانحدر الى بني نصر، فبينما بنو مالك يقتسمون اذ غشيتهم فزارة وغطفان، وهم حلفاء، فاستنقذوا ما بأيديهم. فلما رأى زيد ذلك شد على القوم فقتل رئيسهم ابا ضب، وأخذ ما في أيديهم، فدفعه الى بني مالك، وكانوا نادوه يومئذ: يا زيداه اغثنا: فكرّ على القوم حتى استنقذ ما في أيديهم، ورده وقال يذكر ذلك:

كررت على ابطال سعد ومالك ... ومن يَدْعُ الداعي اذا هو نددا

فلأيا كررت الورد حتى رأيتهم ... يكبون في الصحراء مثنى وموحدا

وحتى نبذتم بالصعيد رماحكم ... وقد ظهرت دعوي زنيم وأسعدا

فما زلت أرميهم بغرة وجهه
وبالسيف حتى كلّ تحتي ولبّدا
اذا شك اطراف العوالي لبانه
اقدمه حتى يرى الموت أسودا
علالتها بالأمس ما قد علمتم
وعل الحواري بيننا أن تُشّهدا
لقد علمتْ نبهان اني حميتها
واني منعت السير ان يتهددا
عشية غادرت ابن ضب كأنما
هوى عن عقاب من شماريخ صنددا
بذي شطب القى الكتيبة سلهبا
أقَبٌ كسرحان الظلام معّودا

لقد دلتنا هذه الواقعة على أن رئاسة زيد ليست مطلقة وهي نقطة ضعف لا نريد ان نبحث أسبابها، لان هذا يجرنا الى استفاضة لا يتسع الكتاب لامثالها.

ولكن الذي يعنينا هو ما أظهرته هذه الغزوة من مزايا فذة، وقدرة قتالية عظيمة لم يمتلكها الا زيد وافراد تعد على الأصابع في تاريخ الحروب الجاهلية. لقد اظهرت لنا هذه الحادثة فروسية زيد الخارقة، وعرفتنا وزن ثقله الحربي، فبنو مالك ابطال صناديد وقد سلبوا ما غنموه وعندها استغاثوا بزيد، وقد اغضبوه من قبل فهب لنجدتهم ورد اليهم سلبهم وقتل رئيس المهاجين وهزمهم. انه يعدل كتيبة بقوته القتالية وتفوقه الفروسي وخبرته الحربية.

ولقد صور لنا زيد حال بني مالك وقد بزّهم القوم وانتصروا عليهم، واخذوا ما بأيديهم فقد كرر الكر في البيت الثاني تبيانا لمأزق بني مالك، ثم صدمهم بواقعهم المؤلم ببيته الثالث حينما كَلّ قناهم، والقوا برماحهم ولامستهم سيوف القوم فظهرت نداءاتهم وصيحاتهم، ثم بين محاولته وتصميمه على صد المهاجين وردعهم فداوم على اقحام

الورد في وجه القوم، وكذلك اقحام سيفه حتى أعيا الورد، ونلاحظ أن زيدا ذكر إعياء فرسه، وهذا مالم يتطرق اليه الفرسان الا في ظروف غير ملائمة، ولعل عظم جسم زيد أثر على طاقة فرسه.

وفي الخامس بيّن زيد عن قوة اندفاعه وبسالة شجاعته واقدامه على الموت، فاذا اشتجرت الرماح في لبانه قدمه ليريه الموت الأسود. وفي السادس ذكرهم بواقعتهم الاولى وما صنع فيها وما اكتسب لهم من مغانم. ثم عرج في السابع على أنه حمى نبهان من الهزيمة ومنع السبى ان يسترد، وفي الثامن ذكر ما فعله برئيس القوم، وكيف غادره متناثر الاشلاء، وكأنما هوى من أعالي الجبال. أما البيت الأخير فنرى أن فيه اختلاطا (بذي شطب) نعتقد أنها مغيرة، اذ أن الأوصاف منصبة على الفرس، وذي شطب صفة للسيف واذا حملها بعضهم على الخيل فهي معتسفة.

حاربت بنو عامر زيدا فانتصر عليها، وأسر منهم قوما فيهم الحطيئة وكعب بن زهير ويبدر من زيد مالم نره من غيره أن يجر الحطيئة الى مدحه وإطرائه، وهذا يدل على تأصل حب الفن في طبعه ولنستمع لما قاله للحطيئة، قال:

أقول لعبدي جرول اذ أسرته
اثبني ولا يغررك انك شاعر
أنا الفارس الحامي الحقيقة والذي
له المكرمات واللهى والمآثر
وقومي رؤوس الناس والرأس قائد
اذا الحرب شبتها الأكف المساعر
فلست اذا ما الموت حوذر ورده
واترع حوضاه وحمّج ناظر
بوقافة يخشى الحتوف تهيبا
يباعدني عنها من القب ضامر
ولكنني أغشى الحتوف بصعدتي
مجاهرة ان الكريم يجاهر

وأروى سناني من دماء عزيزة
على أهلها اذ لا ترجى الأياصر

فنرى زيدا يطلب من الحطيئة ان يثيبه وهو يعلم أنه خالي الوفاض، وينبهه بأن لا يتملكه الغرور لأنه شاعر، فما الذي يرمي اليه زيد؟ ان زيدا أخشى ما يخشاه أن يهجوه وقومه الحطيئة ولذلك نراه بعد البيت الأول الذي أظهر فيه مطلبه مقابل المنّ عليه. هجم على الفخر فبين فروسيته المتمكنة وشجاعته الفذة ومكارمه الحميدة، ومآثره الخالدة وكرمه الفياض ثم ذكر قومه وأنهم رؤوس الناس ومساعير الحرب ثم عاد الى نفسه فذكر جرأته واقدامه وأنه لا يحجم اذا ما حوذر الموت، وملئت أحواضه، فهو ليس بوقاف خشية منه وممن يعد الخيل للابتعاد عنه، بل يغشاه مجاهرة مشرعا رمحه مرويه من دماء عزيزة في أشد الأوقات ضيقا وحرجا. وكأنما يقول للحطيئة لقد رأيت بأم عينيك هذا الموقف فاحذر ان تخالف الحقيقة، فتهجو زيدا وقبيلته وعليك ان تسجل هذه الواقعة بحق لتجازي من منّ عليك بالحرية بشعرك الخالد، وان لا تكفر ذلك.

ولم يكن الحطيئة يغافل عما يريده زيد، فسجل بطولته وانتصاره، وقال:

فان لم يكن مالي بآت فانه
سيأتي ثنائي زيد بن مهلهل
فأعطيت منا الود يوم لقيتنا
ومن آل بدر شدة لم تهلل
فما نلتنا غدراً ولكن صبحتنا
غداة التقينا في المضيق بأخيل
تفادي حماة الخيل من وقع رمحه
تفادي ضعاف الطير من وقع أجدل

وحينما أسرت طيء بني بدر طلب بنو فزارة من الشعراء أن يهجوا بني لأم وزيداً، فتحامتهم شعراء العرب وامتنعت من هجائهم.

فصاروا الى الحطيئة فأبى عليهم، وقال: اطلبوا غيري فقد حقن دمي، واطلقني بغير فداء، فلست ناكراً نعمته أبداً، فقالوا: فانا نعطيك مائة ناقة، قال: والله لو جعلتموها ألفاً ما فعلت ذلك. وقال الحطيئة:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة
من آل لأم بظهر الغيب تأتينا
المنعمين أقام العز وسطهم
بيض الوجوه وفي الهيجا مطاعينا

لقد أظهر الحطيئة وفاءه الصادق وأمانته الضميرية الخالصة وتمسكه بمبادىء النبل والكرم.

لم يوافق على هجو زيد وقومه حينما دعاه قومه الى ذلك فحسب، بل امتنع عن الهجاء لهم حينما أغروه بمائة من الابل وهم يعرفون فقره وحاجته اليها وقال لهم: (والله لو جعلتموها ألفاً ما فعلت).

هذا الموقف النبيل من الحطيئة يجب أن ينظر اليه دارسو حياته الذين لطخوا شخصيته ببعض جوانب منها وعموا عن هذه الجوانب.

ولزيد مواقف بطولية في غاراته ومعاركه، وكان مظفراً في حروبه، فقد رافقه النصر في معظم وقعاته، وقد أسر فرساناً وهم في المقدمة من الفروسية ومنّ عليهم، ومنهم الحارث بن ظالم، أفتك فارس عرفته العرب، وعامر بن الطفيل وقد مر بنا في هذا الكتاب أسره لعامر. وقال في أسره للحارث بن ظالم:

ألاهل أتى غوتاً وروما ن أننا
صبحنا بني ذبيان احدى العظائم
وسقنا نماء الحي مرة بالقنا
وبالخيل تردى قد حوينا بن ظالم
جنيباً لاعضاد النواحي يقدنه
على قتب بين النواحي الرواسم
يقول اقبلوا مني الفداء وانعموا
عليّ وجزوني مكان القوادم

وقــد مــس حــد الــرمــح فــوارة أســتــه
حــلــيــلــتــه جــالــت عــلــيــهــا قــواســمــي
تــلاعــب ولــدان الــعــضــاريــد بــعــدمــا
جــلاهــا بــســهــمــيــه لــقــيــط بــن حــازم

لقد أظهر زيد في هذه المقطوعة قدرته الفنية ومكانته التصويرية، فصور الحارث بن ظالم وهو أخطر فاتك وأجرأ فارس، وأقوى غادر، بالذلة والمسكنة والخنوع، انه يتوسل بقبول الفداء منه معترفاً بالفضل والمن عليه من زيد، ويطلب جز ناصيته اقراراً بالضعف والاستكانة، وخوفاً من القتل والتعذيب، ثم بين لنا زيد حالة الحارث قبل أسره في المعركة، فقدْ وصمه بمس الرمح من خلفه، وهذا دليل على أن الحارث كان يحاول الفرار، وان لم يفر فلم تكن الطعنة في مقدمه. ان زيداً كون للحارث صورة مزرية دنيئة، واضفى عليه حالة من الذل والصغار وزيد مسعر حرب وجلمود معارك يميل الى الكفة الضعيفة فيقويها، وتستنجد به الفئة المغلوبة فينتصر لها. واليك هذه القصة.

(غزت بنو نبهان فزارة وهم متساندون ومعهم زيد الخيل، فاقتتلوا قتالا شديداً، ثم انهزمت فزارة، وساقت بنو نبهان الغنائم من النساء، والصبيان، ثم ان فزارة احتشدت واستعانت باحياء من قيس، وفيهم رجل من سليم شديد البأس، سيد يقال له عباس بن أنس الرعلي، كانت بنو سليم قد أرادوا عقد التاج على رأسه في الجاهلية، فحسده ابن عم له فلطم عينه، فخرج عباس من أعمال بني سليم في عدة من أهل بيته وقومه، فنزل في بني فزارة، وكان معهم يومئذ ولم يكن لزيد المرباع حينئذ، وأدركت فزارة بني نبهان، فاقتتلوا قتالا شديداً، فلما رأى زيد ما لقيت بنو نبهان نادى: يا بني نبهان، أأحمل ولي المرباع؟ قالوا: نعم: فشد على بني سليم فهزمهم، وأخذ أم الأسود امرأة عباس بن أنس، ثم شد على فزارة والاخلاط فهزمهم وقال في ذلك:

وســائــل بــنــي نــبــهــان عــنــا وعــنــدهــم
بــلاء كــحــد الــســيــف اذ قــطــع الــيــدا

دعـوا مـالـكـاً ثـم اتـصـلـنـا بمـالـك
فـكـل ذكـا مـصـبـاحـه فـتـوقـدا
لـقـيـنـاهـم نـسـتـنـقـذ الخيـل كـالـقـنـا
ويـسـتـبـسـلـون الـسـمـهـري الـمـقـصـدا

وهنا تتجلى نقطة الضعف التي ألمحنا لها فيما سبق، وهي أنه لم يتمكن من الرئاسة المطلقة، ويحق لنا أن نسائل زيداً، لماذا يشترط المرباع له في انقاذ قومه من المأزق؟، ولاشك أنها سقطة من زيد لا نرضاها له، ولكل جواد كبوة، ولننظر لفروسية زيد في المعركة، ان قومه طيئاً أبطال أشداء، وقد عرفتهم الحروب العربية ليوثا مبرزين، وها نحن نرى ما لقوا من ضيق وحرج، ونرى زيداً قد تباطأ وتلكأ انتظاراً لاشتراكه بالمرباع، وحينما صارحهم بما في نفسه وافقوا على شرطه لمعرفتهم بوزنه الحربي، وهكذا نستطلع مكانته في الفروسية وعظيم غنائه.

لقد أعرب زيد عن تأزم الموقف بقوله (كحد السيف اذ قطع اليدا)، ثم كل دعا بدعوته، فاضطرمت نار الحرب واستنارت سرجها وبدا فرسان الطرفين وكأنهم مصابيح مستوقدة، ثم وصف احتدام المعركة وذكر استنقاذهم الخيل، واستقبال العدو برماحهم المشرعة بكل عناد واستبسال.

لقد كان زيد من أبرز فرسان الطراز الأول، فهو حينما يحدثنا عن المعارك ينقلنا الى واقع ملموس كما أنه ذو شاعرية فنية.

ولزيد اهتمام بالغ بالخيل ورغبة شديدة في اقتنائها، ولقد جمع منها ما لم يجمعه من العرب الا القليل النادر، حتى سمي بزيد الخيل. وقد اشتهر من خيله : الهطال، والورد، والكميت، ودؤول، وقيل (زمول) ولاحق. وقال في الورد:

أبـت عـادة للـورد أن يـكـره الـقـنـا
وحـاجـة نـفـسي في نمير وعـامر

وقال في الهطال:

أقـــرب مـــربـــط الهـــطـــال انـــي
أرى حـــربـــاً تـــلـــقـــح عـــن حـــيـــال

ويقول في دؤول:

فـــاقـــســـم لا يـــغـــار قـــنـــي دؤول
أجـــول بـــه اذا كـــثـــر الـــضـــراب

وكانت نهاية زيد صفحة مشرقة في تاريخه، فقد وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكرمه صلوات الله وسلامه عليه، وسماه زيد الخير، فرحمه الله ورضي عنه.

- قيس بن عاصم -

لم تكتمل أدوات الرئاسة ومزايا القادة وصفات الفروسية الفذة لزعيم جاهلي كما اكتملت عند قيس.

لقد كان أحلم العرب قاطبة. وضرب المثل بجوده وسؤوده وكانت حروبه كلها انتصارات، وكان فيها الطود الأشم، والفارس الذي لا يداني.

(سئل الأحنف بن قيس، من أين تعلمت الحلم؟.قال تعلمته من خالي قيس بن عاصم، فقيل له كيف ذلك يا أبا بحر؟ قال: قتل ابن أخ له ابناً له، فأتي بابن أخيه مكتوفاً يقاد اليه، فقال: روعتم الفتى، ثم أقبل عليه فقال: يا بني نقصت عددك وأوهيت ركنك، وفتت في عضدك، واشمت عدوك، وأسأت لقومك، خلوا سبيله، واحملوا الى أم المقتول ديته، قال: فانصرف القاتل وما حل قيس حبوته، ولا تغير وجهه).

اننا أمام مثال نادر في الوجود الانساني، فهو عظيم في خلقه، عظيم في أناته وصبره، عظيم في قدرته على كبح عواطفه وشعوره، عظيم في حكمته وتبصره، عظيم في عفوه وتسامحه.

ان هـذه الـقـصة تكشف لنا الكثير من جوانب العظمة في شخصية قـيـس، وتطلعنا على ما لديه من مزايا وقيم فريدة، وليس من موضوعنا الاسـتـرسـال في جـوانـب شخصيته الفذة، وانما الذي يعنينا ذكر جانبه الـفروسي، وقد نتعرض لبعض صفاته البارزة بايجاز لما يقتضيه البحث، ولتكتمل الصورة لهذه الشخصية.

عـرف قـيـس بن عـاصـم كـأبرز قائد في عصره، وهو أحزم رئيس عرفـتـه الحروب الجاهلية. ولم تحدث حروب جرارة في التاريخ الجاهلي الا ثـلاث. يـوم شعـب جبـلة. ويوم ذي قار، ويوم الكُلاب الثاني، وسنورد ما جاء عن هذا اليوم.

بعد أن أوقع كسرى ببني تميم بعد أن غدر بهم يوم الصفقة اداروا أمـرهـم. وقـال ذوو الحجي منهم: لقـد وهنتم وتسامعت بها لقيتم القبائل، فلا تأمنون دوران العرب.

ثم اجـتمعوا الى سبعة منهم وشاوروهم في أمرهم: أكثم بن صيفى الأسيـدي والأحيمـربن يزيـد المازني، وقيس بن عاصم المنقري، وأبير بن عصمة التيمي، والنعمان بن جساس التيمي، وأبين بن عمرو السعدي، والـزبـرقـان بن بدر السعدي، وقالوا لهم: ماذا ترون؟ فقال اكثم: اني قـد نـيـفـت على الـتسعين، وانما قلبي بضعة من جسمي وقد نحل كما نحـل جسمي واني أخـاف ألا يدرك ذهني الرأي لكم، وأنتم قوم قد شاع في الـنـاس أمـركـم، وانما كان قوامكم أسيفاً وعسيفاً وصرتم اليوم انما تـرعـى بناتكم فليعرض علي كل رجل منكم رايه وما يحضره فاني متى أسمع الحزم أعرفه.

فـقال كل رجل منهم ما رأى، وأكثم ساكت لا يتكلم، حتى قام الـنعمان بن جساس فقال: (يا قوم انظروا ما يجمعكم ولا يعلم الناس بـأي ماء أنتم حتى يقوى ظهركم ويشتد أزركم، وقد جممتم وصلحت أحـوالـكـم وأنـجد كسيركم، وقوى ضعيفكم، ولا أعلم ماء يجمعكم الا قدة.

فـلـمـا سـمع أكثم بن صيفي كلام النعمان، قال: هذا هو الرأي. وارتحلوا حتى نزلوا الكلاب، ونزلت الرباب وسعد بأعلى الوادي ونزلت

حنظلة بأسقله.

وكانوا لا يخافون أن يغزوا في القيظ، ولا يستطيع أحد أن يقطع تلك الصحاري لبعد مسافتها، وشدة حرها، وأقاموا بقية القيظ لا يعلم أحد بمكانهم، حتى اذا تهور القيظ مر بهم رجل من مدينة هجر فرأى ما عندهم من النعم، وانطلق الى مذحج وقال: هل لكم في جارية عذراء، ومهرة شوهاء، وبكرة حمراء؟ فقالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: تلكم تميم ألقاء مطروحون بقدة، فقالوا: أي والله.

ومشى بعضهم الى بعض وقالوا: اغتنموها من بني تميم، وبعثوا الرسل في قبائل اليمن وأحلافها من قضاعة، واستشاروا كاهنهم المأمور الحارثي، فأشار عليهم بالكف وخرجوا لغزو تميم.

وهناك بعض الاختلاف في المقدمة لاخبار هذه الحرب في أقوال اكثم بن صيفي، وعدم وجود المخبر الهجري في الرواية الأخرى، ومن حق البحث أن نورد المقدمة بالرواية لنثبت ما قاله أكثم بن صيفي.

(لما أوقع كسرى ببني تميم يوم الصفا بالمشقر فقتل المقاتلة وبعث الأموال والذراري، بلغ ذلك مذحجاً، فمشى بعضهم الى بعض وقالوا: اغتنموا بني تميم، ثم بعثوا الرسل في قبائل اليمن وأحلافها من قضاعة، فقالت مذحج للمأمور الحارثي وهو كاهن: ما ترى في هذا اليوم؟ فقال لهم، لا تغزوا بني تميم، فانهم يسيرون أغبابا، ويردون مياها جبابا فتكون غنيمتكم ترابا.

اجتمع من مذحج وأحلافها اثنا عشر ألفاً، وكان رئيس مذحج عبد يغوث بن صلاءة ورئيس همدان يقال له مسرح، ورئيس كندة البراء بن قيس بن الحارث الملك، فاقبلوا الى تميم، فبلغ ذلك سعداً والرباب، فانطلق ناس من أشرافهم الى أكثم بن صيفي، وهو قاضي العرب يومئذ، فاستشاروه، فقال لهم: اقلوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة، يا قوم تثبتوا فان أحزم الفريقين الركين، ورب عجلة تهب ريثا، واتزروا للحرب، وادرعوا الليل فانه أخفى للويل، ولا جماعة لمن اختلف. فلما انصرفوا من عند أكثم، تهيؤوا واستعدوا للحرب وأقبل أهل

اليمن من بني الحارث من أشرافهم، يزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المرخم ويزيد بن اليكسم بن المأمور، ويزيد بن هوبر، حتى اذا كانوا بتيمن نزلوا قريباً من الكُلاب، ورجل من بني زيد بن رباح بن يربوع يقال له مشمت بن زنباع في ابل له عند خال له من بني سعد يقال له زهير بن بوه اتى الحي فأنذرهم. قال: فركب المشمت ناقة، ثم سار حتى أتى سعداً والرباب وهم على الكلاب، فأنذرهم فاعدوا للقوم فصبحوهم، فاغاروا على النعم فطردوها، وجعل رجل من أهل اليمن يرتجز ويقول:

في كل عام نعم تنتابه
على الكلاب غيب أصحابه

فأجابه غلام من بني سعد كان في النعم على فرس له فقال:

عما قليل سترى أربابه
صلب القناة حازماً شبابه
على جياد ضمر عيابه

فاقبلت سعد والرباب ورئيس الرباب النعمان بن جساس، ورئيس بني سعد قيس بن عاصم المنقري، قال أبو عبيدة: اجتمع العلماء على أن الرئيس كان يومئذ قيس بن عاصم، فقال ضبي حين دنا من القوم:

في كل عام نعم تحوونه
يلفحه قوم وتنتجونه
أربابه نوكى فلا يحمونه
ولا يلاقون طعاناً دونه
أنعم الأبناء تحسبونه
هيهات هيهات لما ترجونه

فقال ضمرة بن لبيد الحماسي: انظروا اذا استقتم النعم، فان أتتكم الخيل عصباً عصباً، وثبتت الأولى للأخرى حتى تلحق، فان أمر القوم هين، وان لحق بكم القوم فلم ينظروا اليكم حتى يردوا النعم، ولا ينتظر بعضهم بعضاً، فإن أمر القوم شديد، وتقدمت سعد

والرباب، فالتقوا في أوائل الناس، فلم يلتفتوا اليهم واستقبلوا وجوه النعم فجعلوا يصرفونها بأرماحهم، واختلط القوم فاقتتلوا قتالا شديداً يومهم، حتى اذا كان آخر النهار قتل النعمان بن جساس قتله رجل من أهل اليمن كانت أمه من بني حنظلة يقال له (عبد الله بن كعب) وهو الذي رماه، فقال للنعمان حين رماه، خذها وأنا ابن الحنظلية فقال النعمان: ثكلتك أمك رب ابن حنظلية قد غاظني، فذهبت مثلا، وظن أهل اليمن أن بني تميم سيهدهم قتل النعمان فلم يزدهم ذلك الاجراءة عليهم فاقتتلوا حتى حجز بينهم المال فبات يحرس بعضهم بعضا فلما أصبحوا غدوا على القتال، فنادى قيس ابن عاصم يا آل سعد، ونادى عبد يغوث يا آل سعد، قيس بن عاصم يدعى سعد بن زيد مناة بن تميم، وعبد يغوث يدعو سعد العشيرة، فلما سمع ذلك قيس نادى يا ال كعب، فنادى عبد يغوث يا آل كعب، قيس يدعو كعب بن سعد، وعبد يغوث يدعو كعب بن عمرو، فلما رأى قيس من صنيع عبد يغوث قال: ما لهم أخزاهم الله ما ندعوا بشعار الا دعوا بمثله، فنادى قيس: يا آل مقاعس: يعني بني الحارث ابن عمرو بن كعب، وكان يلقب مقاعساً، فلما سمع وعلة بن عبد الله الجرمي الصوت وكان صاحب اللواء يومئذ طرحه (وكان أول من انهزم من اليمن) وحملت عليهم بنو سعد والرباب فهزموهم أفظع هزيمة، وجعل رجل منهم يقول:

يا قوم لا يقتلكم اليزيدان
يزيد حزن ويزيد الريان
مخرماً أعني به والديان

وجعل قيس بن عاصم ينادي: يا آل تميم لا تقتلوا الا فارساً، فان الرجالة لكم وجعل يرتجز ويقول:

لما تولوا عُصباً شوازبا
أقسمت ألا أطعن الا راكبا
اني وجدت الطعن فيهم صائبا

وجعل ياخذ الأسارى، فاذا أخذ أسيراً قال له: من أنت؟ فيقول:

من بنـي زعبـل، وهـو زعبـل بن كعب أخو الحارث بن كعب، وهم انذال. فكـان الأسرى يريدون بذلك رخص الفداء، فجعل قيس اذا أخـذ أسـيراً منهم دفعه الى من يليه من بني تميم ويقول: امسك حتى اصطاد لك زعبـلة أخرى. فذهبت مثلاً. فما زالوا في آثارهم يقتلون ويأسرون، حتـى أسر عبـد يغوث، أسره فتى من بني عمير بن عبد شمس، وقتـل يومئـذ علـقمة بن مسباح القريعي، وهو فارس هبود، وهبـود فرس عمر ابن الجميد المرادي، وأسر الاهتم رئيس كندة البراء ابن قيس، وقتلت التيم الأوبر الحارثي وآخر من بني الحارث يقال له معاوية، قتـلهـما النعمان بن جساس قبل أن يقتل، وقتل يومئذ من أشرافهم خمسة، وقتلت بنو ضبة ضمرة بن لبيد الحماس الكاهن، قتله قبيصة بن ضرار بن عمرو الضبي.

ها نحـن نرى قيساً قائداً عظيماً، وفارساً لا نظير له، لقد اختص الجيش المهاجـم الـذي بلـغ عـدده اثنـى عشر ألـفاً بأحكام جيشه، وبهجماته البطولية، وباندفاعاته القوية في صفوف العدو، وهو ينادي قومه، ولقد أدرك رئيس مذحج عبد يغوث تأثير هذا البطل الجريء في جيشـه، وتـأثير صوتـه المدوي وهو يقاتل الفرسان ويطعن الأبطال في نفوس أهـل اليـمن، وما أدخله في روعهم من رعب في قتاله وندائه، وأراد عبد يغوث أن يفشل حماس قيس، واستجابات قومه لندائه ويبعد الخوف والهلع من نفوس اليمنيين.

وهكذا نعلم أن العرب تشير الى المعنى الكبير باللفظ اليسير ولنا أن نتصـور مـا وراء ذلـك. ولـقـد تبين لنا ما لدى قيس من طاقة حربية هائلة وفروسية فائقة فهو بعد هذا القتال المرير الذي دام يوماً وليلة مع صباحـها وهو الرئيس الوحيد المعني بشؤون إدارة هذه المعركة الكبيرة أكثـر ما يـكـون نـشـاطاً وحيوية واندفاعاً انه يلاحق الفرسان الفارين ويصطادهـم الـواحـد بعد الآخر ويوزعهم على من يليه، إنها فروسية فريدة وبطولة عظيمة وقوة خارقة.

أما الجانب المهاجم فبعد أن هزم شر هزيمة وقتل منه ما يزيد على الألف رجعت فلوله متناثرة خائبة تجرر أذيال الخزي والخسران.

وهناك ظاهرة جديرة بالاعتبار وهي اعتراف اخواننا اليمنين بالهزيمة وعدم التحايل على الواقع المؤلم. وهذا ما لا نجده عندنا نحن العدنانيين. واليك ما قاله البراءِ بن قيس الكندي وهو أحد زعماء الجانب اليمني:

قتلتنا تميم يوم جدود
قتل عاد وذاك يوم الكلاب
يوم جئنا يسوقنا الحين سوقاً
نحو قوم كأنهم أسد غاب
سرت في الأزد والمذاحج طرا
وبكيل وحاشد الأنياب
وبني كندة الملوك ولخم
وجذام وحِمْيَر الأرباب
ومراد وخثعم وزبيد
وبني الحارث الطوال الرغاب
وحشدنا الصميم نبغي نهابا
فلقينا البوار دون النهاب
لقيتنا أسود سعد وسعد
خلقت في الحروب سوط عذاب
تركوني مسهداً في وثاق
أرقب النجم ما أسيغ شراب
خائفاً للردى ولولا دفاعي
بمئين عن مهجتي كالهضاب
للقيت الردى وكنت كقومي
في ضريح مغيباً في التراب
تذرف الدمع بالعويل نسائي
كنساء بكت قتيل الكلاب
فلعيني على الالى فارقوني
درر من دموعها بانسكاب

كيف أبغي الحياة بعد رجال

قتلوا كالأسود قتل الكلاب

منهم الحارثي عبد يغوث

ويزيد التيهان وابن شهاب

في مئين نعدها ومئين

بعد ألف منوا بقوم غضاب

برجال من العرانين شم

أسد حرب محوضة الأنساب

ثم لننظر لصاحب اللواء الفار، وتبريره هروبه قال:

عذلتني نهد فقلت لنهد

حين جاشت على الكلاب أخاها

يوم كنا عليهم طير ماء

وتميم صقورها وبزاها

لا تلوموا على الفرار فسعد

يال نهد يخافها من يراها

انما همها الطعان اذا ما

كره الطعن والضراب سواها

تركوا مذحجاً حديثاً مشاعا

مثل طسم وحِمْيَر وصداها

يال قحطان وادعوا حي سعد

وابتغوا سلمها وفضل نداها

ان سعد السعود أسد غياض

باسل بأسها شديد قواها

فضحت بالكلاب حار بن كعب

وبنو كندة الملوك أباها

أسلموا للمنون عبد يغوث

ولعض الكبول حولا يراها

بــعــد ألــف ســقــوا المــنــيــة صــرفــاً
فاصـــابــت فـــي ذاك سعــد منــــاهــا
لـــيـــت نـــهــدآ وجــرمـــهـــا ومـــراداً
والمـــــذاحــــيـــج ذو انـــاة نـــهـــاهـــا
عـــن تمــيــم فــلــم تــكــن فــقــع قــاع
تبــتـــدرهـــــا ربـــابهــــا ومـنــــاهـــــا
قــل لــبــكــر الــعــراق تــســتــر عــمــرا
عــمـــرو قـــيـــس فـــرأى عـــمـــرو قـــراهـــا
عـــن تمــيــم ولــو غــزتــهــا لــكــانــت
مــثــل قــحــطــان مــســتــبــاحــاً حماهــا

ولنا وقفة مع هذا الشاعر في كلامنا عن الفرار، ولا يتسع المجال للوقوف عند بعض نظرات هذين الشاعرين وابداعاتهما، كما اننا لا نستطيع ايراد قصيدة عبد يغوث في هذه المعركة، ولكنا سنذكر بعضا من ابياتها التي تشير الى الخيل وموقفه المحرج قال:

جـــزى الله قـــومـــي بـــالـــكـــلاب مـــلامـــة
صـــريحــــهـــم والآخـــريـــن المـــوالـــيـــا
ولـــو شـــئـــت نـــجـــتـــنـــي مـــن الخـيـــل نـــهـــدة
تـــرى خـــلـــفـــهـــا الـــحُـــوّ الجـــيـــاد تـــوالـــيـــنـــا
وتـــضـــحـــك مـــنـــي شـــيـــخـــة عـــبـــشـــمـــيـــة
كـــأن لـــم تـــرى قـــبـــلي أســـيـــراً يمـــانـــيـــا

وكان قد أسره فتى من بني عبد شمس أهوج، فانطلق به الى أهله، فقالت له أمه ورأت عبد يغوث عظيماً جميلا: من أنت؟ قال: أنا سيد القوم، فضحكت وقالت: قبحك الله من سيد قوم حين أسرك هذا الأهوج.

وقال في آخرها:

وعـــاديـــة ســـوم الجـــراد وزعـــتـــهـــا
بـــكـــفـــي وقـــد انـــحـــو على المـــوالـــيـــا

كـــأنـــي لـــم أركـــب جـــواداً ولـــم أقـــل
لخـــيـــلي كـــرى نفســـي عـــن رجـــاليـــا

ان هذه المعركة الفاصلة، في تاريخ الجاهلية قد قضت على تطلعات القبائل اليمنية، ومحت كل شموخ واستعلاء في نفوسهم، وأعطت سعداً والرباب مكانتهم العربية العظيمة ولا شك أن لرئاسة قيس بن عاصم الحكيمة، وزعامته الحازمة، أبلغ الأثر في هذا الانتصار الباهر.

ان قيساً يمتلك صفات القائد المحنك والرئيس الحازم والمقاتل الفذ والشجاع الذي لا يهاب، كما أن لديه عزماً لا يعرف الهوادة وجرأة لا تكترث بالأهوال. فكلما دعا قيس باسم دعا عبد يغوث باسم مثله حتى اختص قيس (بمقاعس) وليس في مذحج اسم مثله.

ولقد حفظت الرواية هذا التأثير البالغ الذي أشرنا اليه حيث جاء فيها (فلما سمع وعلة بن عبد الله الجرمي الصوت، وكان صاحب اللواء يومئذ طرحه وكان أول من انهزم من اليمن).

وقيس هو أول من قطع خط الرجوع في تاريخ حروبنا العربية، ولعل طارق بن زياد قد اقتبسها في فتحه الأندلس. وسنورد أخبار يوم ثيتل لنطلع الى ما أشرنا اليه.

(خرج قيس بن عاصم المنقري بمقاعس، وهو رئيس عليها، ومعه سلامة بن ظرب في الأجارب فغزوا بكر بن وائل، فوجدوا اللهازم وبني ذهل بن ثعلبة، وعجل ابن لجيم، وعنزة بن أسد بالنباج، فتنازع قيس وسلامه في الاغارة ثم اتفقا على أن تغير قيس على أهل النباج وثيتل، ويغير سلامة على أهل ثيتل فبعث قيس سنان بن سميّ الأهتم شيّفة له، فلقي رجلا من بكر بن وائل، فتعاقدا على ألاّ يتكاتما، فقال الاهتم: من أنت؟.. قال: فلان بن فلان، ونحن بجوف الماء حضور، فمن أنت؟ قال الاهتم: أنا سنان بن سمي، وهو لا يعرف الا بالاهتم، فغفل نفسه له، فرجع البكري فأخبر قومه عنه، ورجع الأهتم فأخبر قيساً الخبر، وقال: يا أبا علي، هل بالوادي طرفاء؟ فقال قيس: بل به نعم، وعرف أنهم بكر فكتم أصحابه.

فلما أصبح سقى خيله، ثم اطلق أفواه الروايا، وقال لاصحابه:

قاتلوا فالموت بين أيديكم، والفلاة من ورائكم، فلما دنوا من القوم صبحا، سمعوا ساقياً من بكر يقول لصاحب له: يا قيس، أورد، فتفاءلوا بالظفر، ثم أغاروا على أهل النباج من بكر قبيل الصبح فقاتلوهم قتالا شديداً، ثم إن بكراً انهزمت، وأسر الأهتم حمران بن عبد عمرو، وأسر فدكي بن أعبد جثامة الذهلي، وأصابوا غنائم كثيرة ثم قال قيس لأصحابه: لا نقيل دون اخواننا بثيتل.

وعاد مسرعاً إلى سلامة، ومن معه، فادركهم ولم يُغِزْ بعد سلامة وأصحابه على من بثيتل فأغار قيس عليهم فقاتلوهم، ثم هزموهم، فأصابوا ابلا كثيرة، وجاء سلامة وقال:

أغرتم على ما كان اليّ! فتلاحوا حتى كاد الأمر يفقم. ثم اتفقوا على أن يسلموا لسلامة غنائم ثيتل. وفي ذلك يقول ربيعة بن طريف ابن تميم حيث رثى قيسا:

فلا يبعدنك الله قيس بن عاصم
فانت لنا عزّ عزيز ومعقل
وأنت الذي حربت بكر بن وائل
وقد عضلت منها النباح وثيتل
غداة دعت يا آل شيبان إذ رأت
كراديس يهديهن ورد محجل
وظلت عقاب الموت تهفو عليهمُ
وشعث النواصي لجمهن تصلصل
فما منكم افناء بكر بن وائل
لغارته الاركوب مذلل

وقال قرة بن قيس بن عاصم:

انا ابن الذي شق المزاد وقد رأى
بثيتل احياء اللهازم حُضَّرا
فصبحهم بالجيش قيس بن عاصم
فلم يجدوا الا الأسنة مصدرا

سقاهم بها الذيفان قيس بن عاصم
وكان اذا ما أورد الأمر أصدرا
على الجرد يعلكن الشكيم عوابسا
اذا الماء من اعطافهن تحدرا
فلم يرها الراءون الا فجاءة
نشرن عجاجا بالسنابك اكدرا

لقد ذكرنا هذا اليوم كما جاء لنكتشف صنيع قيس، والخلاصة التي نوجزها هي: مزايا انفرد بها قيس، في تاريخ الفروسية العربية، في هذه الغزوة. الا وهي أنه أخفى خبر القوم عن أصحابه، لأن من كان معه، هم مقاعس فقط، وهم جزء من سعد، ولا شك أنهم قليلون بالنسبة لعدد عدوهم، ولذلك اخفى قيس أمر العدو.

والثانية انه سقى خيله واستعد للقتال، وأمر بشق رواياهم، وبذلك كان أول من قطع خط الرجوع لمن تسول له نفسه النكول، وقال قولته التي مرت بنا.

والثالثة : انه بعد أن قاتل بجيشه أشد القتال، وهزم من بالنباج، أصر على جيشه ان لا يقيل هو ومن معه دون اخوانهم بثيتل، ثم وجد سلامة ومن معه، لم يغزوا من بثيتل، فيغير على بكر ويهزمهم مرة ثانية، وسلامة في استعداداته بعد، ثم يسلم غنائم ثيتل لسلامة.

ولقيس بن عاصم مواقع ومواقف في الفروسية والحرب، سنجتزىء بذكر موقف نستخلصه من يوم جدود.

(جمع الحارث بن شريك بني شيبان وذهلا، واللهازم وعليهم حمران ابن عبد عمرو، وأراد أن يغزو بني يربوع، فخرج اليه عتيبة بن الحارث ابن شهاب، فنادى في بني جعفر بن ثعلبة، فحالوا بين الحارث وبين الماء، فعرض عليه الحارث ان يعطيهم ما معهم من التمر ويخلوا سبيلهم، فأخذوا التمر وخلوا سبيلهم، فسار الحارث في بكر بن وائل، حتى أغار على بني ربيع بن الحارث بجدود، فأصاب سبيا ونعما، وهم خلوف، فبعث بنو ربيع صريخهم الى بني كليب بن يربوع، وهم

يومئذ جيرانهم فلم يجيبوهم ، فاتى الصريخ بني منقر بن عبيد ، فركبوا في الطلب فلحقوا بكر بن وائل وهم قائلون ، وهجم بنو منقر، واشتد القتال ونادت نساء بني ربيع : يا لَسعد ، وحمى قتال بني منقر لما نادت النساء ، فهزمت بكر بن وائل في جدود (موضع قريب من الكلاب) وقد يسمى يوم الكلاب بيوم جدود ، وخلوا ما كان في أيديهم من السبي والأموال ولم تكن لرجل منهم همة الا ان ينجو بنفسه وتبعتهم منقر فمن قتيل وأسير.

واتبع قيس بن عاصم الحارث بن شريك ، وهو على فرس له يدعى الزبد ، وقيس بن عاصم على الزعفران بن الزبد ، فرس الحوفزان ، فاذا استوت الأرض لحقه قيس ، واذا وقعا في هبوط أو صعود بعد الحوفزان بقوة فرسه وسنه ، فلما خشي ان يفوته قال : استأسر يا حارث خير أسير، فقال الحارث : لا ، بل شر أسير، ثم زجر فرسه فسبق مهر قيس لقوته ، وتخوف قيس ان يفوته الحوفزان ، فحفزه بالرمح في استه وبها سمي الحوفزان ، وقد مات منها بعد سنة) .

لقد كان الحوفزان من الرؤساء الجرارين ، والفرسان المشهورين ، والأبطال المعروفين ، وهو أحد ابطال ذي غار المعلمين ، وقد أبلى في معركة ذي غار بلاء حسنا ، ولكنه امام قيس ما كان همه الا الفرار، ولم ينجه الا يسيرا ، ان قيسا مثال للنجدة العربية في اغاثته لنساء بني ربيع حين أتاه صريخهم ، فحطم جيش بكر واسترجع سبي بني ربيع ونعمهم ، وكان همه أن يأسر رئيسهم أو يقتله ليحسم نزعة العدوان على الاحياء وأهلها خلوف. ولقيس صفات كريمة في غير الحروب والفروسية جديرة بالدراسة والتمعن ، لا يتسع المجال لايرادها ، ولكننا سنشير الى بعض منها .

ولقيس بن عاصم ، مقطوعة شعرية يذكر فيها محاسن عشيرته وكريم ارومته وفصاحة قومه ، ومع ان الابيات كلها رائعة في بيانها وشاعريتها ، وسمو معانيها ، الا أننا سنذكر منها بيتا واحدا لأهمية الصفة الخلقية المثلى التي تطرق اليها قيس ، ولم يعرض اليها احد من الجاهليين بالمعنى الذي اداه قيس ، قال :

لا يفطنون لعيب جارهم
وهم لحفظ جواره فطن

ان هذه المثالية الخلقية العالية تبين لنا ما يحمل قيس من مثل عليا، ومكارم خلقية لا مثيل لها، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لينطق عن الهوى، حينما بسط رداءه، وقال: (اجلس فانت سيد أهل الوبر) لقد رأينا في قيس أعلى مراتب قمة الفروسية، واكمل صفات النجدات العربية وأقوى صفات الرئاسة الحقة، وأنبل مكارم الخلق العليا.

وسنقف عند وصيته العظيمة وقفة يسيرة.

لقد أوصى قيس بنيه، وكان له من الأبناء ثلاثة وثلاثون، حين حضرته الوفاة، فلنستمع لوصيته قال: (اذا مت فلا تنوحوا علي، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينهى عن النياحة، وادفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها، وسّودوا كباركم، ولا تسودوا صغاركم فيسفه الناس كباركم، وعليكم باصلاح المال فانه منبهة للكريم، ويستغني به عن اللئيم، واياكم والمسألة فانها آخر مكاسب المرء، واخفوا قبري عن هذا الحي من بكر بن وائل، فقد كانت بيننا خماشات في الجاهلية، واخشى أن ينبشوني فيفسدوا عليكم دينكم وتفسدوا عليهم دنياهم، ثم أمر ان يؤتى بجعبته فنثر منها ثلاثة وثلاثين سهما ثم أمرهم بشدها، ثم قال: اكسروها فلم يستطيعوا، ثم فرقها فقال: اكسروها سهما سهما فكسروها، فقال: هكذا أنتم في الاجتماع والفرقة ثم قال:

انما المجد ما بني والد الصد
ق واحيا فعاله المولود
وتمام الفضل الشجاعة والحلْم
اذا زانه عفاف وجود
وثلاثون يا بني اذا ما
جمعتهم في النائبات العهود

كثلاثين من قداح اذا ما
شدها للزمان قدح شديد
لم تكسر وإن تفرقت الأسهم
اودى بجمعها التبديد
وذوو الحلم والاكابر أولى
ان يُرى منكم لهم تسويد
وعليكم حفظ الأصاغر حتى
يبلغ الحنث الأصغر المجهود

قال الحسن : لقد نصحهم حيا وميتا ، ولا يتسع المقام للتعليق على هذه النصيحة القيمة الخالدة في كتابنا هذا ولكن لا بد من اشارة يسيرة الى أبياتها . انظر الى تشخيصه للمجد وربطه الفروع بالأصول ، ونظرته لاكتمال الفضل بالشجاعة والحلم ، ثم اشتراطه ان يزان بالعفاف والحلم . ثم ضربه المثل الواقعي بالقداح الكثيرة في حالة شدها وفي حالة تبددها وكيف صور قوة الاجتماع ، وضعف الفرقة ، ثم ركز على تسويد ذوي الحلم والحجا من الاكابر ، وأخيرا أوصاهم بحفظ الأصاغر حتى يبلغوا مصاف الرجال . انها درة يتيمة من الواجب تدريسها في المعاهد والجامعات لقيمتها ونفاستها ، ولقيس أحاديث رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيها الكثير من المعاني الشريفة والاخلاق الكريمة ، وقد جاهد قيس في حروب الردة أهل البحرين ، ولنختم سيرة هذا الطود الشامخ بقصته مع عبَدَة بن الطبيب .

(كان بين قيس بن عاصم وعبدة بن الطبيب لحاء ، فهجره قيس ، ثم حمل عَبَدَة دما في قومه فخرج يسأل فيما تَحَمّله ، فجمع ابلا ، ومر به قيس بن عاصم ، وهو يسأل في تمام الدية ، فقال : فيم يسألُ عبد ؟ فساق اليه الدية كاملة من ماله ، وقال : قولوا له ليستمتع بما صار اليه وليسق هذه الى القوم ، فقال عبدة : اما والله لولا ان يكون صلحي اياه بعقب هذا الفعل عارا عليّ لصالحته ، ولكني انصرف الى قومي

ثم أعود فأصالحه، ومضى بالأبل ثم عاد فوجد قيسا قد مات، فوقف على قبره وأنشد يقول:

عليك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمته ما شاء ان يترحما

تحية من أوليته منك نعمة
اذا زار عن شحط بلادك سلما

فما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

وان تعجب من كرم قيس الفياض وسماحته الخلقية ومروءته الكاملة، فعجب إباء عبدة ووفاؤه.

ولا يسعنا الا أن نترحم على سيد الصحراء، ورئيس الأبطال، وامام الفرسان، كما ترحم عليه عبدة.

الفُـــــرّار

يعتبر العرب الفرار عاراً مهما كانت أسبابه وظروفه، ويرونه شناراً ولو اضطروا اليه، وقد يلقى كثير من الأبطال بنفسه في معمعان الموت، خشية العار ولو أراد الهروب لوجد اليه سبيلاً.

ومن هؤلاء الذي لقوا الموت بكل بسالة واقدام، لقيط بن زرارة، فقد انهزم من معه في يوم شعب جبلة، فثبت وفر من حوله، وحينما طلب منه أحد العبسيين أن يعبر اليه الجرف قذف بفرسه مسرعاً اليه غير مبال بما يتعرض له، فقتل ومثل به، وأسر أخوه حاجب، وعمرو بن عمرو بن عُدُس.

والعرب لا تريد من رؤسائها أن تفر ولا تقبل ذلك منهم، ولا تبيح لهم عذراً مهما كان الاضطرار، وتعده خزياً معيباً يعير به المرء طول حياته، ونلاحظ أن العدنانيين أقل تقبلا لهذا الواقع المؤلم، أما اليمنيون فهم أكثر تقبلا له، واعترافاً به، كما أسلفنا.

ومن أغرب حوادث الفرار وأندرها حدوثاً، وأكثرها اثارة ــ وقد خلط فيها كثير من العلماء الشراح لملابساتها ــ فرار وعلة بن عبد الله الجرمي، وقد لحقه رجل من بني سعد، فعقر به مركوبه، فنزل وجعل يعدو على رجليه، فلحق رجلا من بني نهد يقال له سليط بن قتب، من بني رفاعة، فقال له لما لحقه: أردفني، فأبى، فطرحه عن فرسه وركب عليها، وأدركت الخيل النهدي فقتلوه، فقال وعلة في ذلك:

ولما سمعت الخيل تدعو مقاعسا
علمت بأن اليوم أغبر فاجر

نجوت نجاء لم ير الناس مثله
كأني عقاب دون تيماء كاسر

خدارية صقعاء لُبّد ريشها
بطخفة يومٌ ذو أهاضيب ماطر

وقد قلت للنهدي: هل أنت مردفي
وكيف رداف الفل أمك عاقر

فان أستطع لا تبتئس بي مقاعس
ولا يرني باديهمُ والحواضر

فدى لكما ــ رجليّ ــ أمي وخالتي
غداة الكلاب اذ تحز الحناجر

فمن كان يرجو في تميم هوادة
فليست لجرم في تميم أواصر

انه يحدثنا بصراحة واضحة عن فراره، فهو حينما سمع صيحات مقاعس مع هجماتهم، وهزته دعواتهم المخيفة، ورأى اندفاعهم المريع، علم بأن يومه أغبر فاجر، فلماذا يعرض نفسه للموت أو الأسر؟ فلينج ما وجد الى ذلك سبيلا، ووعلة لم يتردد في الهزيمة، فحين تيقن من يومه الفاجر التعس، أسرع في الفرار، فالقى اللواء ــ وكان صاحبه ــ وهرب، فلحقه رجل من بني سعد، فعقر به مركوبه فنزل وجعل يعدو على رجليه، الى آخره كما مر. لقد مر وعلة في هذا الفراز بأوضاع متعددة، فهو صاحب لواء اليمنين، فألقاه بعد أن تملكه الهلع، وهرب راكباً، ثم لحق به أحد بني سعد وعقربه ففر ثانياً راجلا، يحمد رجليه ويفديهما حتى لحق برجل من اليمن من نهد، فطلب من النهدي أن يردفه ولكنه يتساءل هل يمكن للهارب المرعوب أن يردف أحداً؟ ويقدم وعلة اقدام الذي يرغب في النجاة ولا يبالي من هلك بعده، فيتجه الى النهدي، ويطرحه عن فرسه، ويركبها ويترك النهدي للقتل، ويسرع في الهروب، وفي رواية أخرى: (يقول لي النهدي هل أنت مردفي) وعلى هذا نرى النهدي يتوسل الى وعلة ــ بعد أن طرحه عن فرسه وركبها ــ ويقول له: لقد أخذت الفرس، وهي لي، وستنجو بها، فهلا تردفني؟ وهنا يظهر وعلة السخرية بالنهدي، ويتركه للموت، مستغرباً طلبه، مستبعداً تحقيقه.

ان المراحل المتعددة في حادثة فرار وعلة، ووصفه مرة ماشياً ومرة راكباً ووصفه للحالتين جعل بعض الرواة يتوهم أنه فر راجلا.

ان حادثة الهروب هذه توضح لنا صورة من أدق الصور تبياناً، واظهرها جلاء، وأبدعها فناً، فهي قد أطلعتنا على ما خامر وعلة من خوف وهلع، وما صاحبه من حرص شديد على النجاة، ولو قاتل في سبيل ذلك بطريق عكسي، فالفرار غايته التي يسعى اليها، ولن يكترث لما يعترضه في سبيل ذلك.

ولنا أن نتصور النهدي مسرعاً في فراره، ونرى وعلة حاثّاً رجليه، باذلا جهده، محاولا اللحاق بالنهدي، وهو يمكر به، ويقول: هل تردفني؟ وما كان قصده الا أن يتريث النهدي، ويستجيب النهدي للمحاورة الخادعة، فيمسك بعنان فرسه، ويلحق به وعلة، واذا هو كالذئب الأمعر، يقذف بنفسه على النهدي، فيطرحه، ويستقر مكانه، وينطلق بالفرس كأنه عقاب كاسرة وهو يلتفت فلا يرى أحداً وراءه، فيمتلىء قلبه بهجة وفرحاً. بعد أن ملىء رعباً وهلعاً، ويعرف مصير صاحبه النهدي المهلك، فيضحك ملء شدقيه، ويبرز لنا تهكمه اللاذع، وسخريته المرة.

ولئن كان وعلة خبيثاً في صنيعه، لئيماً في خداعه مع النهدي، فلقد كان رائعاً في تصوير فراره، مبدعاً في نقل حوادثه، صادقاً في تعبيره عن خوالج نفسه.

وهناك حادثة فيها شبه من فرار وعلة، الا أنه ليس فيها ملابساتها الغريبة. ففي يوم ذي طلوح هزمت يربوع بكراً، ولم يفلت من بكر الا شيخ من بني شيبان، ثم أحد بني سعد بن همام، نجا على فرس له وقد كان أخوه معه فأخذ، فلما أتى الحي سألته بنت أخيه عن أبيها، فقال الشيخ:

تسائلني هنيدة عن أبيها ... وما أدري، وما عبدت تميم

غداة عهدتهن مقصمات ... لهن بكل محنية نحيم

فـمــا أدري أجــبــنــا كــان طــبــي
أم الــكــوسى اذا عــد الحــزيــم

لقد ذهل الشيخ فما يدري كيف يجيب هنيدة، فقد أطار لبه منظر الخيل بين الطعان والضراب ونحيم الخيل المنتشر في كل ناحية، ثم هو لا يعلم ان كان فراره جبناً أم كياسة وحزماً. لقد صور الشيخ حالة الاضطراب التي أصابته، والارتباك الذي صاحبه، حتى أنه لم يتبين أمره، ولم يعرف ما اذا كان عمله صواباً أم أن ما ركب في طبعه من الجبن جعله يتجه تلقائيا الى الفرار، ففضل السلامة والنجاة غير عابيء بما سواهما.

ان هذا الشيخ قد كشف عن حالته النفسية، واطلعنا على الصدمة التي شلت تفكيره، وأوقفت تقديره، وجعلته في حيرة من أمره، فهو يقسم بأنه لا يدري شيئاً عن أخيه حينما سألته ابنته عنه، ثم هو كما فصلنا لا يستطيع تقدير تصرفاته وادراك نتائج أفعاله.

وبين أيدينا موقعة فر فيها الحطيئة، وعلل فيها هروبه تعليلا منطقياً. (أغارت بنو عبس على ربيعة بن مالك بن حنظلة، فأتى الصريخ بني يربوع، فركبوا في طلب بني عبس، فأدركوهم بذات الجرف، فقتل وأسر الكثير من بني عبس، وقتل عصمة بن حدرة الرياحي سبعين رجلا من بني عبس، وقد كان عصمة نذر ألا يشرب خمراً، ولا يأكل لحماً، ولا يقرب امرأة، ولا يغسل رأسه حتى يقتل سبعين رجلا من بني عبس، حينما علم بقتل بني عبس للعفاق بن الغلاق بن قيس) (١)، لقد شهد الحطيئة هذه المعركة ورأى في هذا اليوم ما لقيته عبس من تقتيل وأسر، فهرب وقال:

ومــا أدري اذا لاقــيــت عــمــرا
أكــلــبــي آل عــمــر أم صــحــاح
لــقــد بــلــغــوا الــشــفــاء فــأخــبــرونــا
بــقــتلى مــن تــقــتــلــنــا ريــاح؟
حــوتــنــا مــنــهــم لمــا الــتــقــيــنــا
رمــاح في مــراكــزهــا رمــاح

(١) يوم الصرائم

وجـــرد في الأعـــنـــة مـــلـــجـــمـــات
خـــفـــاف الـــطـــرف كـــلـــمـــهـــا الـــسلاح
اذا ثـــار الـــغـــبـــار خـــرجـــن مـــنـــه
كـــمـــا خـــرجـــت مـــن الـــغـــدر الـــسراح
ومـــا بـــاءوا كـــبـــوئـــهـــم عـــلـــيـــنـــا
بـــفـــضـــل دمـــائـــهـــم حـــتـــى أراحـــوا

ها هنا نرى الحطيئة متزناً كامل الطمأنينة النفسية، يحلل الموقعة تحليلا صادقاً ويسجل حوادث المعركة تسجيلا ذا احاطة وعمق. لقد تساءل عن هؤلاء القوم: أهم مرضى بداء الكلب أم صحاح؟ فهو يرى رغبة في التقتيل ضارية تفتك بجيشه، ولقد بلغ بنو يربوع الشفاء بقتلهم الشنيع لعبس فما يريدون بعد؟ وانتم يا من جئتم بنا لقتال بني يربوع بأي قتلى تقتلنا بنو رياح وقد بلغوا ثأرهم، وزادوا في انتقامهم، وشفوا أنفسهم، وهم لا يزالون يقتلون. فلماذا الانتظار؟ لقد رأينا الحطيئة رابط الجأش، قوي النفس، ثابت الرأي، يقرر أنه اذا لم يكن هناك مجال للانتفاع بالثبات الا الهلاك والقتل فالأولى بالمرء الفرار. انه يثبت حقيقة حربية، وهي أن الهزيمة والانسحاب لابد منهما اذا كان فيهما بقاؤه، ونستطيع أن نقرر أن الحطيئة لم يكن فراره عن خوف بل كان يفضل أن يظل في الجيش حتى يؤسر ولا يوصم بالفرار. ولكنه حينما فكر في مصيره عند هؤلاء المسعورين، تيقن أنهم مرضى بداء القتل، وأنه ليس من العقل أن يقدم نفسه للقتل، والمنطق يفرض عليه الفرار ـــ وعلى كل بني عبس ـــ لأن تعرضهم للقتل دون نتيجة نافعة هو سوء تصرف.

ثم يذكر احاطة بني يربوع بهم وشدة قتالهم، وصلابة موقفهم، وقوة طعنهم، وانهم عند الالتقاء حوتهم (رماح في مراكزها رماح) ولأول وهلة قد لا يشعر المرء بقوة هذا الوصف المحكم، ولكنه لو أمعن فيه لوجد الحطيئة قد جاء بأروع وصف قتالي، انه يصف رماحهم بأنها ليست عادية، بل إن هناك رماحاً ركبت في مراكز هذه الرماح، ولنا أن نتصور قوة الرماح المزدوجة وخطورتها، وشدة الطعن

بها المنبعث من الرماح، ولقد بين صلابة ايدي الفرسان وقدرتهم القتالية الفذة حيما ذكر مراكز الرماح، وبعد أن ذكر سبب انتصار بني يربوع عليهم بالطعان المدعوم والاندفاع الصلب المكثف الذي أحاط بهم فحواهم، عرج على ذكر الخيل فذكر بعض ملامحها، وبين آثار الجراحات فيها بقوله (كلمها السلاح) وهذا ذكر لاصطدام الطعان، واشتداد الصراع بين الطرفين، اذ أن الخيل لا تكثر جراحاتها الا في مواطن الالتحام المحرج، ثم اتجه الى فنه الشعري، فأرانا خروج الخيل من الغبار بعد أن أثارته وكأنها ذئاب خرجت من أغدارها. ثم انهى الموقف الأخير بتقرير موجز عن نتائج المعركة فقال: انهم لم ينتصروا كانتصارهم علينا، وقد نالوا من الدماء ما زاد على ما يريدونه من ثأرهم، وكان ذلك سريعاً وحاسماً.

والعرب تأنف من الفرار، وتراه وصمة ما بعدها وصمة، وتزدري صاحبه، وتنظر الى زعمائها الفارين نظرة المهانة والصغار.

. ومن أبرز زعماء الفرار الطفيل بن مالك الجعفري العامري، وقد اشتهر بالفرار، وعرف فرسه قرزل كعلم للفرار، وقد عير به وعير ابنه عامر أيضاً، وقد سخر منه أوس بن حجر مراراً، وقد قال له:

والله لـــــولا قـــــرزل اذ نـــــجـــــا
لـــكـــان مـــهـــوى خـــدك الأخـــرمـــا

يقول له لولا فرارك على قرزل لتوسدت التراب، مقتولاً في وادي الأخرم، وعلقت هذه الوصمة بابنه عامر، وعلى الرغم من أن عامراً كان فارس قيس الا أنه كان يفر أحياناً، ولكنه لم يكن في فراره كأبيه، وقد ألمحنا الى ذلك فيما سبق من هذا الكتاب إن عامراً لا يفر الا اذا لم يجد مجالا للقتال، ثم هو لا يبرح القتال الا بعد أن يستنفد جهوده، ويبذل طاقاته، ويدفع بجميع امكاناته. فاذا أعياه الأمر، وأعجزته الحيلة فر. فهو لا يريد الموت، وليتقبل العار، ولعل ذلك العِرق أدركه من أبيه.

ولنتستخلص فصة فرار عامر بن الطفيل في يوم الرقم، وما قاله سلمة بن الخرشب الانماري الغطفاني.

(أغارت بنو عامر على غطفان فهزمت. وأقبل عامر بن الطفيل منهزما حتى دخل في بيت أسماء بنت قدامة بن سكين، وقتل من بني جعفر كنانة والحارث ابنا عبيدة بن مالك بن جعفر، وقيس بن الطفيل بن مالك، وقد لقى بنو عامر في انهزامهم كثيرا من المصاعب، فقد تجنب قوم منهم المياه، خشية أن يقعوا بأيدي بني ذبيان، فتعرضوا للعطش المهلك، وفي هذه المتاهة، اختنق الحكم بن الطفيل تحت شجرة مخافة المثلة فمات.

وفي هذا اليوم كثير من الغرائب والملابسات أعرضنا عن ذكرها. ويقال: ان غطفان أصابت يومئذ أربعة وثمانين رجلا من بني عامر، فدفعتهم الى أ هل بيت من أشجع بن ريث بن غطفان كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم، فجعل رجل منهم يقال له عقبة بن حليس بن عبدالله بن دهمان يقول: من أتاني بأسير فله فداؤه. فجعلت غطفان يأتونه بالأسرى وهو يذبحهم، حتى أتى على آخرهم، فسمى مذبحا).

بعد ايراد هذه الخلاصة نستطيع أن نتعرف على ما يقوله سلمة بن الخرشب قال:

اذا ما غدوتم عامدين لأرضنا
بني عامر فاستظهروا بالمرائر
فان بني ذبيان حيث عهدتم
بجذع البتيل بين باد وحاضر
يسدون أبواب القباب بضمر
الى عنن مستوثقات الأواصر
وأمسوا حلالا ما يفرق بينهم
على كل ماء بين فيد وساجر
واصعدت الحطاب حتى تقاربوا
على خشب الطرفاء فوق العواقر

نجوت بنصل السيف لاغمد فوقه
وسرج على ظهر الرحالة قاتر
فأثن عليها بالذي هي أهله
ولا تكفرنها لافلاح لكافر
فلو أنها تجري على الأرض أدركت
ولكنها تهفو بتمثال طائر
خدارية فتخاء ألثق ريشها
سحابة يوم ذي أهاضيب ماطر
فدى لأبي أسماء كل مقصر
من القوم من ساع بوتر وواتر
بذلت المخاض البزل ثم عشارها
ولم تنه منها عن صفوف مظائر
مقرن افراس له برواحل
تناولنهم مستقبلات الهواجر
فأدركهم شرق المرورات مقصرا
بقية نسل من بنات القراقر
فلم تنج الا كل خوصاء تدعى
بذي شرفات كالفنيق المخاطر
وانك يا عام بن فارس قرزل
معيد على قيل الخنا والهواجر
هرقن بساحوق جفانا كثيرة
وأديّن أخرى من حقين وحازر

لقد بدأ سلمة قصيدته بسخرية مرة، وباستهزاء مهين ببني عامر، فقال:
اذا ما غزوتم ديارنا فاستصحبوا معكم الحبال، لتشنقوا أنفسكم، ثم أخبرهم أن بني ذبيان في أماكنهم التي عرفتموها، وهم يسدون أبواب بيوتهم بالخيل المضمرة التي أعدت لقهر الأعداء، وقتل المغيرين،

وأضحوا مقيمين على مياههم، وتفرقت حُطابهم بحيث لا يخشون طارقا أو مغيرا.

ثم اتجه الى عامر ليخزيه بفراره، وذكر أنه نجا بنصل السيف، ثم أوضح أن لا غمد فوقه، حتى لا يتوهم السامع ان النصل هنا للقتال المشرف، وانما هو لخوفه على نفسه، وأبان بالقاء الغمد عن حرص عامر في التخفيف لينجو في هروبه، ويسلم في فراره، وهو ابداع في تصوير حالة عامر النفسية، وقد تملكه الرعب، وسيطر عليه خوف القتل، وانه لو استطاع ان ينسلخ من جسمه لفعل، رغبة في النجاة، وحبا في الحياة. وعطف على السيف المخفف، السرج المحكم، وهذا زيادة في السخرية، ليظهر رغبة عامر في مواصلة الفرار، اذ أن الرحالة الجيدة هي التي تمكنه من مداومة الهروب، ولذلك حافظ عليها. ثم اتجه الى التلاعب بعامر ليظهر بمظهره الحقير التافه الذي لا يهمه الا نفسه، فأمره بالثناء على فرسه التي بلغته منية نفسه في النجاة، أما الأمور التي تهم الرؤساء الشجعان ويحذرها الابطال الفرسان، فهي بعيدة على من يتملكه الخوف، ويسيطر عليه الجبن، ويستحوذ عليه حب الحياة، وراح يمعن في الاستهزاء والسخرية بعامر، ويقول: لا تكفر نعمتها عليك، وفضلها في انقاذك، فان كفران صنيعها نذير بالشؤم عليك، ودليل على ضعة اخلاقك، وخسة طباعك، ولماذا تكفرها وقد نجتك، وأوصلتك الى السلامة، وهي غاية آمالك، ومنتهى سؤلك، أما الكرامة فأنت أحقر من أن تفكر فيها واضعف من أن تحافظ عليها، وإلا لماذا فررت هذا الفرار المخزي، وتحملت العار والشقاء لك ولقومك، وأنت تزعم أنك رئيسهم، انك لست كفوا لشيء من الرئاسة أو الزعامة أو القيادة، لقد بلغت من الحقارة مبلغا عظيما، هربت إلى قاع الدناءة، وانحططت الى حضيض الخسة فأولى لك أن تربت على ظهر فرسك، وتوليها الحمد والثناء، لأنها بلغتك أقصى امنياتك وهي السلامة. أما المجد فاتركه لأصحابه فلست من أهله.

ان سلمة أغرق عامرا بتحقيره، لان عامرا تعرض لأسماء في شعره، وغضبت شعراء غطفان من تعريضه، فتصدى له سلمة والنابغة

الذبياني.

ثم راح سلمة يصور فرار عامر، ويصف تلك الفرس التي طلب لها الثناء من عامر، فقال: انها لو كانت تعدو على الأرض لادركت، ولكنها كالطائر بجناحيه ثم وصف الطائر الذي شبهها به، وان كان الصف الفرس فانه يشير الى راكبها الذي يحثها لينجو بنفسه، غير عابىء بالاهانة والعار.

وبعد ذلك يتجه سلمة الى تحقير عامر باسلوب غير مباشر ليفهم عامرا ان الرئاسة لا تدرك الا بالأفعال المجيدة، وبذل النفس والأموال، أما الفرار الجبناء، والادنياء الخبثاء فلا ينالونها (فدى لابي الاسماء كل مقصر) وأبو اسماء هذا هو الحارث بن ظالم المرى، وذكر شجاعة الحارث وفضله وصبره، لقد ثبت لبني عامر حتى فل جيشهم، وحطم قوتهم بخيله الاصيلة، ورجاله الأبطال، فانهزموا شر هزيمة، ولم يفلت الا من نجاه فراره، مستصحبا عاره. ثم عاد الى عامر ليخبره أنه بالفرار أصيل، فأبوه أشهر من عرف بالفرار، فليس يستغرب من عامر ذلك. وهجم على عامر بما قصد من التصدي له في تعريضه الذي أنشأ هذه القصيدة من أجله، فقال: ان ديدنك المداومة على أقوال الخنا وهجر الكلام، وهذا من أخلاق السفلة المنحطين، ونلاحظ أنه لم يصل الى هذا الكلام الا بعد أن ذكر أفعال عامر المشينة في فراره، وجبنه وحرصه على الحياة، وذكر فضل الحارث بن ظالم ونبله وشجاعته. وبذلك يكون قد علق على صدر عامر وسام الخزي، ثم ألحقه بوسام الدناءة الخلقي، وفي آخر بيت يبدي ما فعلته الخيل في المعركة، فكم قتلن من كريم يطعم الناس، وجئن باساري شرفاء ودون ذلك.

ومن أبرز الفرسان الذين عرفوا بالفرار بسطام بن قيس، وقد تلقى اللوم الشديد من أحد فرسان قومه وهو العوام الشيباني، وألح العوام في تعيير بسطام حتى ضاق بسطام ذرعا بقوله، ولم يستطع ان يرد عليه، لانه لا يقول الشعر، ولا أهل بيته من آل مسعود، فأخذ ابل العوام، فقالت امه ــ وهي احوصية عامرية: ــ

أرى كـل ذي شـعـر أصـاب بـشـعـره
سـوى أن عـوامـا بمـا قـال عـيـلا
فـلا تـنـطـقـن شـعـرا يـكـون حـرارة
كـمـا شـعـر عـوام أعـار وأرجـلا

ولننظر لشعر العوام الذي أثار حفيظة بسطام قال:

فـان يـك في يـوم الـغـبـيـط مـلامـة
فـيـوم الـعـظـالى كـان أخـزى والـومـا
أنـاخـوا يـريـدون الـصـبـاح فـصـبـحـوا
وكـانـوا على الـغـازيـن دعـوة أشـامـا
فـررتـم ولـم تـلـووا على مـجـريـكـم
لـو الحـارث الحـراب يـدعـى لاقـدمـا
ومـا يجـمـع الـغـزو الـسـريـع لـغـيـره
وان تحـرمـوا يـوم اللـقـاء الـقـنـا الـدمـا
ولـو أن بـسـطـامـا أطـيـع بـأمـره
لأدى الى الاحـيـاء بـالـنـحـو مـغـنـمـا
ولـكـن مـفـروق الـقـنـا وابـن خـالـه
الامـا فـلـيـمـا يـوم ذاك وشـومـا
فـفـر أبـو الـصـهـبـاء اذ حمـس الـوغـى
وألـقـى بـأبـدان الـسـلاح وسـلـمـا
وأيـقـن أن الخـيـل أن تـلـتـبـس بـه
تـئـم عـرسـه أو يمـلأ الـبـيـت مـأتمـا
ولـو أنـهـا عـصـفـورة لحـسـبـتـهـا
مـسـومـة تـدعـو عـبـيـدا وازنمـا
أبـي لـك قـيـد بـالـغـبـيـط لـقـاءهـم
ويـوم الـعـظـالى اذ نـجـوت مـكـلـمـا

فـأفـلـت بـسـطـام جـريـضـا بـنـفـسـه
وغـادرن في كـرشـاء لـدنـاً مـقـومـا
وقـاظ أسـيـرا هـانـيء وكـأنمـا
مـفـارق مـفـروق تـغـشين عـنـدمـا

لا نريد أن نحقق في هذه القصيدة، ولا فيما جاء بها من لبس جعل كثيرا من العلماء والشراح يقعون في خلط وايهام. فليس هذا من موضوع كتابنا. وكل ما نرمي إليه من ايرادها هو تبيين تأثر العربي بوصمة الفرار، وقد نسب بيت منها لابن عنمة الضبي، لقد بسط العوام أخبار هذه الغزوة، وذكر أنهم لو أطاعوا بسطاما فيما أمرهم بالغزو على الحي المنفرد (بني زبيد) لغنموا ورجع الجيش سالما، ولكنهم جبنوه وأهانوه، ولامه مفروق بن عمرو، وقبيصة بن هانيء، فاستحقا اللوم، وكانا مصدر شؤم. ثم ذكر فرار أبي الصهباء بسطام، وذكر تخلّيه عن درعه حينما جد القوم في طلبه، وخشي أن يدرك، وأيقن ان نالته الخيل ــ ان زوجه ستئم وان بيته سيملأ بكاء وصراخا، ثم قال ان اسرهم لك فيما مضى جعلك تأبى الوقوف لقتالهم، والشطر الاخير لهذا البيت (ويوم العظالى اذ نجوت مكلما) لا يمكن تفسيره اذ انه يتكلم عنه فكيف يشير اليه كيوم آخر؟ والبيت الذي يليه نسب لابن عنمة فلا شأن لنا به، وفي البيت ذكر مصير قبيصة في الاسر ومفروق في القتل، كأنما يشير الى سوء رأيهما حينما رفضا اقتراح بسطام واصرا على مهاجمة بني يربوع، ان العوام وان أبدى رضاه عن رأي بسطام في الرجوع والاكتفاء بالغنيمة الباردة الا انه صفع بسطاما صفعات هزت كيانه وحطمت نفسيته وجعلته يفقد صوابه، فلم يجد بدا من ان يسطو على ابل العوام، وبهذا نعرف مقدار عار الفرار عند العربي، ومقدار تسجيل هذا العار عند الشاعر، فرئيس شيبان وفارس ربيعة بالرغم من معرفته حقيقة فراره فهو لا يريد أن يقبله ولا أن يسجل عليه من قومه ولا أن يشيع في الناس عنه، ولذلك انتقم من العوام. وبقدر ما نرى

من سوء صنيع بسطام بالعوام مع سوء عمله بفراره، نرى تأثير وصمة الفرار في نفوس القوم، ولم تكن القصيدة وحدها التي أثارت غضب بسطام فقد جعل العوام موضوع فرار بسطام ديدنه لينال منه ولينقص من شأنه قال:

قبح الاله عصابة من وائل
يوم الافاقة اسلموا بسطاما
ورأى ابو الصهباء دون سوامهم
عركا يسلي نفسه وزحاما
كنتم اسودا في الرخا فوجدتم
يوم الافاقة بالغبيط نعاما

انه وان جعل اللوم منصبا في أول بيت على اصحاب بسطام الا انه عاد فسخر منه ومرغ انفه بالرغام.

ويأبى الفرسان الابطال الاعتراف بالفرار، الا عمرو بن معدي كرب الزبيدي فارس اليمن فقد اعترف بانه فرور ولم يبرر فراره ولعله جُبِةَ باللوم فاراد ان يسكت القوم بصدقه. ولقد فر من عثمان بن بشر الثقفي فارس السرح فاتبعه عثمان وقارب ان يدركه ولكن عمرا حث فرسه واجهد نفسه حتى افلت وقال فارس السرح:

لعمرك لولا الليل قامت
نوادب حواسر يخمشن الصدور على عمر
وافلتنا فوت الاسنة بعدما
رأى الموت والخطي اقرب من شبر
يحث برجليه سبوحا كأنها
عقاب دعاها جنح ليل الى وكر

وبعد ان بين عثمان مقاربة ادراك عمرو وحدد المسافة القريبة

وبين فزع عمرو حينما رأى قرب الموت منه اخذ في وصف حالته وسجل حركات رجليه وهو يحث فرسه على الهروب من الموت ووصف فرسه بالعقاب المتوجهة الى وكرها وقد حاصره الظلام امعانا بتبيين همة عمرو في الفرار ورغبته في الحياة.

وقد نرى من العرب غير الرؤساء من تغلب عليه شاعريته فيسجل فراره بامانة وصدق غير عابيء بما يجره عليه من لوم او اهانة. فهذا مالك بن خالد بن خناعة الهذلي يحدثنا عن فراره حديث الواثق الصادق المعبر عن احاسيسه المبين عن نوازع نفسه المصرح عن رغبته في الهروب وحرصه على النجاة:

اولئك اصحابي فلا تزدهيهم
بسابة اذ مدت عليك الحلائب

طرحت بذي الجنبين صفني وقربتي
وقد البوا خلفي وقل المسارب

وكنت امرأ في الوعث مني فروطة
وكل ريود حالق أنا واثب

فما زلت في خوف لدن ان رأيتهم
وفي وابل حتى نهتني المناقب

فوالله لا اغزو مزينة بعدها
بارض ولا يغزوهم لي صاحب

اشق جوار البيد والوعث معرضا
كاني لما قد ايبس الصيف حاطب

غيال وانشام وما كان مقفلي
ولكن حمى ذاك الطريق المراقب

ويممت قاع المستحيرة إنني
بان يتلاحوا آخر الليل آرب

قبيلة هذيل هي اكثر القبائل العربية شعراء مع انها لم تكن من اكثرها عددا وهذا يدلنا على ما في نفوس بني هذيل من ملكة شاعرية

متأصلة. لقد كان من المنتظر في البيئة العربية ان يسكت الخناعي عن فراره، ولكن شاعريته ابت ذلك فراح يثبت ما تمليه غير مهتم بسوى ما توحيه.

لقد برع الشاعر في تصوير هربه وخط بريشته المبدعة ساحة ميدانه فحدد بعد اصحابه وجعل نفسه كالطريدة التي جعلت قصبة السباق ونقلنا الى مشاهد الخيل المنصبة لاصطياده، وكأنما بينهم رهان على اسره. ثم بين عن فعله الاول انه القى اهم شيء يحتفظ به المقاتل اثناء طعامه وصميل مائه. لقد تألبوا خلفه وضاقت المسالك وهو يريد النجاة فليتخفف ما استطاع ثم اخذ يصف ما لديه من سرعة فائقة في الطرق الوعثة والمسالك الملتوية ويثب في ارتفاعاتها العالية وثبا، ومازال هذا دأبه معهم والخوف مسيطر عليه والهلع يملأ جوانبه حتى ضاقت عليه المسالك ونهته مناقب الجبال عن ولوجها لكي لا ينقطع سبيله، لقد رآهم قريبين منه وكادوا يمسكونه انه كان من الموت قاب قوسين او ادنى، فهو يقسم ان لا يغزو مزينة ولا يرضى لصاحب ان يغزوهم انه لا يريد الموت له ولا لاصحابه.

لقد ادخلنا الى مأزقه واطلعنا على حرج موقفه وبيّن خوفه وهلعه، فاردفه بقسمه الذي آلي فيه بان لا يغزو القوم باي ارض كانت ولا يريده لمن يود. ثم رجع الى طريقه الذي تكبد فيه الاهوال ورافق فيه المصاعب، انه يشق البيد غير مكترث لما يعترضه من عقبات فهو يرتطم بالصخور تارة ويكتسح اغصان الاشجار تارة، وتتعلق بثيابه اشواك العوسج تارة، وقد علقت به بقايا الاعشاب اليابسة وكانه حاطب قد جمع هذه الاوشاب وهو لا يفتر ولا يكل، فذعره الشديد وحبه في النجاة يحثانه حثا. وللبيت السابع رواية اخرى ولعلها اجدر بموضوع صاحبنا وهي:

غـيـارا واشـمـاسـا ومـا كـان مـقـفـلي
ولـكـن حمـى ذل الـطـريـق المـراهـب

ان الرواية الاولى (غيال وانشاب) اشجار (حمى ذل الطريق المراقب) والرواية الثانية (غيارا) نزولا في الغور (واشماسا) صعوداً في

الجبل، وهاتان اللفظتان الصق بموضوعه، وآخر البيت (حمى ذل الطريق المراهب) اجدر بمسلكه الوعر الذي تجنب فيه زلل الطريق خشية ان يقع فيما يخشاه. وجاءت رواية اخرى (غيال وانشام) والغيال هنا الآجام، والاشام اتجاه الى جهة معينة. فالرواية الوسطى هي التي نراها متوافقة مع قوله انني في صعود وهبوط بين معارج الجبال ومسالك الوديان متجها الى وعورة الطريق وانعراجاته متجنبا السبيل اللاحب خشية ما وراءه. وبعد ان بين جميع المضايقات التي تحاصره واوضح كل المحاولات التي قصد منها إيهام المتابعين له عن مكانه، اخبرنا بانه اتجه الى القاع من المستحيرة والقاع هو آخر المنحدر والمستحيرة مكان يعرفه، وذكر ان مطارديه لم يغفلوا عنه لحظة، فهم يلاحقونه ويحاولون سد المنافذ عليه، فها هو الليل قد ارخى سدوله وهم لا يزالون في مطاردته ومراقبته، وكل امله ان يختلفوا في مكان اختفائه آخر الليل حتى يتسنى له الانفلات منهم، وكان له ماأراد. لقد كشف لنا الشاعر العوامل النفسية التي احاطت بفراره، واطلعنا على المعاناة الصعبة في هربه وبين لنا ما يلاقيه الشريد المطارد من آلام نفسية ومتاعب جسدية ومخاطر جمة. ان هذه الصدمة النفسية التي قصها الشاعر لم تترك آثارها السيئة على نفسه، ولكن تركت آثارها على فكره، فهو لن يغزو مزينة بأية حال من الاحوال، وبأي ارض كانوا. وقد تركنا خمسة ابيات من القصيدة بعد البيت الاخير في المقطوعة التي اوردناها لكي لا نطيل.

وهناك ظاهرة نقف منها موقف الحذر، وهي تنبيء عن مبدأ الفرار عند حبان بن مالك بن خالد بن صخر بن الشريد وهو احد زعماء قبيلة سليم. قال:

وفوارس لبّستهم بفوارس
حتى اذا اتصلت أملْتُ بها يدي
وتركتهم قعص الرماح ظهورهم
من بين مقتول وآخر مسند

هــل يــنــفــعــنــي ان تــقــول نــســاؤهــم
وقــتــلــت خــلــف شــريــدهــم لا تــبــعــد

ونحن وان كان الشك يخامرنا في موضوع هذه الابيات ونسبتها الا اننا سنناقشها على افتراض صحتها.

ترينا هذه الابيات لونا من الدهاء الماكر، ونوعا من الخبث الماكن، وطريقا من الفرار المبطن، وكل هذا نستبعد الاعتراف به من زعيم جاهلي.

ولكن حينما نبحثه قد نتلمس جوانب مهمة في تاريخ الحروب الجاهلية وقد نستنتج تأثيرات نفسية خلفتها تلك الحروب والصراعات المستمرة والتناحر الشديد الذي يقع بين افراد القبيلة نفسها في كثير من الاحيان والتي قد تكون تلك الظاهرة الغريبة الشاذة احدى رواسبها.

يقتضينا البحث ان نبتعد قليلا عن موضوع الفرار لنتجه الى آثار الحروب وما تخلفه من هلاك ودمار وما تتركه من ضغائن واحقاد، وما تجره من مصاعب ومتاعب للمجتمع، وما تدخله في النفوس من اضطراب يكاد يعصف بالقيم.

ومما يزيد هذه الصراعات آلاما ومرارة، ان تكون بين الاقارب، وحبان بن الحكم قد قتل آباؤه واعمامه في حروب قبلية مستديمة، ثم انه لما كان احد زعماء قبيلته حدث ماهو اشد وافظع، فقد تحول الصراع بين قبيلته نفسها وتزعم جانبا من هذا الصراع العباس بن مرداس وتزعم الجانب الاخر خفاف بن ندبة ودام القتال بين الفريقين ردحا من الزمن.

وسنورد ما قاله الضحاك بن عبدالله السلمي، وما قاله زعيما هوازن دريد بن الصمه ومالك بن عوف النصري، وما قاله العباس وخفاف بن ندبة. لنستكشف رأي الزعماء الجاهليين المتأخرين في الحروب، بعد ان عاشوا صراعاتها وتبينوا عواقبها، وتحملوا مصاعبها، وارادوا لهذه القبيلة ان لا يفنيها التناحر، ولا يضعفها التنازع، وضربوا الامثال للزعيمين المتنازعين بالقبائل التي دمرتها الحروب.

واليك هذه الأقوال (كان العباس يهاجي خفاف بن ندبة السلمي ثم تمادى الامر بينهما الى أن احتربا وكثرت القتلى بينهما فقال الضحاك بن عبدالله السلمي، وهو صاحب أمر بني سليم، يا هؤلاء، اني أرى الحليم يعصى والسفيه يطاع، وأرى اقرب القوم اليكما من لقيكما بهواكما وقد علمتم ما أهاج الحرب على العرب حتى تفانت، فهذه وائل في ضرع ناب وعبس وذبيان في لطمة فرس وأهل يثرب في كسعة رجل ومراد وهمدان في رمية نسر وامركما اقبح الأمور بدءاً، وأخوفها عاقبة، فحطا رحل هذه المطية النكداء، وانحرفا عن هذا الرأي الأعوج. فلجا وأبيا الا السفاهة، فخلعتهما بنو سليم واتاهما دريد بن الصمة ومالك بن عوف النصري رأس هوازن، فقال دريد يا بني سليم اني حملني اليكم صدر وارد، ورأى جامع، وقد قطعتم بحربكم هذه يداً من أيدي هوازن، وصرتم بين صيد بني الحارث وصهب بني زبيد، وجار خثعم، وقد ركبتما شر مطية، وأوضعتما الى شر غاية، فلا لان قبل أن يندم الغالب ويذل المغلوب، ثم سكت، فقال ابن عوف: كم حي عزيز الجار مخوف الصباح أولع بما اولعتم به، فأصبح ذليل الجار مأمون الصباح، فانتهوا، ولكم كف طويلة وقرن ناطح قبل أن تلقوا عدوكم بكف جذماء وقرن أعضب، فندم العباس وقال: جزى الله خفافا والرحم عني شرا. كنت أخف بني سليم من دمائها ظهرا، وأخمصها من أموالها بطنا، فأصبحت ثقيل الظهر من دمائها ننفضح البطن من اموالها، وأصبحت العرب تعيرني بما كنت أعيرها به من لجاج الحرب وأيم الله لوددت أني كنت أصم عن جوابه أخرس عن هجائه، ولم أبلغ من قومي ما بلغت، فلما أمسى تغنى:

ألم ترني كرهت الحروب
وإني ندمت على ما مضى
ندامة زار على نفسه
لتلك التي عارها يتقى

وأيقنت أني لما جئته
من الأمر لابس ثوبيْ خزى
حياء ومثلي حقيق به
ولم يلبس القوم مثل الحيا
وكانت سليم اذا قدمت
فتى للحوادث كنت الفتى
وكنت أفيء عليها النهاب
وأنكي عداها وأحمي الحمى
فلم أوقد الحرب حتى رمى
خفاف بأسهمه من رمى
فألهب حربا بأصبارها
فلم أك فيها ضعيف القوى
فان تعطف القوم أحلامها
ويرجع من ودهم ما نأى
فلست فقيرا الى حربهم
ولابى عن سلمهم من غنى

فأجاب خفاف :

أعباس إما كرهت الحروب
فقد ذقت من عضها ما كفى
أألقحت حربا لها درة
زبونا تسعرها باللظى
فلما ترقيت في غيها
دحضت وزل بك المرتقى
فأصبحت تبكي على زلة
وماذا يرد عليك البكا
فان كنت أخطأت في حربنا
فلسنا مقيليك ذاك الخطا

وان كـــنــت تـطــمــع في ســلــمــنـــا
فـــزاول ثـــبـــيـــرا وركـــنـــي حـــرى

لا نـريـد أن نتعرض لدراسة هذه الأقوال، وانما نريد أن نستخلص منـها جانبا مهما، وهو ما تركته هذه الحروب من آثار في عقول هؤلاء القوم وأفهامهم وما أبقته من رواسب في أعماق نفوسهم، لقد تبين لنا ان الـفـكـر الجـاهلي المتأخر بدا يصحو من سباته، وبدا يتلمس الطريق الصحيح.

ولـم يكن هذا المسلك الجديد في الفكر الجاهلي الا وليد صراعات نفسية وفكرية ذات أعماق بعيدة.

وقـد نـسـتـنـتج من وجود هذه الصراعات النفسية، حالات شاذة، كحال حبان بن الحكم.

ولـنـعـد الى فراره، وقد قال في أبياته (أملت بها يدي) اي أنه بعد أن أشعـل نـار الحرب بين الـقـوم وحـقـق كـل سوء وتركهم بين قتيل وجريح، أمال يده بفرسه وفر. وهنا تتضح لنا أهمية الخيل في مثل هذه المـواقـف. وحبان يحدثنا عن فراره حديث الواثق من أنه لا يدرك وهذا يـدل على أن فـرسـه لا يـلـحـق، ثـم يـعلل فراره ويقول هل ينفعه ثناء الـنـسـاء وقـد تـركـه عدم الفرار مرميا بين الاحجار، وماذا يفيده المدح بعد أن يكون قتيلا.

ومن هنا نعلم ان فرار حبان كان عن تأثيرات فكرية ونفسية.

ولحبان أبيات أخرى قالها في فراره من بني عوف قال:

لـمـــا رأيـــت بـــنـــي عـــوف وخـــيـــلـــهـــم
يـــنـــعـــون بـــشـــرا دعـــاء غير تـــهـــلـــيـــل
زجـــرتـــهـــا ثـــم قـــدمـــت الـــعـــنـــان لهـــا
كـــأنـــهـــا خـــوط بـــان جـــف مـــطـــلـــول
(اقـــبـــلْـــتُـــهـــا) الخـــلّ لا الـــوي على أحـــد
ولا يـــبـــين لهـــم زجـــري ولا قـــيـــلي

لقد جاءت في المصدر الذي نقلنا عنه وهو (المحبّر) كلمة اثقلتها بدل الكلمة التي وضعناها وقد وضعت المصححة اثقل بين قوسين وأشارت في الهامش على أنها مطموسة وقد تكون أثقلتها أو اقبلتها.

وللخل معان كثيرة، منها الرجل القليل اللحم، والشر، والطريق النافذ بين الرمال المتراكمة. والمعنى الاخير هو الأقرب لموضوع الابيات والانسب لطريق الفرار، ولذلك وضعنا اقبلتها، ومما يؤكد لنا صحة ذلك بيت أورده صاحب اللسان لبعض الشعراء قال:

اقبلتها الخل من شوران مصعدة
انى لأزرى عليها وهي تنطلق

ان حبان حينما رأى جد بني عوف وتصميم فرسانهم على الأخذ بثأرهم وهم ينعون بشرا بهمة ليس فيها ضعف ولا يعتريها وهن، نكص على عقبيه وزجر فرسه وقدم لها العنان ثم وصف رشاقتها وانسيابها ورقة إهابها، وكأنها غصن بان جاف وقع عليه الطل.

ثم انه لم يقبلها القوم كما كان مفروضا فيه وانما اقبلها الخل لتنساب في منعرجاته وتختفي وراء كثبانه، غير عابىء بمصير قومه ولا مكترث لما يصيبهم ولا ملتفت لأحد منهم وكل همه ان يخفي عنهم شدة زجره لفرسه لحثها على الفرار واندساسه بين كثبان الرمل ليبعد عن اسماعهم صوت ضحكاته الساخرة من واقعهم الاليم. لقد تبين لنا من قطعتي حبان الشعريتين قدرة فرسه المتمكنة من النجاة بصاحبها ومن هذا نعلم أي مكانة للخيل في المجتمع الجاهلي اذ لولاها لاصبح حبان وامثاله نهبة للقتل أو الأسر.

وقد نلاحظ لدى بعض الجاهليين ميلا نفسيا الى الفرار وان لم يفصحوا عنه فالشاعر بشر بن أبي خازم الاسدي ينبئنا عما في قرارة نفسه بتقريره العام حيث يقول:

ولا ينجي من الغمرات الا
براكاء القتال أو الفرار

انه يقرر واقعا، ولكنه مع ذلك يكشف عن دخائل نفسية، فنحن نستشف ميله الى الفرار.

وسنختم هذا الفصل بواقعة فرار حدثت في أخريات الحروب الجاهلية وفي أول معركة اسلامية لنطلع الى ما توصل اليه المجتمع الجاهلي من تفهم واقعي لحالة الفرار في الحرب اذا لم تكن هناك فائدة من الثبات الا التعرض للهلاك.

صاحب هذا الفرار زعيم قرشي بارز يحتل مكانة عالية ومنزلة رفيعة هو الحارث بن هشام المخزومي وقد فر في غزوة بدر بعد ان انتصر المسلمون في المعركة انتصارا كاسحا وبعد أن قتل أخوه أبو جهل رأس قريش واناس من بني مخزوم.

لقد اتخذ الشاعر المفلق حسان موضوع فرار الحارث نافذة يطل منها على قريش ليرسل صواعقه المحرقة ويقذف بحممه المهلكة، فيلبسها ثوبا من السخرية المرة والاستهزاء المشين انه يريد ان يحطم معنويات قريش باظهار أبرز زعمائها الباقين بصورة مزرية مخزية. قال حسان في فرار الحارث:

ان كنت كاذبة الذي حدثتني
فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الاحبة أن يقاتل دونهم
ونجا برأس طمرة ولجام

جرواء تمزع في الغبار كأنها
سرحان غاب في ظلال غمام

تذر العناجيج الجياد بقفرة
مر الدموك بمحصد ورجام

ملأت به الفرجين فارمدت به
وثوى احبته بشر مقام

وبنو ابيه ورهطه في معرك
نصر الاله به ذوي الاسلام

نرى الشاعر هنا وقد اتخذ منهجا جديدا في التحقير والازدراء

وخاطب محدثته التي لم يصدق ما قالته في أبيات سابقة لم نذكرها، وقال لها ان كذبت فأرجو لك منجى الحارث بن هشام. ان هذا الاسلوب المبتدع الساخر هو سهام مسمومة يصيب بها اكباد قريش. انه يخاطب امرأة لا حول لها ولا قوة ولا لوم عليها في الهروب، ويدعو عليها ان كذبته ان يكون منجاها كمنجى الحارث. وفحوى قوله، ان فرار الحارث لو صدر من غانية لكان وصمة لها ابد الدهر فكيف يكون على الحارث وقريش؟ انها سخرية لاذعة واستخفاف مزر وتهكم بالغ، وبعد هذه المقدمة المستحدثة والاختراع الجديد بادخال القصة وضرب المثل بفرار الحارث، شرع في موضوع الفرار واتجه الى وقائعه المخزية، ان الحارث ترك أخاه أبا جهل يصارع الموت وخلف قومه بين قتيل واسير وجريح واسرع في الهروب، لا يصحبه الا الفرس ولجامها، وهذا كما قلنا سابقا امعاناً في تبيين حرص الفار على النجاة وتبيين لرغبته الشديدة في الحياة واهتمامه العظيم بما يساعده على التخفف والهروب، ثم أخذ في وصف فرس الحارث وبين مدى سرعتها وأنها تترك الجياد القوية خلفها بمسافات بعيدة وأوضح الجهد الذي بذلته الفرس وكل هذا يعود على الراكب الفار، فخوفه الشديد من الموت وذعره المتمكن من ان يهلك، هما اللذان يحثانه على الاسراع ويجعلانه لا يلوي على شيء ولا يهتم للعواقب المزرية لفعله المشين. ثم ربط بين شدة اهتمامه في الاسراع في الفرار وتبيين الجهد المضني في عدو الفرس المتواتر وانطلاقها الخاطف، وبين أبيه المقتّلين. وكأنما يقول له ان فرارك بعد ان قتل من كان معك وهم أقرب الناس منك لدليل على حقارتك وجبنك ولؤمك، لقد كان الأولى بك ان تصبر كما صبروا وان تثبت كما يثبت الزعماء الاوفياء، اما صنيعك فلا يصدر الا عن مخلوع الجنان دنيء الخلق سيىء الطباع. لقد كان حسان بارعا في التشهير متعمقا في التحقير، مقتدرا في التعبير، فقد هجا فاوقع وهزأ فآلم وهاجم فحطم، ان التأثير الدعائي البالغ الذي صنعته قصيدة حسان وقع على قريش وقع الصاعقة، فلئن كانت معركة بدر قاصمة الظهر بالنسبة لهم، فان اقوال حسان هي التي تهز معنوياتهم وتزعزع

اطمئنانهم وتبلبل نفسياتهم.

ونلاحظ ان المجتمع الحربي الجاهلي في قريش أخذ يواجه هذه الصدمة المريرة بواقع منطقي وهو يتحمل رواسب الماضي ويتكبد أعباء الحاضر. كان الحارث بين أمرين كلاهما مر، اما ان يسكت كما سكت رؤساء عصره حينما يكونون في وضع كوضعه، واما ان يصدق ويبرر موقفه الشائن، وقد فضل الأمر الثاني واليك تبريره قال:

الله يعلم ما تركت قتالهم
حتى علو فرسي بأشقر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقائهم
في مأزق والخيل لم تتبدد
وعلمت أني ان اقاتل واحدا
اقتل ولا يضرر عدوي مشهدي
فصددت عنهم والأحبة فيهم
طمعا لهم بعقاب يوم مرصد

لا نجد في تاريخنا الحربي كله تبريرا أصدق ولا اعتذارا أحكم، ولا حجة أقوى للفرار مما قاله الحارث.

ولا نريد ان نشرح جميع ما في هذه الأبيات من اعتذار وتبرير وحجج منطقية ولكنا نريد أن نقف عند مطلع الأبيات (الله يعلم) والبيت الأخير لننفذ الى العوامل النفسية التي تركت آثارها في شخصية الحارث حتى أخريات حياته.

لقد اشعرنا الحارث بابتدائه بأنه متهم ومحكوم عليه بالجرم والناس لا تقبل عذره مهما كانت ظروفه وتبريراته، ولذلك اتجه الى المولى عز وجل فهو الذي يعلم حقيقة موقفه. نستنتج من هذا ان الحارث قد ضاق بموقعه بعد فراره، وان الموت كان أهون عليه مما يعانيه، وصمم الحارث على أن يعيش في واقعه المؤلم ويكابد وضعه المزري بعقلية حربية متحررة من تقاليد الماضي، ولكن أنى لمجتمعه ان يتقبلها.

كان الشرف الحربي والقتال الفروسي والعرف الجاهلي يحتم على

الحارث الموت في موقفه لتبقى صحيفته بيضاء.
اما الموقف الحربي الخالص في نظر الحارث فهو يختلف عن عرف عصره ومنطق قومه، لقد قاتل حتى جللت الدماء فرسه، ثم لم يجد مجالا نافعا في ثباته الا أن يعرض نفسه للقتل، فلماذا لا يحافظ عليها لا لها وانما ليوم آخر يعرضها فيه للقتل الذي يكون نتيجته كسبا لقومه ونصرا لهم؟ انه سيجعل ثقله العظيم لاعداد يوم يقتص فيه من المسلمين. ولو قدم هذا التقرير لهيئة اركان في عصرنا الحاضر لاعتبرت فراره كسبا وقلدته وساما عاليا. ان نظرته الحربية المتطورة هي جدّ قريبة من النظرية الحديثة في تقليل الخسائر في حال الهزيمة والمحافظة قدر الاستطاعة على القوات المتبقية.
ان الرأي الحربي السليم الذي ابداه الحارث لم يكن ليجد آذانا صاغية في عصره فبيئته العربية لا تقبل المناقشة في الفرار ولا ترى وجها للاعتذار منه ولا ترضى بأي تبرير له. وبالرغم من صدق الحارث وصراحته الواضحة ونظرته الحربية الصائبة في معالجة نكبته المريرة ورده على حسان رضي الله عنه الا انا نجد جراحات بليغة في أعماق نفسه تركتها حادثة الفرار وزادتها آلاما ومرارة أقوال حسان الخالدة، ولم تندمل آثار تلك الجراحات من نفسية الحارث رضي الله عنه حتى بعد ان اسلم بل ظلت كامنة في احاسيسه متأصلة في عقله الباطن، وأراد رضي الله عنه ان يمحو آثارها ويقضي على جذورها فوهب نفسه للجهاد في سبيل الله وخرج بعد ما أسن مع أهل بيته الى الشام لينضم الى صفوف المجاهدين وهو زعيم مكة في الاسلام كما كان زعيمها في الجاهلية فخرج أهل مكة يودعونه ويبكون فراقه، فالتفت اليهم وقال: والله لولا انه الجهاد في سبيل الله لما تركتكم.
ان حادثة فرار الحارث اطلعتنا على تقدم الفكر الحربي لدى العرب عامة ولدى قريش خاصة، وان تبريره وحججه ونظرته لم تكن الا وليدة ذهن حربي متقدم.
لقد اتضح لنا أن الخيل هي المحور في موضوع فرار الزعماء وتبين لنا تركيز الشعراء على سرعتها واضفاء الهالة على صفاتها في تحملها

وشدة جريها، لأنها السبب في نجاة صاحبها ومن هذا الجانب يظهرون خور الفار وضعف عزيمته في الثبات وحبه الشديد للحياة ورغبته الاكيدة في الانفلات، وتصويره بالمهانة والجبن وانه غير جدير بالكرامة والعزة، والعربي يأبى ان يعيش بدون هاتين الصفتين، ولذلك نرى أن الكثير من فرسانهم فضلوا الموت مع اتاحة الفرصة لفرارهم على أن يعيشوا مجروحي الكرامة، كما نرى ان من فر ظل يعاني صراعات نفسية وازمات معنوية، ولا يريد الفُرّار من الزعماء العرب الاعتراف بما للخيل من فضل في نجاتهم ولا يرغبون الى ذكر شيء من ذلك فهم ينأون عن جرح كرامتهم.

وقد نجد غير العربي يشمئز من تذكيره بهروبه، لكنه لا يلبث أن يعود الى صوابه.

فهذا كسرى وقد هزم في النهروان، ويكاد يؤسر فينقذه حسان بن حنظلة بتقديم فرسه الضبيب له فينجو كسرى من هول يومه. ويقول حسان في ذلك:

تلاقيت كسرى ان ينال ولم أكن
لاتركه في الخيل يعثر راجلا

تركت له متن الضبيب وقد بدت
مسومة من خيل ترك وكابلا

ثم جاء حسان الى كسرى بعد ان استقر به ملكه فأقام ببابه لا يصل اليه، فلما طال به الامر اتى الحاجب فقال: انك قد اطلت حجابي وانا اعظم الناس يدا عند كسرى، فاعلمه مكاني، فاعلمه مكانه، فأذن له فقال: من انت وما يدك هذه؟ قال انا الذي حملتك على فرسي يوم النهروان وقد قام بك برذونك. قال كسرى: اف لك لقد ذكرتني اخبث يوم مر بي قط.. اخرجوا هذا الكلب، فأخرجوه، حتى اذا انجلت عن كسرى الهموم ندم واستحى، فأكرمه واحسن جائزته واقطعه طسوج وهي من الكوفة على فراسخ.

وهكذا نعلم مكانة الخيل العربية وأهميتها في ذلك الزمان الغابر.

فهرس المواضيع

فهـــرس الشعــراء والاعــــلام

الارقام الواردة بعد الاسماء يد الاول منها على الصفحة وما يليه على السطر

فهــرس القوافـــي

حــرف الـ (أ)

حـرف الـ (د)

حـرف الـ (ر)

حـرف الـ (ل)

حـرف الـ (م)

حـرف الـ (م)

حـرف الـ (ن)

حـرف الـ (هـ)

حـرف الـ (ي)

فلله عينا من رأى مثل مالك   عقيرة قوم ان جرى فرسان

» » » » » »   » » » » »

» » » » » »   » » » » »

» » » » » »   » » » » »

وكان اذا ما كان يوم كريهة   فقد علموا اني وهو فتيان

» » » » »   » » » » »

» » » » »   » » » » »

» » » » »   » » » » »

تصحيح الأخطاء في كتاب «الخيل عند العرب» الجزء الأول ـ للشيخ محمد الصالح آل ابراهيم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	ملاحظات	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	ملاحظات
٧	١		المقدّمة		١١٦	٦	توضيه	توشيحه	
١٤	٢	مظرد	مطرد		١١٧١	٦	هذ	هذه	
١٦	٩	مذهب	ومذهب		١١٧	١٢	أحمرت	احمرت	
٢١	٥	واسوئه	وأسواه		١٢٠	١١	قليل	مليل	
٢٢	٨	تغريهم	تغريهن		١٢٢	٢	يلقي	يلقى	تلغى النقطتان
٢٦	٢٥	حاجلةُ	حاجلة		١٢٤	٢٦	رواه	وراء	
٢٦	٢٤	بحيّح	بحيح		١٢٨	١	المكرمة	الحكومة	
٢٧	١٨	المتسب	المتنسّب		١٢٨	٤، ٧	قطبة	هرم بن قطبة	
٣٦	٤، ٥			السطران	١٢٨	٨	أعلا	أعلى	
٣٦	٢٨	بالامر	لامر	متصلان	١٣١	٢٤	بن عاصم	بني عاصم	
٣٦	٣	باباحة	بإباحة	كسر الهمزة	١٣٢	٨	لتضبطون	لتضبطن	
٣٦	٢٨	لامر	بتلأمر		١٣٥	١٨	لام	لأم	
٤١	١١	لبنه	ابنه		١٣٥	٢٥	تضمرّ	تضمّر	تقديم الشدة على الميم
٤٢	٤	يكشف	تكشف		١٤١	الأخير	أخبار	إخبار	كسر الهمزة
٥٢	٢٢	دواد	دوّاد		١٤٣	٢٢	فأبلى	فأبلي	
٥٤	١٥/١٦	الهولاء	الهوى		١٤٤	٢٥	أودي	أودى	
٥٥	١٦	تقولا	تقولان		١٤٥	الأخير	أشتهر	اشتهر	الغاء الهمزة أو كسرها
					١٤٧	٣	مرزؤه	مرزؤ	الهمزة فوق الواو
٦٧	٢٤	سلمي	سلمى		١٤٩	١٩	بن	ابن	
٦٨	٢٠	أنها	انها	كسر الهمزة	١٥١	٩	نفسي	نفسه	
					١٥١	٢٠	هلال	بحيٍّ هلاّ	
٧٠	١٨	غارسا	فارسا		١٦٠	١٢	معّودا	معوّدا	تأخير موضع الشدة
					١٦٣	٢٠	غوتا	غوثا	
٧٢	٥	يبارسها	يبارسا		١٦٦	٥	يفارقني	يفارقني	
٧٢	٢٤	أعباسا	أعباس		١٦٧	١١	الحجي	الحجى	
٧٥	١٦	ابنه	ابنه (١)	رقم الهامش	١٧٠	١١	يدعى	يدعو	
					١٧٠	٢٦	ألا	لا	
٨١	٢٣	إذا	إذ		١٧١	٧	ابن	بن	
٨٥	٧	هتكت	هتكت به		١٧٢	٢٠	شراب	شرابي	
٩٠	٩	حرض	حرص		١٧٥	٢٠	ابن	بن	
٩٢	١١	فشخصية	ان شخصية		١٧٥	٢١	تغير	يغير	
					١٧٥	٢١	وثيتل	-	تحذف

تصحيح الأخطاء في كتاب «الخيل عند العرب» الجزء الأول ـ للشيخ محمد الصالح آل ابراهيم

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب	ملاحظات
٩٢	١٦	كرائما	كرائمنا	
٩٨	٤	اذا	اذ	
٩٨	٢٥	تعلم	تعلمي	
٩٩	٨	الأخبار	الإخبار	كسر الهمزة
١٠٢	٣	فلأكليل	فالإكليل	كسر الهمزة
١٠٢	٦	بالأقداء	بالإقدام	====
١٠٢	١٠	أنتقيت	انتقيت	
١٠٢	١١	واناتنا	واناثا	
١٠٥	٢٠	تعودا	يعودا	
١٠٥	٢١	استطعمتيه	استطعمته	
١٠٥	٢٧	====	====	
١٠٦	٤	بأبنته	بابنته	حذف الهمزة
١٠٧	٨	زيد	زبد	
١٠٧	٢٨	وهو	وهي	
١١٢	٢١	لبيد	لبيد	
١١٢	٢٤	====	====	
١١٥	٢١	أشداء	فرسان أشداء	
١٢٤	٢٣	وبلائه	وبلاءه	
٤	٢١	مكة	المدينة	
١٨	٢٠	عَبدن	عَبْدَه	

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	ملاحظات
١٧٩	١٥	ويستغني	ويستغنى	الف بدل الياء
١٨٥	٢٤	أكلبي	أكلبى	
١٨٦	٢٧	عادية	قوية فحسب	
١٨٨	١	فصة	قصة	
١٨٩	٢٢	وحارز	وحازر	تقديم الزاء وتأخير الراء
١٩٠	١٢	ليظهر بمظهره	ليظهره بمظهر	
١٩١	٢٢	بأسا ري	بأسارى	
١٩٢	٢٠	أن	إنْ	كسر همزة إن
١٩٣	١٤	ستثم	ستثيم	
١٩٤	١٩	عمر	عمرو	
١٩٥	٣	حاصره	حاصرها	
١٩٥	٢٢	وأنشام	وأنشاب	
١٩٧	٢	زلل	ذلل	
١٩٤	٤	والأنشام	والأنشاب	
١٩٩	٢٠	تنفضح	منتفخ	
٢٠٥	٨	علو	علوا	
٢١٠	٢	يد	يدل	
٢١٠	٢	يد	يدل	
٢١٣	٧	الحنيظلة	—	تشطب
٢١٣	الأخير	السلكة أم السليك	(زائدة ـ تحذف)	

